رواية

جاسوس في الكعبة

مصطفى عبيد

الرواق للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

(كلمه مهمة) :

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

جاسوس في الكعبة

رواية..

تأليف: مصطفى عبيد.

عن الرواية..

"أنا سيد المكر، وملك الحيل، لا حدود لطموحي، ولا رادع لتقدمي. أؤمن بنفسي قبل إيماني بأي عقيدة، وأثق في كوني أدهى من يسير على اثنين. مَن يُعاديني ميت وإن ظن أن لديه منعة، ومن يلامس خلايا الشك عندي، مُنته، ولو اعتقد أنه له خاطر. لا خواطر لأحد".

هذه رواية تستند على أحداث حقيقية، تتشابك مساحات الخيال فيها مع الواقع، لتلتقط سيرة جاسوس استثنائي، أهملته كتب التاريخ، وغفلت عنه كتب الأدب، زُرع زرعًا في قلب القاهرة زمن محمد علي، وشهد حروبه مع المماليك والوهابيين والأتراك، واحتك بالناس في الشام، والمحروسة، والحجاز.

هي حكاية صراع أزلي، مُعلن، ومستتر، دموي، ومعرفي، حضاري، وعقائدي بين الشرق والغرب في زمن الغدر والفتك والخيانات.

ليست حكاية تجسس، ولا سيرة عميل، إنها كشف روائي لصاحب مقام شهير مغروس في قلب القاهرة، تحمل سيرته أسرارًا ومفاجآت وتساؤلات لا حصر لها..

مصطفى عبيد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«طلبنا العلم لغير الله.. فأبى أن يكون إلا لله».

أبو حامد الغزالي

١٧ نوفمبر ٢٠١٩م

القاهرة.. مقابر النصر

نهار خارجي

يبحثون عنك، باحث خلف باحث، مغامر بعد آخر، كاتب، سياسي، رجل أمن، مُنظِّر، مُستشرق، أو مُستغرب، أو رافض لكليهما معًا. يرسمون ملامحك بتدقيق، ويسجلون هيئتك كآلة تصوير فوتوغرافية لم تشهدها يومًا. يستحضرونك للتدليل على أمرٍ ما يدور في أذهانهم، يستدعونك لتأكيد فكرة أو رأي رأوه. يعيدون استنطاقَ كلماتك بعد عقودٍ وعقودٍ، يلوون سياقاتها، يُحرِّفونها، يميلون بها يمينًا أو يسارًا، ويُخضعونها لأحكامهم السطحية. يمنحونك نظرات محققين تُفتِّش في عقلك وتفحص سرائرك. يستريبون في أمرك، ويتشككون في نياتك، وكما أتعبتهم ثلاثة وثلاثين عامًا هي عمر خطاك على الأرض، أرهقتهم إرهاقًا بعد موتك.

ينبتون من العدم، جيلٌ وراء جيل، يُحصون أنفاسك، يقصّون آثارك، ويخضعون كُل ما كتبت لأجهزة استشعار الكذب، مُدعين الفطنة، مُعلنين اليقظة الكاملة حيال خداعك ومكرك. نعم مكرك؛ فأنت لديهم ثعلب شديد المكر، واسع الحيل. يتصورونك شيطانًا، اخترق محارمهم، وهتك حُرُماتهم، وبَصَّ على دواخلهم، وأفشى أسرارهم. يرونك داهيةً انسلَّ إلى خطوطهم الخلفية، فنظر وأبصر، وعرف وأيقن، وغاص وأوغل، فصار عالِمًا بما يخفون، واعيًا بما ينوون، مستقرئًا أفعالهم التالية، مستحقًّا لعائنهم المستعرة سنين عددًا.

يسأل أحدهم عن قبرك، يُخيِّل له غروره أنَّ نظرة واحدة على حجارة صامتة ستفك ألغاز حياتك، ستكشف عن سِرّ موتك. يظن وهو المهووس بالكشف أن رؤية السكون المُحيط برُفَاتك ستكون سبيلًا للتعرُّف إليك، يسأل يمينًا ويسارًا، يستقصي باهتمام، ويصطحب رجل أمن فارع الطول مهيب الطلة، للوصول إلى حجرة ضريحك. يصل عند حجرتك بعد لفٍّ ولفّ. يمضي مغتبطًا، وكأنه حقق غاية الغايات. يقف متظاهرًا بالخشوع ليقرأ لك الفاتحة، ثم يلتقط صورة لآية الكُرسي الملتفة حول القبر الرخامي مُسجلًا بَدْءَ مغامرته. يدور دورتين ويفحص كتابة حديثة منقوشة على لوحٍ منتصبٍ فوق القبر تنص في خطٍّ مموجٍ على أنه قبر المنتقل إلى رحمة الله تعالَى الشيخ «الحاج إبراهيم بن عبد الله بركهارت اللوزاني». تاريخ ولادته ١٠ محرم ١١٩٩ من الهجرة، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر «المحروسة» في ١٦ من ذي الحجة سنة ١٢٣٢هـ.

يقف ذلك الزائر طويلًا أمام بقايا بقاياك، يدَّعي معرفتك، يُوحِي لمن حوله بذلك، مُقدمًا نفسه كباحث آثار، يرسم انطباعاته في ورقة صغيرة يُمسك بها، وكأنه مستكشفٌ خبيرٌ في قراءة الموتى، ويبتسم في ثقة المُحكم لأفكاره، الراضي بكلماته، المسكون بالسرد والمُتَيّم بالكتابة، يضع عينيه على اسمك، مُقررًا بينه وبين ذاته أنه عثر على ضالته، وأمسك بتلابيب هاربه، واختار بطَلَه، وهذا البطل ليس بطلًا من

خيالٍ مثل أولئك الذين يمرحون في القصص والروايات، ولكنه نفس حقيقية، عاشت لحمًا ودمًا، وبقيت كُتبًا وبحوثًا، وظلت مُحيرة، غامضة، مبعثرة للأسئلة كلما ذكرها ذاكِر.

صرت هدفه ومبتغاه بعد أن فكر وتأمل، سيوظفك لأغراضه ويستخدمك لحكايته، ويُطل من خلالك على عوالم مُدهشة، أنشأها الشر، وعضَّدها الغدر واستوطنها الخوف. سيستعين بك ليُدوِّن روايته، مفتخرًا بحنكته في اختيار شخصٍ غامضٍ حاصرته التساؤلات في حياته، وبعد انتقاله إلى دار البقاء، ومُدعيًا أنه نافح حقيقة.

يحسب ذلك المصطفى عُبيد أنه أشد ذكاءً ليعرف حقيقتك، تدفعه سذاجته إلى أن يختارك بطلًا لكتابه ولا يعرف أنك أنت الذي اخترته. نعم اخترته، بنصوصك الرائقة، وكلماتك المُدهشة، وحكاياتك الشائقة، ومشاعرك الصاحية. سحبته سحبًا، خطفته خطفًا. كل كلمة لك تركت في خلايا دماغه أسئلة بلا إجابات، كل إشارة عنك في مدونات مَن عايشك حفرت في روحه شغفًا لا ينقطع، هو المختار لا أنت، هو المستخدم، وهو المدعو كي يقُص أثرك. سيمضي خلفك باحثًا، راصدًا، ومُتخيلًا ما لم يقص عنه أحد شيئًا ليكشف للناس عن حقيقتك. من قبرك تطُل ساخرًا من اندفاعه، وسطحيته. لقد بدأ مهمته متعجلًا كالعادة، مندفعًا نحوك، لا بعين المُحِبّ، ولا بضمير الشاكر، لكن بانتهازية التاجر المستغل لكل شيء. مهمته هي أن يُفتشك تفتيشًا، يرصدك ويقرأك، يعجُنك ويخبُزك، يعرفك يعرفك، يفك طلاسمك وأنت الذي أنهكت البصَّاصين، الحُكَّام، القتلة، علماء الدين، ورحَّالة العالم ليستنكهوا عالمك.

مَن أنت؟ ما حقيقتك؟ ما قصدك؟ ما الذي دفعك إلى الترحال شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا؟ ما الذي اضطرك أن تخاطر، تغامر؟ ما الذي رأيت؟ وما اعتقدت؟ ومتى؟ وكيف؟ ولِمَ؟ تلك تساؤلات ما زلت أنت نفسك تردد أصداءها داخلك. فدعه يمر، دعه يعمل، دعه يسأل ودعه يُجِب، واستمتع بحيرته مثلما داخ قبله كُثرٌ، ولا تُلقِ بالًا لما يتصوره بعضهم بأنهم توصَّلوا إلى حكم التاريخ عليك، فالحكم لم يصدر بعدُ، ولن يصدر قريبًا؛ لأن الله يغيِّر أحكام التاريخ كل يوم بإرادته. فابتسِم في ملكوت سكينتك، واستلقِ في أبديتك الناعمة، وتَمَلَّ فيما يكتبه المُسمي نفسه روائيًّا، فربما جاور الحق، ولامس الحقيقة، وربما استمرأ الكذب، وغاص في الخيال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

المُتعلم

نوفمبري

البدايات أطيب من النهايات وأجلى، تتذكرها بوضوح كأنها الساعة الفائتة، يحكي لك والدك بعد أن تبدأ استيعاب ما حولك من حياةً أنَّ يوم ميلادك في الرابع والعشرين من نوفمبر كان غائمًا، وأن زخات من المطر العُباب غسلت تلال المروج الخضراء في مدينة الجمال الرباني «لوزان»؛ حيث كان منظر البيوت المتراصة في مدرجات مُبهجًا، مثيرًا للسحر والوَلَه في نفوس الرائين. أدركت أنت هذا المشهد يافعًا، لكن في سنة الميلاد وهي، حسب ما دوَّنته الأسرة، سنة ١٧٨٤م كان الناس أكثر بهجة، وأنقى وجوهًا، وأرقّ حالًا، وهي المستكينة والفائزة برغَد العيش، وكرامة الحياة.

تبدو هيئة والدك مرسومةً في ذاكرتك كنقشٍ مقدسٍ تستعيده في صلواتك، بطوله الفارع، وبِزَّته العسكرية المبهرة، ونياشين الفخر تُكلل كتفيه، وبتلك الصرامة المُعبِّرة المفروشة كسجاد فارسي أصيل فوق وجهه. تتفكر في صَوَلاته وجَوَلاته كلما غاب، وتزورك بين الفينة والفينة كوابيس موته في أرض غريبة يقاتل فيها بكبرياء. تنتظره بشوقٍ حاذرٍ، مع أمك وإخوتك، وتبتهج مثلهم عندما تسمع أصوات حوافر مُهره الجميل تدق الأرض في تناغُم أخَّاذ.

«سارة حبيبتي» أول كلمتين ينطق بهما كلما عاد مُستقبلًا رأس أمك الصغير فوق كتفه، تشب قليلًا وهي تحتضنه كعيد كريسماس منتظر، بينما ترنو إليه وطمأنينة الأمان تستلقي بين ضلوعك.

تُعجبك غَدَّارته الملتوية ذات اليد الخشبية، تسأل نفسك مرارًا: كم طلقة احترقت واخترقت لحم إنسان، لتطبع كلمة النهاية على حياةٍ مهما طالت قصرت؟ تتخيله يصوِّب فُوَّهة الموت تجاه رجلٍ ما، يدوس بسبَّابة حازمة زناد القتل لتسري في شراييه نشوة النصر.. ما النصر؟ وما الفوز إن كان مقترنًا بآهة آخَر؟ تسأل ولا تجيب.

تنتقل الأسرة جميعًا مع الجد «جيدوني» إلى «بازل» بعد أن نقل مصنع الحرير الأكبر إلى هناك. تتذكر أذناك عبارات كرَّرها جدك «جيدوني» مرارًا لوالدك، كلما قمتم بزيارته، وكأنه مُتنبئ عيناه على المستقبل: «اقبض يديك يا رودلف، لن تبقى الفردوس فردوسًا إلى الأبد»، لكنَّ طرفةَ عينٍ من السيدة الجميلة التي كانت تتأبط ذراعه، تمحو النصيحة التائهة؛ فحُب الحياة لدى النساء يعني الإنفاق، والسعادة هي مزيدٌ من الإنفاق؛ ففي الغالب لا تحترز النساء للغد، يفضِّلن الاستمتاع بالحاضر.

تبدو «سارة روهنر»، الاسم الكامل لوالدتك، سيدة جميلة، إنجليزية المظهر والسلوك واللهجة، أنيقة، ذكية، حنونًا، لديها جذور أرستقراطية لا تمَلُّ من الفخر بها، تعتني بأبنائها الخمسة، وقد تُدلل الابنة الوحيدة «آن»، وشقيقها الأصغر ـ أنت يا يوهان ـ أكثر من الباقين، لكنها في الوقت ذاته تحرص على إلزام الجميع بالنظافة والطاعة والحضور الأسبوعي لقُدَّاس الأحد.

لم يعجبك الاسم الذي اختاروه لك «يوهان»، وهو في الغالب من اختيار أمك، التي ستغفر لها أنها اشتقت اسمًا دينيًّا مأخوذًا من «يوحنا»، ويعني باللاتينية «رحمة الرب»، كونها مثل معظم أمهات ذلك العصر، ترى أن الدين ليس أصولًا تربوية ضرورية فقط، وإنما تراه حصنًا حصينًا ضد خيانات الزمن. ربما تشعر الأم فيما بعدُ بِثِقَل الاسم وقِدَمِه وعدم رضاك عنه، فتناديك بـ«لويس» إرضاءً.

تذكر «سارة» زوجها العقيد في الجيش السويسري مفتخرةً بشجاعته، ونُبلِه، وكَرمِه، مُلمحة إلى ملاءمتها حسبًا وجمالًا لاحتلال موقع شريكة حياته، بعد انفصاله عن زوجة غير مناسبة لم تمنحه قدْره المستحق كفارسٍ عظيم ينتمي إلى النبلاء. تتحدث عنه بإعجابٍ مبالَغ فيه، ولا تسترسل كثيرًا في الكلامً عنه خلال غيابه، حتى تنهمر دموعها المالحة من محجريها.

تنطبع في رأسك دروسك الأولى منها؛ فالأم هي المدرس الأول في مدارس بني آدم. تقول لك في إحدى المرات: إن الإنسان يصنع واقعه. تسألها: كيف وهو المولود في أرضٍ لم يطلبها، لأبوين لم يخترهما، ولمُحيطٍ من الناس لا يملك يدًا لتغييره؟ تُجيبك بأنَّ كثيرًا من أبناء الفقراء صاروا أغنياء، وبعض أبناء الأثرياء صاروا فقراء بأفعالهم التي اختاروها بحرية. تقول لك بنبرات بشر صالحين: إن الرب يمنح الناس السماء والأرض والماء، لكنه يُكافئ مَن يجتهد في استخدام عقله، ويزرع بكدٍّ وإخلاصٍ. تُكرر لك ولإخوتك أن الله لا يضيع جُهدًا ويُكافئ كل إنسان بمقدار عطائه. تدعوك إلى العلم وتُحفزك تحفيزًا، داعيةً إياك أن تصنع مجدك، تفتح بلادًا، توقف ظُلمًا، تزرع خيرًا للآخرين لتحصد ثماره عائلتك ذات الاسم الرنان «بركهارت»، الذي ما انفك يتردد على مرِّ الأزمنة مقترنًا بأمورٍ مستحسنةٍ.

تقول لك ذات العينين البارقتين: «إن البشر يولدون كُل يوم في كل مكانٍ، ويحيون سنوات وسنوات، لكن مَن يخلُد منهم هم الأكثر اجتهادًا». تُخبرك وكأنها تقرأ غدك: «كُن جديرًا باثنين جمعهما الحب والملاءمة: فارسٍ شجاعٍ، وسليلةِ نبلاء إنجلترا الخالدين».

تتعلم الألمانية والفرنسية صغيرًا مثلما تتفتح أذناك وأنت أصغر على الإنجليزية، لغة أمك، ففي مُدن الاتحاد السويسري متنوعة الثقافات لا توجد لغة واحدة، وإنما ألسنة متعددة، وليست هناك سِحنة مميزة، لكنَّ سِحَنَ الناس حولك تتوزَّع بين الفرنسيين والألمان بالتساوي. تصطحبك عربة فخمة يقودها حوذي مُسِن كل صباح إلى المدرسة لتعبر شوارع «بازل» النظيفة الرائقة، وتتوالى على مخيلتك مشاهد الرجال بملابسهم الجميلة الزاهية، وهم يهرولون كل صباح نحو مصانع النسيج ومحالج الأقطان المنتشرة في الأنحاء ليبدعوا في صناعة العصر، التي تصل إلى المدينة العتيقة بأقاصي العالم في الشرق والغرب. يُخبرك جدك أن ذلك النبات القصير ذا الثمرة البيضاء صَنع في الماضي ثرواتٍ وثرواتٍ. ومن مصانع النسيج والملابس، ثُم الساعات لاحقًا بنى نبهاء ومهرة قصورًا، وامتلكوا مزارع وأراضي شاسعة. يُعلمك العجوز «جيدوني» أن المال يصنع المال، وهو يشتري الأمان، وراحة البال، لكنه وحده لا يبني المجد. يدفعك مبكرًا إلى أن تفكر في غدك، مُنذ السادسة يُكرر عليك السؤال الأصعب بشأن ما تحب أن تكونه عندما تكبر. تتراءى

في مخيلتك صورة والدك ببزته الرسمية وحزامه الأسود الملتف حول خصره، قابضًا على غدَّارة سوداء ثقيلة، لكنَّ صوت التمرُّد داخلك يهتف في وجه الجد: سأكون طبيبًا أعالج الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«مارغريتا»

يبحث الكاتب عن لمحات طفولية خاصة بك، سمات مُميزة لك وحدك، جانب مختلف يجعلك تستحق ما وصلت إليه. يتخيل أن أيَّ رجل استثنائي في شبابه لا بُدَّ من أن تكون طفولته استثنائية. يُقلب كتابًا تذكاريًّا صدر عنك باللغة الألمانية لا يتضمن أيَّ إشارات تفصيلية إلى طفولتك؛ ما يجعله يُفكر باختراع أجواء خيالية. يتكئ الكاتب على وَهْم أنه روائي، من حقه استنساخ شخوص من الخيال ليؤدوا أدوارًا في الحقيقة. يُفكر في ذلك كثيرًا، ويُناقش ذاته وينتهي إلى اختراع شخصية يُلقي بها على ظلال حياتك. يدَّعيها ادعاءً ويرسمها رسمًا: فتاة جميلة، رقيقة، ذات قلب أبيض، وروح طيبة تستحق المحبة. يُسميها الكاتب «مارغريتا»، ويقول: إنها تسكن جوار الجد «جيدوني»، وتطل من شرفتها كلما مررت زائرًا إياه، مستعذبةً وجهك الرائق وعينيك الخضراوين. تبتسم لك ابتسامة تشجيع وأنت تدق باب الجد في قلق. تُلاحقك بنظرات تدلل وأنت خارج مُودِّعًا. يُلاحظ الجد لَفَتاتكَ القلقة تجاه الشرفة فيبتسم في مكر مرددًا: الجميلة «مارغريتا». ويغمز بإحدى عينيه مُضيفًا: «ابنة لينوس، فنان الساعات الذهبية الأول في بازل».

تستعذب طلاتها يومًا بعد آخر، وتجد في زيارة جدك، مرتين وثلاث مرات كل أسبوع، ما يثير دهشة والدتك. تخلو كثيرًا بنفسك، سابحًا في خيالات الهيام، تشعُر على الرغم من كونها الأطول قليلًا أنها حبيبتك المُثلى. ترسم صورتها في كراستك، مُتيمًا بجدائل ذهبية تتسدل فوق كتفين رقيقتين، موحية بأكثر من ثلاث عشرة سنة، قال جدك إنها سنها. تقرأ في عينيها حكايات كثيرة مُدهشة عن عوالم سحرية ترفرف فيها عصافير ملونة، فوق شجيرات مزهرة، تطل على بحيرة صافية تسبح فيها إوزات بيضاء. تستمع إلى صوت رقيق يُردد اسمك «لويس» كلحنٍ موسيقي خلاب يُشعل قناديل البهجة في روحك. تبدو ساهمًا، شاردًا، ناعس البال، كُلما طاف برأسك خيالها المُنتصب في الشرفة كأحد أعمدة قصور النبلاء العتيقة.

تُحب جدك، داره، باب الدار، الطريق الصاعد نحوه، شجرة الزيزفون العملاقة المجاورة، يوم السبت قُبيل العطلة الأسبوعية، والشرفة الساحرة بُكل ما فيها، وحتى فن صناعة الساعات، واسم «لينوس» كواحدٍ من الصناع المهرة.

تُحب النسيم المسافر في فضاءات مُحيطة، تعشق ساعة الغروب موعد إطلالتها الصامتة، ثغرها المتبسم بهدوء يليق بملائكة طيبين.

يسألك جدك: بِمَ تشعر؟ كيف تراها؟ تخجل، تخرس، تبتسم في حرج، وتهز رأسك في وجل: «لا شيء.. لا شيء». يُثيرك العجوز بكلماته: «ساحرة.. ساحرة».. ويُتمتم في خُبث: «ليس أجمل من امرأة تُحبك».. ويُكرر وكأنه يستذكر رفيقته الراحلة: «هي الحياة، كل الحياة، وسواها لا شيء».

تسكن يومًا بلا حراك أمام شرفتها منتظرًا طلَّتها. تقف مُخدرًا تناجي الرب أن يدفعها أن تخرج، تُشرق كشمس دافئة، تهل كيوم عيد. تُطيل الوقوف دقائق، ساعات، أوقاتًا لا تُحصيها وأنت تناجي ربك أن تفتح الفردوس نوافذها. تلبث مكانك

دون حراك إلى أن تَسدل الظلمة غلائلها عليك، فتمضي شاردًا حزينًا. تدخل البيت ملتحفًا بصمتك، تلاحظ أمك فتسأل في صلابة: «ما بك؟»، تهز رأسك خوفًا من أن تنبس بكلمة، فيغلبك البكاء، فتُمارس دورها كـ«سارة روهنر» التي تعرفها، وتهمس: «فتاة الباحة، ابنة الساعاتي لينوس.. أليس كذلك؟»، ثم تبتسم في ثقة وتقول: «أنت ابن مجد، يطلب رضاك الناس، فارفع رأسك، وكُن جديرًا ببركهارتي صلب». تصمت وتشعر بمرارة النأي، تتذكر الوجه الملائكي الباسم، وتسري قشعريرة القلق بين أوصالك، فتقول بكلمات مختنقة: «جدي يقول إنهم طيبون». تبتسم «سارة» بعين خبيرة بالنساء وتقول: «سنذهب إليهم في الغد، وسآخذك معي، لكن عليك أن تعدني أن تجتهد في دروسك. أنت أملي الأخير بعد أن ترك إخوتك المدرسة. سأقف بجوارك حتى تصل إلى الجامعة».

تَعِدُها صادقًا، وتكتم دمعة فرح تولد بين محجريك، ثُم تختار الخلوة لتحلم بيدين من رخام تتحسسان وجهك، ثُم تمتد رويدًا رويدًا نحو رقبتك لتجذب رأسك ببطء لتتقابل الأعين في محاورة جدلية عميقة، وتلفحك أنفاس دافئة قبل أن تنجذب ولَهًا نحو شفتين شهيتين تُقطران سحرًا وخمرًا. ما القُبلة؟ ستعرفها لاحقًا كما زارتك في الحُلم، لتعي ما يجعل العشاق يدفعون كل ما يمتلكونه، بل أرواحهم، في وقتٍ ما، ثمنًا لقُبلةٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبـلـة

تحكي «سارة» لـ«رودلف» عقب عودته، تسمعهما معًا جالسين على أريكة البهو، في جلسة سرد اعتيادية تتكرَّر مساء كل أَوْبة. تقول له هامسة: «كان الولد شاحبًا مُتيمًا هزيلًا يكاد يجر رجليه بعد أن أوصلتنا العربة إلى الساحة القديمة، هبطنا أمام البيت، وطلبت منه أن يدقَّ عليه، لكنه انكمش كقطٍّ، فدققت أنا لتفتح لي البنت الجميلة، أوه، هي جميلة حقًّا.. عيناها ساحرتان، ووجهها حَسَن، لكنها طويلة وشاحبة بعض الشيء، سألتها عن السيدة، وأخبرتها بمن أكون، ودلفنا إلى الداخل، لكنها تسمَّرت عندما أبصرت لويس، نظرت إليه بشغف، بإعجاب مفضوح، جلسنا ودخلتُ في حديثٍ طويلٍ مع السيدة حول ساعة ضخمة مميزة تنوي العائلة تصنيعها لوضعها في بيتي، متعهدةً بأن يُنهي زوجي الاتفاق المالي فور عودته مع السيد لينوس، وتركتهما يقفان معًا في الحديقة ويتحادثان. في طريق العودة قبَّلني لويس مرة ومرتين، وهو في غاية السعادة، وسألني: إن واصل التعليم حتى النهاية، هل يكون جديرًا بالزواج من مارغريتا؟ قلت له: تعلَّم ثم تعلَّم، وكُن عظيمًا كوالدك».

تتذكر أنت لقاء الجميلة، ثَمَّةَ أوقات لا تُمحى من الذاكرة، المذاق الأول لا يُنسى، يظل ملتصقًا باللسان، العقل، والروح، أول كأس خمر، أول رشفة قهوة، أول لمسة لشفتي امرأة، أول حِضن، أول حُب، وأول عشقٍ محموم. أوائل الأمور جميلة وعذبة ومبهرة ومبهجة، والنهايات.. آهٍ من النهايات ثُم آهٍ.

تتعارفان تدريجيًّا، تبدو هي الأشد جرأة قليلًا، تسحبك سحبًا نحو حدائقها، تسألك وتسألها، تفتح نوافذها بيسرٍ، بسلاسةٍ، بمحبةٍ. تحكي لك، تبتسم، تضحك، تُخبرك أنها تراك كثيرًا، تتحدث معك ليلًا، تحلُم بك، تصادقك قبل اللقاء، تعرف أنكما ستلتقيان، توقن أنكما ستقتربان أكثر وأكثر. تهمس في أذنك، تتجاوب قَسَمات وجهها المستدير كحبة برتقال مع حكاياتها. تقول لك المهم وغير المهم. تتقابل شفتاها في رقة راسمتين كُل شيء كأنك تعرفها أكثر من «آن»، بل ومن «سارة روهنر» نفسها.

تُخبرك أنها تعلمت: الحياكة، والرسم على القماش، وتركيب عقارب للساعات.. تطهو أحيانًا، تقرأ قليلًا، وترقص عندما ينام الجميع: «ستراني يومًا وأنا أرقص».. تُثرثر عن كل شيء، تكشف لك عن أسرار وأسرار، وكأنها تتعرَّى أمامك. تسيران معًا بجوار سياج قصير يُحيط بحديقة صغيرة قاصرة على صفي ورد وشُجيرتي زان جميلتين. تقول لك: إنك تُشبه ملكًا رومانيًّا قديمًا. تكشف لك عمَّا لفت نظرها فيك، عيناك تمتلئان حكايات وحكايات. تقول لك: «إن كُنت تعرف يا لويس نافورة الساحة القديمة، سأراك هناك عصر الغد، ثَمَّةَ حانة صغيرة على مشارف التل القديم»، تُقبلك في وجنتيك. ساحرة ساحرة، لكنها ليست ملاكًا كما ظننت من قبل. صدق جدك: «ليس أجمل من النساء.. المجد لكل أنثى».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضيف ثقيل

بين يوم وليلةٍ، تتعقَّد الأوضاع في البلاد، صراعات الكبار تُثير التوتر، يكثر اللغط في الأرجاء بضرورة القلق بشأن الغد الغامض، تسمع الجد «جيدوني» وهو يقول لأبيك: «الفرنسيون سيحصدون كل شيء». لا يحب «بركهارت»، الأب ولا الجد، هؤلاء المتعالين ذوي الهامات المشرئبة والأعيُن اللامعة، وأمك أيضًا تزدري فيهم سخريتهم الدائمة من الإنجليز. تتشتت كانتونات الاتحاد السويسري بين الألمان والفرنسيين، بينما يراقب الإنجليز الوضع من بعيد. تنتصر إرادة المقامرين ودعاة المساواة بين البشر ليحل الجيش الفرنسي زائرًا ثقيلًا على البلاد. يرفض «رودلف» التدخل الأجنبي، ويُتهم بالعصيان، ويختفي عن الأنظار.

بين الحين والآخر، تسمع حديث الصغار عن جُثثٍ مُخيفةٍ معلَّقةٍ في الساحات الفسيحة. تتسلل يومًا لتُشاهد ميتًا مُعلَّقًا بحبلٍ غليظٍ من رأسه في برج الساعة العمومي. يتدلى لسان القتيل مقطوعًا من طرفه، بينما تجحظ عيناه بشكلٍ مُخيفٍ، وتتشابك يداه بوثاق معدني خلف ظهره. ترنو إليه فيُهيَّأ لك أنه يُحادثك. يقول لك لسانه المقطوع: «أنا ضحية لا شيء، بطولات زائفة، وخيانات مُتبادَلة، لم أشأ الحرب، لم أختر، دُفعت دفعًا، ووُضعت بين خياري الموت شنقًا، والموت غرقًا، فاخترت أفضحهما للجُرم. لعلَّ بني البشر يتعظون، فيكفون عن تعجيل إرسال الأرواح إلى الضفة الأخرى».

تلتقط أذناك حديثًا هامسًا بين أمك وإحدى النساء حول نية إعدام تلاحق والدك، تُبصر نهرًا من الدموع ينساب على الخدين الجميلين مترجمًا الكبرياء الإنجليزية المجروحة. تفهم كم هي قوية عندما تهتف: «رأسه أعلى من مقصلتهم».

تسألك «مارغريتا» إن كُنت ستبقى في «بازل» أم ستنزح مثل الآلاف الذين انتقلوا خوفًا من انتقام الفرنسيين؟ تتذكَّر عبارات «جيدوني» الخالدة: «آل بركهارت لا يعرفون الخوف»، لكنك تُخبرها بأنك تسعى إلى العلم، ولا تنشغل بغيره، وأنك مؤمن بما تقوله «سارة روهنر» بأن العلماء هم قادة الغد. تسألك بتدلل: «وأنا؟»، تبتسم وتُقبلها قائلًا: «أنتِ نصف الغد». تفاجئك بأن أسرتها ستقطع الطريق شرقًا إلى «زيورخ» قبل أن تعبر شمالًا نحو ألمانيا؛ حيث لا يقدر ثوار فرنسا على تطبيق أفكارهم بمصادرة أموال الناس لا لشيء سوى لأنهم أثرياء، تُغريك فتاتك بأن ألمانيا هي وجهة العلم، تقول لك: «فيها جامعات رائعة أعظم من نيوشاتيل».

بعد عشرين عامًا من كلامها، سيحكي لك صديقك المغامر «جيوفاني باتيستا بلزوني» كيف تحوَّل عن الرهبنة من أجل عيني حبيبة عمره «سارة بلزوني»، وكيف تعلَّم فنون السيرك ليصل إليها، ثم درس الهيدروليكا لإسعادها، ثُم كيف قرأ الجغرافيا، وعشق الآثار والتاريخ الشرقي ليجاريها في ذلك، وكيف انتقل من إيطاليا إلى بريطانيا، ومنها إلى مصر، ثُم السودان، وأفريقيا ليبقى قريبًا منها.

يشتبك العامّ بالخاصّ، وتتلاقى أمنياتك في الفوز بقلب «مارغريتا»، في دعوةٍ صادقةٍ تتبناها الأم بأن تُكمل تعليمك حتى الجامعة في أيٍّ من المُدن الألمانية.

تخبرها بلا يقين باسم «لايبزج» كأفضل مدينة يمكن دراسة الفلسفة والتاريخ فيها، تنطقها بوعيك برحيل «مارغريتا» إليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وداع سويسرا

تلك بلاد لن تحتملها ولن تحتملك، تُسيّرها الريبة ويسوسها الشك، فانجُ من أرض ليس فيها موطئ قدم لنبلٍ. يتحدَّث لك الصمت قائلًا: كم من أبرياء أطاح حد المقصلة برؤوسهم، وأنقياء استعبدهم الخوف، فانقلبوا جواسيس على أحبائهم، وعساكر حازمين لا يكترثون لوجع إنسان قدر اكتراثهم لخُيلاء النصر ومجد الغلبة.

وهذا الرجل الحنون ذو النظرة الحزينة ما زال شاحب الوجه من أثر المحاكمة. صحيح أنهم برَّؤوه في اللحظة الأخيرة ليعفوا رأسه من القطع، لكن من يدري ما تُخبئه الأيام؟! أبوك، معلمك، قدوتك، وناصحك المُحب، يخبرك بنظراته مرارًا وتكرارًا أن الغد المرتجَى ليس على هذه الأرضِ، لا مُناه بعيش رغد وأمان روحي، ولا أحلامه في مجد خالد، أو آماله في أبناء يُحلِّقون باسم العائلة في فضاءات المجد الحقيقي يمكن أن تتحقق هُنا، في «بازل»، مدينة الحُلم الخائب، و«مارغريتا» تناديك دون صوت، بروحها وحنانها وسمتها الودود أن تقدم.

«صرت جميلًا كوالدك».. تقول لك «سارة» وهي تحتضنك مودعة، موصية، أن تفعل ما يجعلك جديرًا ببعث مجد «بركهارت»، تلتمع عينا الجد في إثرك، وتنظر لك «آن» نظرةَ وداعٍ باردةً.

في العربة الليلية، تعبر ساحات السلام المبهجة، ترمي نظرة وداع للتلال الخضراء، وتتابع ساعات معلقة فوق عمائر فخمة تحكي تاريخًا عظيمًا لشعب طموح سعى إلى المجد، وتفرَّد بعلو الهمة، ولم يقبل الخضوع لذلك القائد القصير ذي العينين الزرقاوين، الذي أبحر جنوبًا نحو بلاد مجهولة يسكنها البربر؛ ليقطع الطريق على سُفن سيدة البحار، ويعطل تجارتها إلى بلاد الهند. تكره تمامًا ذلك الـ«نابليون» اسمًا وفعلًا، تمقت غُرورَه، ووحْشِيَّتَه، وبرودةَ مشاعره، ومكرهَ المرسوم فوق قَسَمات وجهه، تنفر من صورته التي رسمتها صحيفة «ذي تايمز» مُبشرة بقائد عبقري.

في الطريق إلى العلم، يلتقي الحسنان معًا: عشقك للمعرفة، ووجه «مارغريتا» الصبوح الناعم كرخام. تدوس عجلات العربة السوداء التي استأجرها والدك لسفرك مدقًّا متعرجًا، يصعد ويهبط، تحتضنه غابات منتظمة على الجانبين أبدعتها يد الخالق بتمعُّنٍ، جمال يجاور جمالًا، وجنان حقيقية من الطبيعة الخلابة تسري رؤيتها في النفس كسحرٍ غامضٍ يتدفق مع الدماء عبر أنحاء الجسد. يُلقي الحوذي في جوفه ببعض النبيذ طلبًا للدفء فتسأله القليل. تُبصر تلالًا من الكرز، وجيوشًا متراصة من الجثث والأشلاء، وجبالًا صفراء، وأناسًا بسِحَنٍ مُظلمة يتصايحون ويتحركون في فوضى، وأعيُنًا ماكرة تنظر بتشكك دائم، وبشرٍ مستطيرٍ. تتمايل أمامك عباءات سوداء ملتفة على قدود أنثوية ممتلئة، تخلع إحداهن سواترها ليبدو أمامك جسد فاتن قاهر يحضك على الفجور حضًّا، تلمح نصل خنجر لامع في الظلام يقترب رويدًا رويدًا، يضحك رجل قصير ممتلئ، تغيب تفاصيل شعره تحت عمامة مزركشة، يشير نحوك بإصبعه، ثم ترى قبرك. يُنزِلك فيه رجال أشداء، قبل أن يحثوا ترابهم مُغلقين كوة صغيرة كان يعبر منها النور. تشعر بارتياحٍ غريبٍ،

قبل أن تكتشف أنه قبرك الحقيقي الذي تقبع الآن تحته وسط مدافن النصر بـ«المحروسة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للعشق زلات

تستبيحك الفتاة التي رسمتها ملاكًا يومًا، في نُزل الطلبة بـ«لايبزج» تستضيفها مُتسللةً ذات صباح لتفتح لك مدارات من الدهشة الجسدية، تُسكرك بملذات بكر لم تعرفها يومًا. تموء فوقك كقطة جامحة لا تعرف حدودًا لأي شيء. كل أمر ليس له سياج، يُثير في النفس شعورًا خرافيًّا بالغبطة يبدأ عظيمًا كجبل جليد، لكنه ينحسر رويدًا رويدًا، وقد يتلاشى في النهاية فتشعر أنه لا شيء، تلتهمك التهامًا، وتبُدي لك أطيافًا من الجمال مُترجمة كلمة الحُب إلى عناقٍ صاخبٍ، وجسدٍ دافئٍ يفتح مسامَّه ليمتص عسلًا يقطر من روحك.

تتعدد اللقاءات، وتوشك أن تصبح «مارغريتا» لُحمة طبيعية في حياتك، عادة مُكررة، كأس نبيذ مُعتق تبتلع به هموم يومك، راحة ضرورية، ووقتًا لمصافحة القمر والتجول بين النجوم في السماء الصافية. تتأقلمان، تتعانق روحاكما معًا فتُصبحان اثنين في واحد. نصفك اللطيف، عالمك الباطني، جسدك الآخر، وعقلك الثاني. تُسر لها بما تتمنى وما تحلم به وما تسعى إليه، تشاركها هواجسك ومخاوفك من غدٍ، تشكو لها طول الطريق وبُعد الغاية، وضبابية الرؤية، تزف لها ما يُبهجك؛ اعتقادًا يقينيًّا أنه يُبهجها، وتحكي لها ما يهمك مُلتمسًا المعاضدة، تملأ غربتك، حياتك، قادمك المجهول في زمن الانقلابات والتبدلات الحياتية.

تصطادك يومًا كفريسةٍ تسعى إلى حتفها، تفتح لك باب غرفتها لتدلف كسارقٍ مستترٍ في غياب والديها الطيبين. تُعد لك شرابًا مسكرًا يليق بلقاء عشيقين حتى الارتواء. تستعر النيران وتتعالى ويخفت العقل لترتفع الحيوانية بتأوُّهات صاخبة يتخللها لهاثٌ مكتومٌ، وتقع الواقعة. يصدمكما مشهد «لينوس» العجوز وهو يحمل بندقيته الخشبية، ويُصوبها نحو عريكما بغضبٍ مقهورٍ. «عاهرة» تُدوي كلمته في صمت المفاجأة كلسعة سوط على ظهر عبد أفريقي يستحق العقاب. تتكمم الشفاه، وتحتضن ساعديه يدا السيدة «لينوس» الفتية من ورائه، مُهدئة، وحاجزة، بينما يصفعك العُري خجلًا وعارًا. تفر مُنكَّس الرأس، بينما عشيقتك المُبهرة تتلقى لسعات الثأر صفعًا، وسبابًا، ولعائن من الرب.

تُفكر أن تكتب إلى جدك مستغيثًا، تطلب عملًا، تبني بيتًا، تفعل ما تنتظره حبيبتك لتنقذها من ازدراء الناس، ولوم المحيطين، لكنَّ سلاسل التعهدات التي قدَّمتها للعائلة المجيدة بالمواظبة على العلم، أحلامك في المعرفة، آمالك أن تبني مجدًا، شعورك بقِصَر العمر يُثبتك مكانك. يُصيبك بالشلل الروحي، فتبكي ليالي طويلة طويلة، وتفزع إلى الرب مناجيًا أن يغفر لك، ويعفو عن زلاتك، فترى في نومك نهرًا جميلًا يقف الناس على ضفتيه يلوح بعضهم لبعضٍ، بينما تعبره أنت سائرًا فوق جسرٍ من الكتب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركي مُحمدي

يكتب الروائي حادثًا خياليًّا يدَّعي فيه أنك تشاجرت مع مُتعلم آخر في جامعة «لايبزج» ولا يذكر سبب الشجار، لكنه يزعم أن زميلك نعتك بالتركي فصدمتك الكلمة. يحاول الكاتب أن يربطك مبكرًا بالشرق، فيمارس عادته في اختراع حكايات لم تحدث. ألا يعلم ذلك القادم من المستقبل أن القدر يسير متحررًا من أيِّ منطق؟! لكن على أيِّ حال فهي عقلية الكاتب التي تدفعه كثيرًا إلى أن يفعل ما قد تستغربه كلما أوغل في روايته. لا عليك، تُركي تُركي، فليعتبرها بداية التفاتك ناحية الحكاية. تظهر الكلمة كسُبَّة عندما ينطقها زميلك مقطبًا حاجبيه، موحيًا بغضبٍ عارمٍ يستعر داخله. يبدو الوصف قريب الصلة بالهمجي، المتوحش، والأحمق. تستفسِّر من مكتبة الجامعة في «لايبزج»، فتقابلك حكايات لا تنتهي عن هؤلاء الحمقى الذين يحكمون نصف العالم الجنوبي، يتملَّكون أرض الديانات القديمة، ويَبدون غلاظ القلب والسِّحْنة، منغمسين في الشرور كشياطين أفلتت من كينونتها لتفسد حياة البشر. هم مُحمديون أجلاف اجتمعوا على نظام سلبٍ ونهبٍ أسسه رجل صحراوي من بلاد الجنوب قبل ألف عام، سَّماه الفيلسوف الفرنسي «فرانسوا آروييه» ـ المشهور بـ«فولتير» ـ «المُدَّعي»، وألَّف مسرحية شهيرة عنه. رُوِيت قصصٌ لا حصر لها عمَّا فعلوه في بلاد أوروبا من قتلٍ وغدرٍ وتخريبٍ، وكثيرًا ما تُحذر الكنيسة من تجديفهم. ولدى هؤلاء كتاب يسمونه القرآن يتصوَّرون أنه جامع كُل شيء، ويقولون: إن المرأة مخلوق تافه، مهمته خدمة الرجل وإسعاده.

تستفزك العوالم المجهولة، تسحر لُبَّك فكرة البحث، تتذكر حديث أمك بعظمة الكشف، تفتح صنابير المعرفة حولك، مستقرئًا عن ذلك العالم الآخر الذي غامر «نابليون» بنصف جيشه ليذهب إليه. تُدقق في الكلمات لتسمع مصطلحات أخرى تحمل الكتب لها ألف معنى ومعنى، بعضها يناقض بعضه: عرب، مصر، الشام، إسلام، شريعة، قرآن، جهاد، مكة، صحابة، جهنم، نصارى، الوهابية، توحيد، رمضان. تقرأ في كتاب آخر لمُجدف أوروبي اسمه «هنري دي بولانفلييه» أنَّ «مُحمَّدًا» كان مصلحًا، أقام نظامًا عادلًا وترك قِيمًا عظيمةً خالدةً. تسأل مُعلمك يومًا: «أين الحقيقة؟»، فيجيبك قائلًا: «حيث ترضى»، فتقول: «وما يدريني أنها الحقيقة؟»، فيرد: «لن تدري وأنت تتنفس.. أنت تظن ظنًّا، تُرجح فقط، كل ما تعتقده مجرد احتمال، ومتى غادرت الحياة تعرف بيقينٍ ما الصواب وما الخطأ». بالطبع فأنت الآن تعرف يا «لويس»، تعرف يا «إبراهيم» كل شيء.

تعزلك الغرفة الصغيرة بالنزل العامِّ للطلبة عن كُل شيء، تتمثل كل يوم ساعات طوالًا مُكبًّا على بهجتك المعرفية، فاتحًا كتابًا تقرأ فيه عِلمًا نافعًا، تتناسى مع الوقت وجه المليحة الجميل الذي طالما سحرك، تتجاهل السؤال أو التحرِّي عمَّا صار إليه أمرها. تتباعد «بازل» أميالًا وأميالًا بما يزيد على البعد الحقيقي على الخريطة، تخفت محبتها بِقِلَّةِ ما يصلك من أخبار غالبها لا يسُرُّ، تتكرر وصايا الوالدين كقداس لا يتخلى عن امتلاك اليقين. يُحفزك «رودلف» على التزود أكثر بعلوم التاريخ والسياسة؛ لأن هناك أملًا في وظيفةٍ بالبلاط السويسري. وتدعوك «سارة روهنر»

إلى تعلم فنون الاستقبال والتحدث مع الملوك والأمراء؛ لأنها حلمت بك قنصلًا لسويسرا في إحدى المدن الكبرى. لا هذا ولا ذاك يُعجبك، ثَمَّةَ وجوه أخرى تحلم بها، أناس غامضون، ونساء ممتلئات، وبنايات قديمة ساحرة، ورجال أشداء يمتطون خيولًا ونوقًا، وخيام سوداء، وقصبات تبغ جميلة الشكل، ووجه أبيض مُشرب بحمرة لرجل قصير سمين، تنز من عينيه خمور الدهاء، ويناديه المحيطون بـ«الباشا».

تنغمس أكثر وأكثر في العلم. مجد الدنيا، حُسن المآل، باب الفردوس، غيث الرب. تدخر كُل طاقة لديك للاطلاع، تتجنَّب الصداقات اللاهية، تتهرَّب من إغراءات زملاء لك لتمر معهم على بيوت العشق المنثورة في ضواحي المدينة، تموت رغباتك الجسدية سهرًا، تخفت حتى ذكرى «مارغريتا» التي لم تبذل جهدًا في البحث عنها. تنعس عن كل شيء سوى الكُتب المعنية بالعالم الأسفل، بالآخرين الغرباء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سحر الشرق

يُخبرك مُعلمك عن منحة إضافية في جامعة غوتينغن، تلك التي أسسها ملك بريطانيا العظيم «جورج الثاني»، تفتح باب العلوم الخاصة بالشرق. تُحفزك أمك على الالتحاق مؤمنة بأن طرق الإنجليز نحو المجد هي الأسرع. يتحدث الناس حولك عن بلدين يبنيان التقدم ويزرعان المدنية زرعًا في العالم، هما: بريطانيا وفرنسا. بالطبع ليس أثقل على النفس أن تقف بجوار مَن صادر أموال عائلتك، واضطهد والدك، وخلع من فوق جسده ملابسه العسكرية، بل وكاد يختطف رأسه بعد أن أطلق عليه صفة الخيانة، أيُّ خيانة لضابطٍ يجابه تدخلًا أجنبيًّا في شؤون بلاده؟! يرسم النابليونيون الموت حولهم، مُدعين نشر مبادئ ثورتهم جبرًا في الشرق والغرب، لا يعنيهم غرس الضيم، وبث الخوف، والاستيلاء على خيرات الناس؛ لذا فعند أيِّ اختيار بين فرنسا والشيطان، لا بديل سوى اختيار الشيطان.

تقرأ في كُتب التاريخ عن بلدٍ يُدعى مِصْر، تختلط فيه حضارات وثقافات وأديان، لكن تميزه آثارٌ ما زالت باقية ترجع إلى عصر بُناة الأهرام بأشكالها الساحرة، التي يُمثل بناؤها لغزًا عصيًّا. هل كان ذلك سببًا لأن يغزوه «نابليون» بثلاثين ألف جندي، مُدعيًا أنه على ديانتهم، وأنه مُخلِّص وحام؟ هل صوَّر له غروره أن هؤلاء السُّذّج مهما بلغت سذاجتهم سيقبلون منطقه، وسيقفون معه مساندين؟ تتوالى الأخبار عن هزائم ثقيلة أوقعها هؤلاء الشرقيون بالجيش الفرنسي المغرور، حتى إن الإنجليز اشترطوا للسماح لجنود «بونابرت» بالعودة أن يُسلِّموا أنفسهم كأسرى حرب.

تحكي لك الكُتب عن بلاد تُسمى الشام، ظلت عاصمة لخلافة المحمديين سنين طويلة، فيها مُدن جميلة مكتظة بالسكان مثل: دمشق، وحلب، وحمص، وبعلبك.. يُحب أهلها الغناء، ويقيم لديهم مسيحيون كُثر، غير أنهم خاضعون للترك المتعجرفين.

تحكي لك الكُتب أيضًا أن الناس في بلاد الشرق يحجون كل سنة إلى مدينتهم المقدسة، في قلب الصحراء؛ حيث يدورون بالآلاف حول بيتٍ صغيرٍ يعتقدون أنه قطعة من الفردوس، ويدَّعون أن مَن زار ذلك البيت غفر الله له كُل شيء مهما كان. بالطبع ذلك المكان ممنوع على غير المؤمنين بدين «مُحمَّد» أن يذهبوا إليه، ومَن يفعل يُذبح، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك مَن ذهبوا من مغامري أوروبا، وشاهدوا ما يُسمى «الكعبة»، وكتبوا عنها وعن هيئتها العجيبة وسجود الناس لها، كان منهم الألماني «يوهان وايلد»، والفرنسي «فنسان لبلان».

حكايات وحكايات، قصص، ومعارف، وآراء تفصيلية، إيجابية وسلبية، ومحاولات لا حصر لها لفك غموض أهل الصحراء، هؤلاء الأجلاف الخاضعين للأتراك، الراضين بهم سادة، والمُضطهدين للمسيحيين في كل مكان. كتاب يسحبك نحو كتاب، وعلم يفتح أمامك روافد لا حصر لها لعلوم حياتية مهمة. إن أحدًا لا يُمكن أن يواجه عدوًّا دون أن يعرفه، يفحصه، يقرأه بعمقٍ، يفتش عن جوانب القوة ونقاط

الضعف لديه، يتعرَّف إلى أسلحته، وحِيَله، وخططه، وطرق التفكير التي يُفكر بها. أنت على يقين بأن «نابليون» فعل ذلك قبل أن يذهب إلى مِصْر، قبل أن تطأ قدماه أرض النيل، قبل أن يسوس أهلها، قبل أن يسيح علماؤه وباحثوه في المدن والقرى راصدين، ودارسين كُل شيء، مضيفين علمًا إلى علمٍ؛ دومًا ينتصر في المعارك المصيرية مَن يعلمون أكثر.

يلاحظ البروفسور «يوهان بلومنباخ»، ذو اللحية الكثة والشعر الكثيف، اهتمامك بالكتب عن الشرق، يستدعيك يومًا إلى مكتبه ويتحدث إليك وكأنه يعرفك، يُخبرك عن دراسات اجتماعية أنفق نصف عمره منغمسًا فيها مستهدفًا التعرُّف إلى بلاد العرب والمسلمين والحضارات القديمة، يسر إليك أنه يتمنَّى أن يعيش ما بقي من حياته هناك، في الصحراء، باحثًا عن معانٍ لحياة زائلة، يَعترف لك يومًا في ثقة، وهو ينفث دخان غليونه العاجي: «يا لويس.. نحن لا نعرف شيئًا، دعك من الكتب المرصوصة في المكتبات، الواقع أعذب وأمتع، ولو كان شيء يستحق أن نموت من أجله، فهو المعرفة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطاب توصية

من «لوزان» إلى «بازل»، ومن «بازل» إلى «لايبزج»، ومنها إلى «فرانكفورت».. ثم أخيرًا إلى «لندن» تُفتش عن ثغرة تُفضي بك نحو سُلَّم المجد، تعرف بعض ما غبت عنه بسويسرا من بين سطور الرسائل، وتعي أن أموال عائلتك نفدت، ولا مجال لصناعة ثروات جديدة بعد أن صودرت شركة الحرير التي أسسها «جيدوني» العظيم. تُخبرك أُمك أن ابن عمها في لندن «جون روث» يمكن أن يجد لك وظيفة مُناسبة تدر دخلًا كافيًا لتبدأ رحلة صعود بعيدًا عن أحقاد الفرنسيين. تؤمن بأن العلوم الشتى التي حصَّلتها كافية أن تفتح أمامك أبوابًا موصدة، وتُهيئ لك فرصًا للتحقق. تهرب بذاكرتك من وجه «مارغريتا» المُطل عليك في خلواتك مطاردًا مؤنبًا كواعظ قروسطي يُذكِّر الإنسان بخطاياه. تُفكر أنك ستعود إليها بعد أن تجد وظيفة لائقة ببركهارتي عظيم، في بلدٍ يُقدِّر الأذكياء والموهوبين. تجلس مع «جون روث»، المحامي المخضرم الذي يُحبطك بتساؤلات شتَّى عن مصير أموال العائلة تليدة المجد، يبدو الرجل غير مُرحِّب بالتوسط لدى الساسة الكبار للدفع بك قنصلًا في مدينةٍ ما، ولا هو يقبلك حتى محاميًا في مكتبه الكبير. تستعرض أمامه علومك، لكنه لا يُبدِي أيَّ تحمس، ويُكرر أن والدك كان يُنفق بسخاء وبذخ، ولم يكُن يُفكر في شراء ضيعة أو مزرعة لأسرته في بلاد التاج الإنجليزي. يبدو «جون روث» بصلعته المُشربة بحمرة، وعينيه المسحوبتين، شديد الكراهية لـ«رودلف» العظيم؛ رُبما لأن «سارة روهنر»، الجميلة الإنجليزية، فضَّلت عليه الفارس السويسري النبيل واختارته شريكًا لحياتها. يقول لك «روث»: إن كسادًا عامًّا يسود البلاد مُذ تلاقت السفن الإنجليزية والفرنسية في معركة طرف الغار قرب السواحل الإسبانية. يطلب منك التريث قليلًا حتى تتحسن الظروف، ثم يتهرب من لقائك بعد ذلك، يتحجج بانشغاله، ويصلك خطاب من شقيقتك «آن»، تُخبرك فيه أن والديك لا يتحملان الاستمرار في إرسال المال لك، وترجوك دون أن تُبلغهما أن تعمل أيَّ عمل، حتى تسنح لك فرصة وظيفة ملائمة.

تُظلم الأيام في وجهك، تسوء الأوقات كوباءٍ، تمر كُل حين على مطاعم المدينة ومقاهيها، طالبًا عملًا، فيستأجرك البعض لتنظف وتنقل المخلفات مقابل شلنات بسيطة تكاد تكفي أجرة الغرفة الصغيرة التي تؤويك. تقضي نهارات طويلة في المرور على المحلات عارضًا خدماتك دون رد؛ فتتذكر حديث أمك عن العلم وما يفتحه من أبواب، تتساءل في سرك: «متى؟»، ولا تجد جوابًا.

ينهشك الإحباط نهشًا، يكتب عنك الروائي مُتخيلًا أنك سِكِّير، بائس، خاب أمله فيك، وخسر ظنه، تجني إثم فراقك فتاة منحتك قلبها وجسدها فتنكرت لها وابتعدت. يتصوَّر مؤلف الرواية أنك تدفع ثمن فعلتك، تذوق مُر ما غرسته من صبار، تُجازَى بما كسبت يداك. يتشفى فيك ربما، يشمت، يُسَرُّ، يرقبك بِغِلِّ المتآمر، ويشحذ سكينًا خياليًّا للإجهاز عليك.

لكنك بركهارتي تعي ما تُلزمك به هذه الكلمة من أفعال؛ فتستجمع رباطة جأشك، وتستنهض بأسك، وتسخر ممن يسخرون منك، وترتد صُلبًا جديرًا بالانتساب

للعجوز «جيدوني»، وتَفكر فيما تعلمت، تَفكر فيما قرأت، تَفكر فيما عرفت، وترسم خارطة للبحر المتوسط، محل الصراع، وتهتف مثل «أرخميدس»: «وجدتها».

تذهب إلى السيد «روث» في مكتبه، تسأله إن كان يعرف الجمعية الجغرافية الجديدة المنشأة لاكتشاف أفريقيا، فيهز رأسه نافيًا، فتوافقه، لكنك تطلب خطاب توصية باسم السيد «جوزيف بانكس» رئيس الجمعية. يقول لك «روث» في استغراب: «لا أعرفه حقيقة!»، ترد بكل ثقة قائلًا: «أعلم أنك لا تعرفه، لكن كل ما عليك فعله هو أن تكتب لي خطابًا، لن أزعجك مرة أخرى ولن ترى وجهي ثانية». تأخذ الخطاب الذي لا يعني لك سوى حيلة لتتمكن من مقابلة «بانكس»، ستقنعه بما لديك، وستعيد اكتشاف قدراتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا خـوف لا تـردد

يتململ الكاتب، يتوتر، يتردد أن يُكمل قصًّا، يتوقف قلقًا، يتأمل، يسكن، ويفكر في الجائحة التي وزعت الفزع في الكون خلال رحلة كتابة روايته، يتوجس من غده، يخاف مثل الجميع، هو يصدُق عندما يُقر بخوفه، خوفه من كل شيء ومن لا شيء. تمامًا مثلما كان يزورك الخوف مرات عِدة في مسيرتك الدنيوية؛ هربًا من وباء شبيه، سلطان غاشم، رجل دين متعصب، عَسَّاس مُتشكك، وربما خطر مجهول.

يجهل مُقتفي أثرك أن الفرار من الموت فرار من الحياة، وأن الخوف لا يمنع خطرًا، وأن السعي مقرون بنبض الإنسان. كل نبضة تنبض في قلب بشر مربوطة بفعلٍ، بِنِيَّةٍ، بفكرة، بخاطر وجود في الكون.

يجلس بصَّاصك المستقبلي في فضاء التأمل وحيدًا أمام آلة تدوينه العجيبة، يُرتل صمته الكشاف، يلاعب خياله ويُحاول السفر عبر الزمان والمكان إلى يوم لقائك «جوزيف بانكس»، رئيس الجمعية الجغرافية في قلب «لندن»، وكأنه ثالثكما.

يقول مؤلف روايتك وكأنه يخاطبك: ينفتح الباب عن غرفة واسعة، مرتفعة السقف، تزدان جدرانها بلوحات شتى وخرائط متنوعة، يحتل المشهد مكتب كبير خشبي مُغطى بأوراق وكُتب كثيرة، ويجلس إليه رجل سبعيني طويل الشعر، بارز الأنف، حادّ النظرات، يرتدي حلة ساحرة بُنية اللون، يبدو مُنهمكًا في مراجعة أوراقه، التي من بينها خطاب توصية «روث»، لدرجة ألا يلتفت إليك، لكنه يقول في لا مبالاة يبدو أنه اعتادها: «طلبت لقائي على وجه العجل. ها. ماذا لديك؟».. يواصل تقليب الأوراق ويتمتم: «كلي آذان مصغية».

تُفكر كعادتك، تراجع فكرتك للفت النظر، تسرح قليلًا فيما يجذب انتباهه، وتتذكر حديث الصحف مرارًا عن جهود الجمعية في الوصول إلى مواطن الذهب والعبيد في أفريقيا، خاصةً الرحلة الأخيرة إلى نهر النيجر، التي اختفى صاحبها كأنه فص ملح ذائب، تُتمتم كمن يُلقي خطاب تحدٍّ: «أنا مبعوثكم إلى بلاد الذهب».

ينتبه الرجل الذي شرّق وغرب، وقرأ وغامر، وفكر وخطط حتى استحق الاقتراب من البلاط الإنجليزي الأعلى، والعمل ضلعًا مهمًّا في سياسة البلاد الخارجية، ينظر إليك باستغراب، فتفاجئه قائلًا: «أنت تعرف البروفسور يوهان بلومنباخ في جامعة غوتينغن؟».

يرد باهتمام: «نعم».

فتبادر قائلًا: «لقد أعدَّني تمامًا لذلك، درست التاريخ والجغرافيا والسياسة، واختبرت مشروعات بحث مطولة حول رحلة المجد للإمبراطورية البريطانية».

تبرق عينا الرجل، فيهمس قائلًا: «وماذا وجدت؟».

سريعًا تُخرِج بحركة آلية رقعةً من الجلد مرسومًا عليها خريطة أفريقيا، وتبسطها أمام محدثكَ وتُشير بإصبعك إلى الطريق البحري، وتقول: «كل الذين ذهبوا إلى

النيجر سلكوا طريق المحيط وتاهوا قبل أن يصلوا».

يهز الرجل رأسه مصححًا: «قُتِلوا».

يُخيفك، يحبطك، يتأمل أثر كلامه على وجهك، لكن لا مجال للتراجع؛ فالأمجاد لا يصنعها خائفون. يسمعك المؤلف جليًّا، ولعله يستوعب الدرس.

ينظر «جوزيف بانكس» إلى رقعتك، ويلاحظ ما بها من خطوط مضافة باللون الأحمر ليكتشف خطًّا ممتدًّا من القاهرة، يتخذ المسار الجنوبي الغربي عابرًا الصحاري والغابات والبلدان المجهولة حتى يصل إلى «تمبكتو».

يُدقق في الخط، سائلًا بصوتٍ هامسٍ: «ما خُطتك؟».

بثقة علماء المختبرات تقول: «هناك طريق بري من مِصْر إلى هناك، يتحرك مرتين في العام: الأولى مع قوافل حجاج المسلمين القادمين من تمبكتو إلى مكة، والثانية بعد بضعة أشهر مع قوافل العائدين من مكة إلى تمبكتو».

يبتسم مستضيفك في سخرية، ويقول: «مِصْر؟ تريد أن تذهب عبر مِصْر؟ هل تعرف ما حدث هناك في الربيع الماضي؟ لقد استنجد كبير مماليك مصر، محمد بك الألفي بالإمبراطورية البريطانية بعد أن خدعه الأتراك وولوا مكانه قائدًا ألبانيًّا أفَّاقًا، وحركنا ألفًا وستمائة جندي إلى الإسكندرية، ومنها إلى رشيد وبدت المدينة ساكنة وخالية من أهلها، فدخل الجنود فرحين، ولم تمضِ دقائق حتى انهال الرصاص عليهم من كل صوب».

يمعن النظر فيك ويكمل: «جرت مجزرة، خسرنا فيها أكثر من مائتي جندي، فضلًا عمَّن أُسروا، واضطر القائد فريزر أن يقبل عرض والي البلاد بالجلاء مقابل الإفراج عن أسراه».

تهز رأسك كمُطَّلِع وتقول: «أعرف ذلك تمامًا، وأعرف أن المصريين مخادعون، وماكرون، ومثل جميع العرب والمسلمين يكرهون الأوروبيين، ويسمونهم الكفار، ويمكن أن يقتلوهم بلا سبب، ولكن...».

يقاطعك بصوت حازم: «قُل لي يا لويس.. ما خطتك؟».

تقول بجرأة بركهارتي سليل فرسان شجعان: «أصاحبهم كتاجر هندي مُسلم، أحاورهم، أصلي معهم، أقرأ القرآن، وأسير بجوارهم حتى أصل إلى مبتغاي. إن رفاقنا العظام قُتِلوا لأنهم بانوا أوروبيين، أي كفار بتعبير أهل هذه البلاد، لكن هؤلاء لا يقتلون مَن هم أمثالهم».

«واو».. يهتف «جوزيف بانكس» ويضرب بسعادة على مكتبه، ثم يُمسك بيدك، ويسحبك معه إلى غرفة مجاورة صغيرة يجلس فيها رجل مُسنٌّ مُنكبٌّ على مخطوطات قديمة كُتِبت باللغة العربية، ويصيح فيه: «لقد وجدناه. وجدناه. رجلنا الذي كنا نبحث عنه. أقدم لك السيد بركهارت».

تبتسم أنت وتقول في ثبات: «لا، اسمي إبراهيم.. إبراهيم بن عبد الله».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثيـاب عربيـة

شهور تطول وأنت تنتظر الموافقة النهائية على تمويل المُهمة.. من أين تأتي؟ من أعلى، وأعلى هنا تعني أعلى كما يصل خيالك إلى قياس مقدار هذا العلو، وما دمت منتظرًا فإن «المستر بانكس» يتحمل تكلفة كل الدراسات الإضافية التي تحتاج إليها.

في «كمبردج» تبدأ التعلم، تتحدث بالعربية، تقرأ القرآن، تعرف سيرة «النبي»، ومناقب الصحابة، تفهم الأحكام الخاصة بالإسلام: المقبول والممنوع، والفكرة العامة للدين، والقيم والتعاليم، والأحاديث النبوية.

هناك بالطبع محرمات كثيرة: الخمر، والربا، والميسر، وشهادة الزور، والغش.. لكن وجود المحرمات في القرآن لا يمنع وجودها في الواقع، ويمكن القول: إن درجة تفشيها تختلف من مكانٍ لمكانٍ ومن قومٍ لآخرين.

اللغة العربية بحر واسع لا تكفيه دراسة عام أو اثنين.. بالطبع فإن النطق هو أصعب شيء، هناك حروف لم تنطقها من قبلُ، وعلى الرغم من أن الصفات الفسيولوجية لحنجرة الإنسان واحدة في الشرق والغرب، فإنه من الصعب نطق حرف مثل الحاء، مرارًا وتكرارًا تحاول نطق حاء عربية، لكن في النهاية لا تولد سوى هاء. هناك حروف سهل الوصول إليها على الرغم من غرابتها، مثل الثاء، وكل الحكاية هي أن تُخرج طرف لسانك لتنطق الحرف صحيحًا. حرف الغين يذكرك باللغة الفرنسية التي اختبرتها صغيرًا بحكم التشتت السويسري، وحرف الخاء موجود في الإسبانية التي سمعتها من بعض الأصدقاء. المُعقد في الأمر أن العربية ليست لهجة واحدة وإنما لهجات، ففي الصحراء هناك كلمات خاصة قد لا يعرفها إلا أهالي الصحراء، وفي الشام هناك لهجة رصينة، لكنها مختلفة كثيرًا عن الفصحى، أما في مِصْر فهناك خلط غريب للغات كثيرة: يونانية، وقبطية، وفرنسية، وتركية باللغة العربية.

وغير اللغة، فإن التقاليد والأعراف مهمة للغاية، خاصةً ما يخص المرأة؛ فأهل الشرق يغارون على نسائهم لدرجة الجنون. بالطبع يرونهن في منزلة أقل من الرجال ربما بسبب الحرب والعمل، لكنهن يتمتعن بحماية وتحصين فائقين للوصف. ومثل هؤلاء يقبلون الخطايا للرجال ولا يرضونها بأيِّ حالٍ للنساء.

تُدهشك الدراسات، تستعذبها، تشعر بسحر الشرق، غموضه، جماله المخفي. تشدك المُهمة، فترفض عرضًا يعرضه والدك لتعمل في خدمة البلاط الألماني. خدم الحُكام كُثر، تذكرهم كتب التاريخ على هوامشها، بينما رواد العلم وأصحاب الكشوفات يخلدون للأبد. «كريستوفر كولومبوس» لم يمُت، ولن يموت.

تتعلم الطب، تدرس الصحاري، تطَّلِع على كُتب رحالة كُثر، تقرأ حكايات لفرنسيين صاحبوا «نابليون» في مِصْر والشام، تختبر العيش أيامًا بأقل قدرٍ من الطعام، وتجرب النوم على الأرض، في الرمال، وتحت أشعة الشمس.

تقول لـ«سارة روهنر» الحنون في خطاب شوقٍ: «سأفعل كل شيء لأكمل مهمتي. سأتعب، سأسهر، سأغامر بكل ما لديَّ، فليس لديَّ شيء أخسره، لكن إن نجحت فسوف أربح الخلود، وسأكون جديرًا بسارة روهنر ورودلف بركهارت».

تكتب لك «مارغريتا» بعد طول غياب، آخر شيء يمكن أن تسمعه منها. صارت راهبة. تقول إنها اختارت دربها، تحكي أنها عانت أيام بؤس وفقر بعد رحيل أبيها، عصرتها الأوجاع، وسلَّمت بهجرتك إلى مستقبلك، تُهديك أمنياتها بالنجاح، وترجو لك السلامة، تُقدِّر بُعدك، وتُصلي لله أن يمنحك ما تستحق من مجد وطمأنينة. تُخبرك أن خدمة الرب والانقطاع للعبادة يمكن أن يمنحاها السلام الذي تنشده. تطوي خطابها، وتتذكر بيتَ شعرٍ عربيٍّ لشاعر مجنون بالعشق اسمه «قيس بن الملوح» يقول:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظُنان كل الظن ألا تلاقيا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

الغريب

نقطة بدايـة

يواصل الكاتب رحلته متتبعًا رحلتك، يلهث خلفك، يشقى، يسهر، يخالف عاداته في الاستيقاظ مبكرًا، يسأل مَن يقابلهم: أين يمضي؟ يفتش عنك كرمشٍ ساقط فوق كومة قش.

يحاول الكاتب تخيُّل ميلاد التفاصيل في رأسك. دعه يفترض كما يشاء، فليس بإمكان أحد إثبات شيء لم يعشه أو نفيه، والكاتب نفسه يعرف أن ما تُدَوِّنه أصابعه محض خيال، ربما ممزوج بقليلٍ من الحقيقة، لكنه في النهاية خيال. وكتابه سيحمل فوق غلافه كلمة «رواية» وقطعًا لن يحمل كلمة «سيرة».

يراك تجلس في ليلة ماطرة داخل خواء غرفة استأجرتها لك الجمعية البريطانية، ترسم خطة لاختراق بلاد التوحش والقسوة، تفكر في السابقين الذين هلكوا في الطريق ذاته، تتذكر ما حكاه بعضهم عن «مونجو بارك»، وعن «فريدريش هورنمان»، وغيرهما، وكيف كانوا مُتقدين حماسًا، محترقين رغبةً للوصول إلى غاية بريطانيا في أفريقيا، نهر النيجر، موطن الذهب والعبيد. تتلمَّس فكرتك وتُعيد رسمها على الورق، مختارًا الطريق الأصعب والأطول.

ترشف رشفات لاذعة من نبيذ مُعتق يساعدك على التركيز فتُبصر عيناك الشام، ذلك الضلع الشرقي المفتوح على البحر المتوسط، وتُقرر بلا تردد أنها البداية. أنت تحتاج إلى إتقان العربية تمامًا، وهذا لن يتأتَّى إلا في ظل معايشة حقيقية للعرب أنفسهم، وإذا كان العرب في كل مكان يتشككون في الغرباء، فإنهم في بلدان الشام أقل تشككًا وأدنى توحشًا. ترسم خطًّا ملتويًا على خريطة المتوسط يمتد من الساحل البريطاني ويدور مُتجهًا نحو أرض الشام. تقف بإصبعك عند اللاذقية، وتنظر إلى الجنوب ناحية دمشق، لكنك تستبعدها، فأنت خلال تعلمك يجب أن تبتعد عن المُدن الكبرى؛ حيث العَسَس يتلصصون على الجميع، وحاشية الحاكم تفتك بكل مَن تستريب فيه، تمد بصرك إلى الشرق قليلًا لتجد مدينة حلب، وتتذكر كلام «المستر بانكس»، أنها مَحَطُّ رجالنا.

تحصل على الموافقة العليا على بَدْء مهمتك، ومعها التمويل اللازم، تودع أبويك في خطاب محبة طويل تختتمه بطلب الغفران لما قد يسمعانه عنك فيما بعدُ. تخشى أن يُحزنهما تدثرك بالإسلام لإنجاح مهمتك، ولا تنسى «مارغريتا»؛ فتُرسل إليها قصاصة صغيرة تقول فيها: «سأسافر في مُهمة خطرة. صلِّي لأجلي. ما زلت أحبك»، وتكتب إلى معلمك «يوهان بلومنباخ» تُخبره أن ما علَّمه إياك لن يذهب هدرًا، وأن حلمه في المعرفة أوشك على التحقق. تُخفي موعد رحيلك عن الجميع؛ التزامًا باتفاقك مع «المستر بانكس».

تحزم حقائبك، تأخذ معك خرائطك، ورقاعًا جلدية، ومخطوطات، ومصحفًا باللغة العربية، ومعجمًا عربيًّا، ومحبرة، وأوراقًا فارغة، وبوصلة، وخنجرًا صغيرًا معقوفًا، ومسبحة، وغليونًا، وقارورة عطر، وزجاجتي نبيذ مُعتق، وصليبًا ذهبيًّا

صغيرًا، وقالبًا من الأفيون، وعشر قطع ذهبية، وبضعة دولارات إسبانية، وروايتك الأثيرة «روبنسون كروزو».

ترتحل فجرًا دون مودع، لتقبع بقُمرة سفينة ضيقة تَقضي جُل يومك قارئًا مُتجهًا صوب مالطة؛ حيث ستبدأ مراحل الإعداد والتجهز لمهمتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«روبنسون كروزو»

يختطفك «دانييل ديفو» في روايته المثيرة «روبنسون كروزو»، يُسحرك برحلته، ومغامراته، وجوانب الجرأة لديه، وسمات النبل في شخصيته. يبحث «روبنسون» عن حياة جديدة يحقِّق فيها ذاته، يرفض نصائح والديه بالبقاء، ويُبحر مثلك من الساحل البريطاني ساعيًا نحو العالم الجديد. يتعرَّض المسافرون لغارة قراصنة، يجد الفتى نفسه بعدها عبدًا لدى البحارة المغاربة، لكنه يهرب ليعمل مع تجار العبيد الإسبان. يذهب كما تذهب الآن إلى بلاد القارة السوداء لاصطياد العبيد، فتهبُّ عاصفة هادرة تُحطم سفينته، ويغرق كُل من معه، ليجد نفسه في أرضٍ منعزلة يسكنها بشر متوحشون، يذبحون الإنسان ويأكلون لحمه، يواجههم بمكرٍ وذكاءٍ ويجد أحد الفارين منهم فيهديه إلى المسيحية، ويكوِّنان معًا فريق عمل لمحاربة الأشرار المتوحشين، وينتصر «روبنسون» بعد مغامرات مثيرة وشائقة.

تستعذبك القصة، وتفكر وأنت في طريقك إلى مالطة فيما ينتظرك. تسأل ذاتك ولا تجيب، عمَّا ستفعله مع آكلي لحوم البشر، وقُطَّاع الطرق، والسالبين كل شيء، وأجلاف الصحراء، وشِرار الناس، والجبارين في الأرض. هل يعرفون مهمتك؟ هل يتشككون في شخصك؟ وهل سيحققون معك، أم يقتلونك للتو اختصارًا للوقت؟ وكيف سيفعلون ذلك: بقطع رأسك كما يفعل الفرنسيون، أم بخنقك بخيط من الحرير كما يفعل الأتراك؟ وهل تحتمل وجع الموت؟ وإلى أيِّ مدى؟ هل يكفيك الصراخ؟ هل يقف الرب إلى جوارك؟ هل يُخفف ألمك؟ وهل ستذكرك «مارغريتا»؟ هل ستصلي من أجلك؟ هل ستبقى تذكرك، أم سيطويك النسيان؟

تخوض في حقول الحصى، تمر بين شجيرات الشوك، تحمل صليبك فوق ظهرك، مُكررًا رحلة الألم، رحلة الخوف والخطر. تعي أن كل خطوة تخطوها تُدنيك من النهاية، تعلم أن مَن فشلوا أكثر بكثير ممَّن نجحوا، غير أن الكتب لا تلتفت كثيرًا نحوهم. تخاف، تتوجَّس، ترتبك، وتتذكَّر أن المهمة اختيارك، وأن الفكرة فكرتك، وأنك رغبت وأردت وقررت بكامل حريتك.

لست مثل «روبنسون كروزو»، لست شخصًا خارقًا، بطلًا، ينتصر دومًا، ويُحقق كل ما يتمناه، لست هو؛ لأنه غير موجود سوى في الخيال، في رأس صانعه «دانييل ديفو»، وربما في رؤوس القراء السُّذّج الذين يصدقون كل قصة، حتى لو كانت مناقضة للمنطق.

تقرأ في القرآن أن الله لديه علومًا شتى لا يعرفها الناس، منها: موعد يوم الحساب، وكيفية نزول المطر، وما تحمله كُل أنثى في رحمها، وما يحدث في المستقبل، وفي أيِّ أرض يموت الإنسان. تتخيل يومين لموتك: في الأول تحتفل بك الأمة السويسرية، وتفخر بك سلالة «بركهارت»، وتُعلق رسومك فوق جدران المدارس والجامعات باعتبارك بطلًا عظيمًا اكتشف نهر الذهب. وفي الثاني لا يسمع عن رحيلك أحد، ولا يعرف مَن أرسلوك إن كنت حيًّا أم ميتًا، ويغضب عليك والداك؛ لأنك نسيتهما وقطعت أوصالك نكرانًا وخِسّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مالطـــة

تصل إلى شاطئ السكينة، لتجد في انتظارك رجلًا بَدِينًا، أحمر الوجه، يرتدي بنطالًا وقميصًا قطنيًّا، يُخبرك بأنه مُرسَل من القنصل الإنجليزي لتوصيلك ونقل حقائبك، تسير خلفه لتركبا جوادين جميلين يُسرعان بكما تحت زخَّات من المطر الغزير، تتبدَّى لك سهول الجزيرة مُنبسطة خضراء، تتخللها أكواخ صغيرة وحظائر للخيول والخنازير. يُخبرك الرجل البدين أن الجزيرة المسماة «ملكة البحر المتوسط» ظلت منيعة على أيدي الأتراك والمسلمين بسبب موقعها الجغرافي، وظلت شوكة في طريق الأسطول العثماني عدة قرون لدرجة أن العرب أطلقوا مثلًا على مَن يدعو الناس إلى شيء دون استجابة بمثل مَن يؤذن في مالطة باعتبار أنها أرض كفر كامل.

وعلى الرغم من فشل العثمانيين حملةً بعد حملةٍ في اختراق استحكامات المدينة، فإن الفرنسي المتجبر نابليون بونابرت اخترقها واحتلها سريعًا في طريقه إلى مِصْر.

يحكي لك مرافقك تحت الأمطار كيف قاوم المالطيون، قبل أكثر من عشر سنوات، القوات الفرنسية الغازية، لكن مدافع «نابليون» الضخمة أسكتت أيَّ رغبة للمقاومة. يقول لك البدين الذي لم تسأله عن اسمه: «إن أهل البلاد اعتادوا أن يواجهوا عدوًّا واحدًا هم الأتراك، كانوا يعتبرون بلادهم مركزًا مسيحيًّا، وحصنًا منيعًا لإيطاليا وما وراءها من دول أوروبا أمام المارد العثماني، لكنهم فوجئوا بوحشية الفرنسيين ودمويتهم».

يزفر زفرة أسى ويواصل: «بعد موافقة الحاكم على تسليم المدينة، ساح رجال نابليون في شوارع فاليتا مفسدين، ودخلوا كنيسة القديس يوحنا ونهبوا كل ما فيها من ذهب وفضة، وفرضوا الضرائب الباهظة على الناس، إلى أن ثاروا واتحدوا مع البريطانيين لتخليصهم لتصبح الآن تابعة لحماية بريطانيا العظمى».

«عظيم».. تُتمتم وأنت تلاحظ أبنية فخمة وقصورًا عظيمة تقترب.

تتأمل وجه فتاة عابرة تسير في هِمَّة ونشاط يليق بمالطية ثائرة، تُقارب سِحْنتها الإيطاليات التي شاهدتهن في ألمانيا. تستغرب بارًا صاخبًا في النهار، يخرج منه سكارى يترنحون، تشعر برغبة في الشراب تكبتها مُتعجلًا العزلة؛ فالحرص ضرورة حتى مع أولئك الذين تراهم في صفك أو خدمتك.

«هل سأحظى بشرف لقاء القنصل؟».. تسأل في أدب، فيجيبك مرافقك: «بالطبع. بالطبع. سترتاح اليوم، ثُم سيزورك القنصل في بيتك غدًا».

تتذكر كلمات «جوزيف بانكس» في اللقاء الأخير: «في كل مكان سيكون قناصل الوطن في خدمتك، وستكون أعيُنهم ورجالهم خَدَمًا لك في مهمتك».

تبتسم عندما يقف الجوادان أمام بيت صغير يطل على ساحة راقية، تبدو العمارة المسيحية سمة بارزة في هذه المدينة، يغلب اللون الأبيض على المنازل التي لا تتوزع بشكل هندسي مُخطط، ولا يفصل بينها سوى مجموعة من أشجار الخروب المثمرة. يفتح المرافق لك الباب، لتدلفا إلى فناء صغير يتوسطه حوض مربع به صنبور مياه، تنفتح عليه غرفة صغيرة بها أريكة وطاولة وإلى جوارها دولاب خشبي يضم قمحًا، وشعيرًا، و«بسكويت»، وبعض قطع الحلوى، وزجاجة جعة. يقول الرجل البدين: «من حُسن الحظ أن بيت القنصل قريب جدًّا، وسيمر عليك صباحًا».

ويقول ناصحًا: «لا تخرج هذه الليلة. فقط استرِح. وسأكون معك بَدْءًا من صباح الغد».

تشكره، لتُعاين بيتك المؤقت، تجلس تخُط أولى رسائلك إلى «جوزيف بانكس» تُخبره فيها أنك وصلت إلى «فاليتا». تفكر في الخطوات التالية، فتنعس وأنت مشوش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحاج سيتزين

يفتنك الإطراء، يُثني القُنصل الإنجليزي قصير القامة عليك، زاعمًا أن صفات الفطنة والذكاء تشع من عينيك، يُخبرك أن تستغل الأسابيع المقرر أن تمكثها في الجزيرة التابعة للإمبراطورية البريطانية في التعرُّف إلى التجار العرب، المارين ببارات «فاليتا» وملاهيها. يُخاطبك المُسن باحترام مَن يتصورك جاسوسًا سريًّا تعمل لصالح القصر الملكي مباشرة. يتحدث بدبلوماسية، مُبديًا ملاحظة وحيدة بشأن أسلوبك الراقي في التعامل، ناصحًا إياك بالتحلي ببعض الخشونة المناسبة للتعامل مع الصحراويين، الأجلاف. يُخبرك بثقة: «كلما كنت غريبًا استرابوا فيك، والذوق في الأكل والحديث يُبديك غريبًا عنهم».

يقول لك العجوز ذو الصوت الهامس، والنظرة المتفحصة بإنجليزية ريفية: «إن العرب ليسوا صنفًا واحدًا؛ منهم المتعصبون الأشداء، وهم في الصحراء يسلبون المارة ويفسقون بالنساء، ويعتبرون كل غريب كافرًا يجوز ذبحه، ومنهم الماكرون المخالطون للأجانب، وهم في المدن الكبرى مثل: دمشق، والقاهرة، وعكَّا.. وهؤلاء ينظرون إلى مكاسبهم أولًا، وتعنيهم مصالحهم الشخصية، وربما تحركهم العصبية الدينية حينًا، والحمية للشرق حينًا آخر، لكن في النهاية يسهل شراؤهم بالمال، وهناك صنف ثالث نبلاء طيبون لكنهم قلة قليلة، وليس لهم تأثير».

يشرح لك بذكاء ماكرٍ أن أول مكان لاختراق أيِّ مدينة هو بيت البغاء؛ فيه تُخلع الستور، وتتحرر الأسرار، وتسقط الأقنعة، وتعرف ما يخبئه الحكام ورجالهم من أمور وأموال وخطط. هناك تفوح روائح المؤامرات ويبوح العَسَس بما يخفون. ينصحك بصدقٍ: «كلما حللت بأيِّ مدينة تجهلها، فاعرفها منهن»، ثم يغمز بعينين زرقاوين مُضيفًا: «فاتحات السيقان».

يبتسم الدبلوماسي العجوز، ويواصل: «لا يفتحن سيقانهن فقط، بل كل باب موصد».

يُطمئنك القنصل الذي ينادونه بـ«مستر لوي»، بأنك مُحصَّن في كل بلد تذهب إليه، محميٌّ، ومؤمَّنٌ برعاية القنصل البريطاني وعنايته. يقول لك: «جميعنا في خدمة التاج الأعظم».

تحاول أن تُصحح عبارته قائلًا: «أنا في خدمة العلم».

لكنه يرد بابتسامة خبيثة قائلًا: «بريطانيا هي العلم، هي الحضارة، والمدنية، والعدل، والسلام، والتطور.. ومن يخدم بريطانيا يخدم كل شيء».

يوجهك أن تلتقي الرحالة الألماني «سيتزين»: «ستجده في بار البحر يثرثر مع التجار العرب، يُخفي نفسه كرحالة مُسلم، لكن العرب يستريبون فيه، وكثيرًا ما يبعثون بصَّاصين للسير خلفه كلما مشى».

تلمع الفكرة في ذهنك، أن تلتقي خبيرًا بطرق العرب، وبلادهم، وأسواقهم، وسبل تفكيرهم. تفكِّر أن ذلك يمكن أن يكون أول اختبار حقيقي لعربيتك المذبذبة. تشكر نصائحه ثُم تُرتب زيارة إلى بار البحر، تدلف برويَّة، تطلب شرابًا، وتجلس تبحلق يمينًا ويسارًا، تقرأ كما تدربت وجوه الجالسين، تحدد أجناسهم بنظرة سريعة، تتفرس في القَسَمات، وتعرف رَجُلك بثقة خبير. يبدو الرجل المقصود طويل القامة، مسحوب العينين، أفطس الأنف، متسربلًا بجلباب صحراوي فضفاض، وفوق رأسه طربوش تركي أحمر. تدعوه للشراب، وتُقدم له نفسك كتاجر عاديات أوروبي يبحث عن آثار الأقدمين، فيقدم لك نفسه باسم «ألريش جاسبر سيتزين»، ألماني مُسلم، ويضيف أنه رحالة ومكتشف جغرافي. تندهش من ثقته الزائدة، وتستغرب تلقائيته.

تسأله بعربية تبدو ركيكة: «أنت مسلم؟».

«أنا كذلك».

«لماذا؟».

«لأنني أريد ذلك حقيقة. درست القرآن والشريعة وأومن بكل الأنبياء».

تعجبك تلقائيته، وتقرر أن هناك مَن يفكرون مثلك.

«وأين تعلمت العربية؟».

«في الشام، ومصر، والقدس».

يصمت قليلًا، ويُحلق في ملابسك، وعمامتك التي تبدو ملفوفة بتعجل، ويسألك:

«ولِمَ ترتدِ ملابس العرب؟».

لا تحب طارحي الأسئلة، لكنك تجيبه:

«تحصنًا».

وتهمس: «أنت رحالة وتعرف أن التجوال في بلاد العرب محفوف بالأخطار».

يفاجئك سائلًا:

«هل هو كذلك؟».

ويجيب:

«لا تصدق ما يقولونه. نعم الحرص مطلوب، لكن ليس الأمر بهذا السوء. لقد ذهبت إلى عكا، والكرك، ودمشق، وطفت سيناء، وعشت في القاهرة، وزرت الفيوم، ولم أجد السكاكين مرفوعة فوق عنقي».

تشرب قليلًا من الجعة، وتلاحظ صخب عربيين يتضاحكان في مجون، بينما تدلف فتاة ممشوقة القوام إلى جوارهما، وتمشي بحركة إغراء متعمَّد، تأسر الأعيُن، فيغمز لك ويقول:

«هل ترى هؤلاء؟ هم مثلنا تمامًا، يعشقون النساء، ويشربون الخمر، ويلهون، ويفرحون ويضحكون، ومنهم الأشرار ومنهم الأخيار. لقد قضيت ثلاثين عامًا أتصورهم سفاحين قذرين، ثُم عشت بينهم لنحو عشر سنين سلامًا وطمأنينة».

تسأله: «وما يدفعك إلى ذلك؟».

تلمع عيناه، وكأنَّه يتذكَّر أمرًا فيقول:

«البحث الذي لا يجعلك تنام، الغاية من وجودك، أن تجد ما ترنو إليه. أبحث عن المدينة المفقودة. البتراء. شرقت وغربت، جُبت الصحاري، وتحدثت إلى الحصى، ولم أفلح. لكنني وجدت أناسًا آخرين ورأيت معايش غريبة، وكتبت عن بشر كنا نجهلهم. في بعض الأحيان تسعى إلى غاية تظنها غايتك في الحياة، ولا تدري أن الله يدخرك لعملٍ آخر. لقد أحببت هؤلاء الناس، واقتنعت بالقرآن، وسأذهب إلى الحج في مكَّة لأتطهر من ذنوبي».

تُكذِّبه سرًّا، تبتسم، وتقول له:

«أتمنى لك التوفيق سيد سيتزين».

«وأنا كذلك».

وتنصرف، متحمسًا لإتمام التدريب على الحياة العربية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جواسيس الشرق

جواسيس في كل مكان، أعيُن تُبحلق في الظلام، لا تعرف مَن معك ومَن ضدك، مَن يصدق ومَن يكذب. أقنعة فوق أقنعة، وأزياء وأسماء وصفات تنكرية لا حصر لها. مَن مع مَن؟ ومَن ضد مَن؟ لا تعلم، ولست سوى عينين ترصدان وأذنين تسمعان.

يُصر القنصل «لوي» على أن الرحالة «سيتزين» مخادع كبير، لا رحالة ولا شيء، إنما جاسوس ألماني عتيد. يقول لك بعينين صاحيتين: «ليس أكثر من الجواسيس في الشرق. العالم يتغير وأوروبا تتسابق للمعرفة، كما تتسابق نحو الذهب، والآثار، والعبيد، والاستكشاف»، تصدقه ولا تصدقه، لكن تبدو الريبة عنوانًا لافتًا لكل ما حولك.

تسأله إن كان «سيتزين» عدوًّا أم صديقًا، فيجيب: لا هذا ولا ذاك.. ثُم يُخبرك أن هناك أعداء صرحاء، هم الفرنسيون أو مَن يعملون مع الفرنسيين، مثل المغامر الإسباني «دومينغو فرانسيسكو باديا»، الذي يجوب كل بلدان العرب بحُريَّة في هيئة شيخ عربي مُسلم، تارة باسم «علي العباسي»، وتارة أخرى باسم «عباس بك». لقد وصل هذا الرجل إلى المدينة المقدسة في الحجاز، وعايش انتشار الديانة الوهابية في بلاد الصحراء. هكذا يقول وهو يوصيك بألَّا تأمن لأحدٍ.

تُحسِّن لهجتك من خلال جلسات طويلة ممتدة مع التجار العرب في بار البحر، تختبر قدرتك على المحادثة لفترات طويلة، تتدرب لاكتساب خبرات واسعة حول الشام، ومُدنها، وخرائطها، وعادات الناس، وطبيعة الحياة في مدينة حلب، والمناطق الأثرية القريبة منها. تقرأ، وتبحث، وتفكر فيما هو آتٍ.

تسهو قليلًا فترى كاتب روايتك في المستقبل جالسًا في غرفة واسعة على مقعده أمام مكتب خشبي كبير يدوس على آلته العجيبة التي تتكلم، وربما ترى، ليبحث في ملكوت الفضاء عن اسم «ألريش جاسبر سيتزين»، ليقرأ عنه أنه مستكشف ألماني، درس في جامعة غوتينغن، وسافر إلى الشام، واستقر بها عامًا، وتنكر في زي متسول، وأجرى رحلات استكشاف للبحر الميت، لكنه فشل في الوصول إلى «البتراء»، وقضى ثلاث سنوات في مِصْر، ثم سافر للحج، ومكث في مكَّة عدة شهور وتلقَّى هناك علومًا دينية، وتَسَمَّى «الحاج موسى»، ثم رحل إلى اليمن وتعرَّف إلى إمامها، لكنه دُس له السم ومات هناك. تُحدق مذهولًا لتجده يكتب اسم «علي العباسي» على آلته لتظهر له عدة سطور عن حياته، تقرأ في آخرها: «ومات في دمشق بعد أن اكتشفت السلطات البريطانية شخصيته ودسوا له السم في فنجان قهوة».

صرعى خلف صرعى، ذلك مصيرك. سم في القهوة، رصاصة طائشة، أو رأس يُقطع ويعلق على أيٍّ من بوابات المدن الغريبة، لتُحرم من جنازة لائقة وكلمات تأبين.

تَمعن النظر في عيني كاتبك العسليتين اللتين تطفوان على وجهٍ أسمر يدّعي البسمة، يتورَّد حينًا ويشحب حينًا، ترجوه ألا يعتمد كُلَّ ما يقرؤه على آلته العجيبة حقائقَ مُسلَّمًا بها. تسأله: هل تصدق كل شيء؟ يا مَن تدَّعي الخبرة والمعرفة بما مضى، هل تعرف مَن القاتل ومَن الضحية؟ هل تشُك فيما رواه لك الآخرون؟ هل تعرف شيئًا؟ لا أحد يعرف يقينًا. تحاول أن تخبره كي يُفكر قليلًا، يُحلل ما يرى، يتدبر ما يعرف، ألا يُصدق، وألا يترجم ما هو مكتوب لدى البعض إلى عالمه الدرامي. تقول له دون أن يسمعك: سنلتقي حتمًا. فتذكر قول الشاعر العربي أبي العلاء:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى

إني أخاف عليكمو أن تلتقوا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كأس كونـيـاك

تحملك سفينة التجار إلى الشام، لتبدأ مهمتك الحقيقية في خدمة العلم والمعرفة، تُدَوِّن كل شيء، وأيَّ شيء تراه حولك، مُطيعًا لنصيحة «جوزيف بانكس» بأن كل معلومة ولو تافهة محل تقدير ومكافأة.

تتحسس لحيتك الكثة التي طالت بعد أن حررتها من حد الموسي مُذ غادرت بلد الإعداد، وتُحاول أن تتعرَّف إلى نفسك الجديدة في المرآة، لتجد رجلًا آخر، يشبه الأتراك غير أنه يتميز بنظرة تواضع تغيب عن معظمهم. تقرأ في عينيك آمالًا لأحلام بدأت في التحقق، وتتصور لو رأتك «مارغريتا» بهذه الهيئة، ربما لم تعرفكَ!

تختبر قدراتك على الإقناع بصداقة مصطنعة مع تاجر غلال شامي يستفيض في الحديث معك عن البلاد التي زارها وعاينها شرقًا وغربًا. تسأله عن «تمبكتو» فيندهش، ويُخبرك أن قليلين هم مَن يذهبون إلى هناك، ثم يسألك عمَّا تريد جلبه منها، ويسارع إلى القول: «لو أردت عاجًا فهو موجود في النوبة وسواكن»، ثم يقول بنبرة خبثٍ: «ولو كنت نخاسًا مستترًا وأردت عبيدًا فيمكن الشراء من دارفور». تُخبره بتحاذق أنك تبحث عن مُنتجات غير معروفة لتنقلها إلى الهند.

يفتح لك الرجل نافذة للتعرُّف إلى الشاميين، يُخبرك أنهم ألوان شتى، لكنَّ نساءهم جميلات، ويُحبون الفكاهة، تمامًا مثل أهل مصر، وإن كانوا أكثر طيبة من المصريين. يسألك عمَّا تريده من الشام، فترد: «أقمشة ملونة»، فيهز رأسه قائلًا: «إنهم بارعون فيها». ينصحك إن أطلت البقاء في الشام أن تستأجر دليلًا، ويقول لك: «إنهم أذكياء ومفيدون في إيصالك للتجار الأفضل والصناع الأكثر براعة».

تستذكر نصائحه، عندما تصل إلى حلب، مدينة الصحة والجمال والنظافة، تتبع خريطتك لتصل إلى خان المدينة العمومي، وتستأجر بيتًا مجاورًا للسوق. تُراقب من خلف كوة صغيرة وجوه الناس الصافية تمر في نشاط وهِمَّة، وتستغرب كتابات كثيرة قرأتها مرارًا بأن أهل الشرق كسالى ناعسون. يبدو الحُسن هنا عنوانًا لكل شيء: بشر، وحجر، وسلوك.. وتقف بنايات المدينة الضخمة دليلًا على إتقان المعمار والرغبة في الإبهار. تشدك مئذنة الجامع الكبير وهي ترتقي في خُيَلاء موحية بتاريخ عريق من المجد. يُنعشك الهواء النقي المُتسرب عبر نافذتك مُحفزًا على ضرورة معاينة المدينة ومصادقتها شبرًا شبرًا. تسأل صاحب النُّزل أن يُرشح لك دليلًا ليرافقك للتعرُّف إلى معالم الشام ورجالها العظام، فيأتيك بابن أخيه «حميد»، ذي الوجه الحليق الصامت، والعينين السماويتين، والابتسامة الماكرة، ويُخبرك أنه سيأخذ عشر قطع فضية مقابل كل يوم عمل. تستكثر الأجر، فتصرفه قائلًا إنك ستطلبه عندما تحتاج إليه.

تبادر لاعتماد وصايا قنصل مالطة، فتبدأ رحلة البحث عن بيوت الهوى، لكنك تخاف الأخطار بالسؤال كغريبٍ قد يتشكك بعضهم في نياته، فتلجأ إلى التفكير بعمقٍ لتجد أن الوصول إلى الخمَّارات أيسر وأسهل، ومنها يُمكن أن تصل إلى مَن يسميهم

حضرة القنصل «فاتحات السيقان». تسلك الشوارع بعباءتك المُهندمة وطربوشك الأحمر، لتُبهجك روائح البخور المتصاعدة، وتأسرك نظافة الطرق ورحابتها، وتُسعدك أصوات النسوة المُتداخلة وهن يفاصلن باعة الخضراوات والغلال. تسترق السمع محاولًا فهم ما يقوله الناس حولك بسهولةٍ فتستثقل ذلك في البداية، ثم تبدأ في اعتياد الكلمات ونطقها. تشاهد رجلًا يجاورك تفضحه ملامحه اليونانية فتسأله بأدبٍ إن كان يُسديك خدمة، فيرد دون التفات: «ربنا يسهل لك». تقول له بعربية تبدو مُضحكة: «لست متسولًا، أنا تاجر هندي»، فيقف ويُمعن فيك النظر، ثُم يقول لك: «أنت لست هنديًّا، لكن قُل لي ما تريد».

«كأس كونياك.. أنا غريب».

يضحك ساخرًا، ثُم يُشير إلى الزقاق القادم، ويقول: «لن تجد كونياك هنا. لديهم ما هو أفضل من الكونياك. عرق شامي. سحر الشرق».

ثُم يقف ويعيد النظر إلى وجهك قائلًا:

«هنا كل شيء موجود.. في الطريق التالي المفضي إلى ديوان الباشا، ستجد مقاهي الحشيشة متراصة أمامك، وعن يمينها بيت جريكي للفاتنات، جواري الشرق. مَن يسمونهن الخواطي».

ويودعك بنظرة استفهام ونصيحة غالية:

«لا تكثر من الشراب؛ فجنود الدرك يسلبون السكارى ثيابهم، خاصةً لو كانوا غرباء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غلبـة العـرق

لا كبير على العرق! يُلهب الجوف ويخترق الروح، يكشف عن مكنون النفس، ويقفز فوق سياجاتها. يسري كخدر لذيذ بين أوصالٍ هَدَّهَا تعب التجوال، يبث الذكرى ويجابه الخوف مجبرًا إياه على الفرار. لسعة العرق تفتح وديانًا من الراحة، وتمد حبال الوصل بالبلاد البعيدة؛ حيث أيام البهجة والدفء العائلي؛ حيث ذلك الوجه المُعلم للجد الطيب «جيدوني» يبث الأمل وهو يحكي في تلذذ؛ حيث «سارة روهنر» الأرستقراطية الجميلة وقبلاتها الساخنة لرجلٍ نبيلٍ يقف بسمت مهيب وعينين تزهوان، وحيث «مارغريتا» تبدو كملاكٍ نقي يفيض رقةً وحنانًا، ثُم تتحول إلى شيطان ماجن وتتعرى مُشعلةً حرائق الرغبة في ذراتك. تتشظَّى حنجرتك بمذاق لاذع يدفعك إلى الانتشاء لدرجة اللاحذر، اللافكر واللاخجل، فتطلب من جليسك الذي لا تعرفه أن يدلك على بيت جريكي للفاتنات. تنسى رده، لكنك تتذكر روعة حجرة نصف مظلمة ضمتك بفتاة جامحة لا تذكر ملامحها، رائحتها، سحرها قبل أن تجد نفسك دون سبب في قعر بيتك ممددًا كمئذنة أسقطها السيل من علٍ.

ترفع رأسًا مثقلًا، تشم رائحة العرق الفواحة، تُحرك يمينك بصعوبة ملامسًا ثيابك لتتحسس سروالًا ممزق الجيب، منزوع الحزام، ثم تكتشف سرقة ما لديك. لا العملات الفضية التي استبدلتها فور وصولك في مكانها، ولا القطع الذهبية التي كُنت تُخبئها في حزامك موجودة، وحتى ساعتك المربوطة بسلسلة فضية حول عنقك لا أثر لها.

تخسر بلا مقابل، تسقط نظرية «مستر لوي» بأن فاتحات السيقان يفتحن كل مُنغلق. بداية موجعة، وأول القصيدة كُفر، كما يقول العرب. مغلوب مغلوب كسائح ساذج يفتش عن مُتعة غائبة. لا كلمة تنبسها النساء «الخواطي» مع زبائنهن، يخلعن ثيابهن في آلية مقززة، يتمددن بلا شعور على فُرُش متسخة، ثم ينظرن في أسى ولا مبالاة صامتات، صامتات كصخورٍ ملساء على شاطئ بحر مائج. يُسررن إلى قواديهن بمخابئ المال في ملابسٍ الرجال السذج ليتبعوا ضحاياهم في الأزقة المظلمة، ويسلبوهم ما معهم. مثلك أيها الحاذق، رحموك إذ لم يذبحوك، وتركوك تُجرجر خيبتك نحو الشارع ذاته الذي تسكنه لتعد فقيرًا، بائسًا، موجوعًا بالإهانة قبل السرقة.

تتمدَّد في هزيمتك، تتمدَّد مُتحسرًا، نادمًا، لتدفع ثمن غرورك واندفاعك. تأمر نفسك بلا رفق: كُن فقيرًا كمَن عرفت، وعِش لبرهة محرومًا من الطعام الشهي، والشراب، والحمام، واستئجار الدليل، وإنفاق الأثرياء، حتى يطولك عطف رجال بريطانيا السريين، ويصلوا إليك.

تبُص إلى السقف لترى وجه كاتب المستقبل ينظر إليك في شفقة، ربما يهزأ بك الآن، ربما يسخر من سذاجتك، لكنك تعده أن ينظر إليك فيما بعدُ بإجلالٍ تستحقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصيـة مكـررة

تُبدل مسارك، تعتاد الذهاب إلى المسجد، تدخل كل يوم مُتدثرًا بعباءة رقيقة لتُصلي مع الناس في المسجد الكبير، ثُم تستمع بعد العشاء لدرس الشيخ رقيق الصوت، فصيح اللسان، باسم الوجه. في المرة الأولى كدت تُخطئ؛ إذ حاولت الدخول من باب الحريم، لكنَّ رجلًا مُسنًّا أمسك بيدك، يعرف أنك غريب، ليرشدك إلى الباب الرئيس. يقف الناس صفوفًا منتظمة خمس مرات كل يوم لصلاة يُفترض أنهم يسألون الله فيها الصلاح والهُدى، لكنَّ كثيرًا منهم يؤدِّي ذلك كطقس يومي معتادٍ دون أيِّ انعكاسٍ على حيواتهم. قليلون مَن تبصرهم يسجدون في خشوع كأنهم على موعد مع سُلطانٍ عظيم، تعرفهم من أعيُنهم الزائغة، ونظراتهم المستكينة، وعلامات الرضا البادي على قَسَمات وجوههم، تتغرغر أعيُنهم بالدموع كلما استحضروا يوم الحساب.

يُذكر يوم الحساب فتقشعر أطرافك، تعلم أنه ركنٌ أساسيٌّ في عقيدة المحمديين، بل المسلمين، فأنت تدرك الآن أن هذه الكلمة لا وجود لها إلا في أوروبا بين الكتب الانطباعية الخالية من المعايشة، فهم يعتقدون أن الله سمَّاهم المسلمين، أي: المستسلمين للإله الواحد في كل شيء.

تكتب إلى «مستر بانكس» أن جوهر عقيدة المسلمين يقوم على يوم القيامة؛ إذ يُفترض أنه اليوم الذي تُرد فيه كل حقوق البشر وغير البشر. إنهم يرون أن العدل لا يمكن أن يسود الكون، وأن كثيرًا من الأنقياء ينهزمون في الحياة، لكنَّ هناك يومًا آخر تجتمع فيه الخلائق كلها ليتم حسابها وفق العدل الإلهي. تستغرب أن يسود ذلك الاعتقاد بين الناس، لكنه لا ينعكس على أفعالهم لتجد ظلمة وكذبة وغشاشين في كل مكانٍ. هناك كثيرون حولك في الخمارات، والأسواق، والطرقات، وقصر الوالي، وحتى في المساجد في بعض الأحيان لا يتجاوز إيمانهم كلامهم.

يقول خطيب المسجد مُكررًا قولًا مأثورًا للرسول هو: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»؛ ليحُض الناس على إطعام غير القادرين من الفقراء؛ لذا لا تستغرب أن ترى كل يوم موائد عامرة بالطعام هنا وهناك، كما لا تستغرب عزة النفس التي يطلب بها المتسولون احتياجاتهم. إنهم يقفون على نواصي الطرقات ويمدون أكفهم في جرأة ويقولون لكل مارٍّ: «أعطنا ممَّا أعطاك الله». يُمسك بك أحد الدراويش من البالية ثيابهم يومًا ما، ويسألك أن تمنحه عملة فضية ليأكل، ويحدثك بحدة: «المال ليس مالك، وإنما مال الله»، فتخبره أنك مؤتمن على هذا المال، وأنك لن تعطيه لشخصٍ عالة لا يعمل ولا يكد، فيخبرك أنك ستهلك؛ لأنك منعت مالًا لا تملكه.

تُقابل كثيرين يحملون الفهم ذاته، وهم يرون أن الله هو رازقهم ومطعمهم وشافيهم، لكنهم لا يبذلون أيَّ جهدٍ لنيل ذلك. تندهش أنهم لو دققوا في علوم دينهم لعرفوا أن الأمر ليس مطلقًا، وأن الله ضرب لهم مثلًا في القرآن بحكاية «مريم العذراء» التي أمرها الخالق أن تهز الشجرة لتسقط عليها الثمار فتأكلها، بدلًا من أن تنتظر رزق الله دون حراكٍ.

تجادل مع بعض الناس في ذلك، فيقرونك، لكنّ السواد الأعظم من العوام يتاجرون بكل شيء: الدين، والقرآن، والصلاة. تُقابل مَن يعتقدون أن الله سيُنجيهم لمجرد شهادتهم بنبوة الرسول دون أعمال صالحة أو نفع للناس، وتتذكر استشهاد أحدهم بآية من القرآن تقول:

(مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا»، وتلتقي أيضًا من يتصوَّر أن الله سيُعذِّب الناس جميعًا مرددًا آية أخرى تقول: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا).

تكتب إلى «مستر بانكس» أن الإحساس بالظلم يسود هؤلاء البشر؛ لذا فإن الكراهية سِمَة عامَّة بين الناس لكل ما هو تركي، تخبره أن العامة يسمون الأتراك «الغُزّ» ولديهم مَثَل معروف بين الشوام والمصريين يقول: «آخرة خدمة الغُزّ علقة»، مرددين أن الأتراك غدروا بكل مَن عملوا معهم من أهل البلاد، ويذكرك ذلك بمَثَل آخر ابتكره اليونانيون يقول: «إن تحدث التركي عن السلام فاعلم أن الحرب قادمة».

تصل إليك معونات مالية عبر تُجار لا تعرفهم، تُخبرك رسالة لـ«مستر بانكس» أنهم يعقدون عليك آمالًا عظيمة، وأنهم يفكرون في أن تستغل وقتك بالمدينة في البحث عن مناطق الآثار والعاديات، وإعادة دراسة المُدن القديمة بالشام. تحكي لك رسائل عدة محولة من عائلتك عبر «مستر بانكس» أنهم غادروا جميعًا سويسرا إلى ألمانيا بعد وظيفة جديدة حصل عليها «رودلف» النبيل. مات الجد «جيدوني»، وشاء القدر أن يُدفن خارج بلاده تاركًا لك وصية وحيدة: «أن تُخلد اسم العائلة.. بركهارت».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حيـاة النص

يظن الروائي أن النَّصَّ الجميل يعيش أطول من عمر صاحبه، يحترق بحثًا عن ظلال لحياتك، يفحص كُتبًا عن رحلاتك في الشام والأردن، يعاين أحداثًا متزامنة في كتابات مؤرخين معاصرين، يُرتب الفصول التالية ترتيبًا زمنيًّا، ويحاول توثيق كل كلمة، وحركة، ولحظة في حياتك، لكنه يرجع مستاءً ويُقرر محو كل شيء. ليس ما يكتبه تاريخًا، ليس سيرة، ولا مقالًا حول شخصٍ ما مر يومًا ببلاده، لا تحقيق صحفي بشأنك، لا موضوعية مستهدفة، ولا إثارة متعمدة، إنما هو نص روائي. وروائي هُنا تعني لا شيء سوى روائي، وجمالي، ولُغوي، وبنائي، وخيالي، وواقعي في الوقت ذاته.

يجلس الكاتب في ساعة صباحية بعد عشرين عامًا من الألفية الثالثة يُفكر كيف تعيش، فيمَ تُفكر، وإلامَ تسعى. تجلس أنت في غرفة نومك في بيتك الصغير أمام سوق الغلال بمدينة حلب، تطاول نافذتك شجيرة توت ضخمة تُذكِّرك بأشجار «بازل» العظيمة. يحاورك ذلك المستقبلي وكأنه لا ينسى شغله المُتيم به كصحفي، يسألك عن شعورك تجاه الآخرين بعد شهرين من قدومك. «مَن تقصد؟».. تسأله، فيجيب: «كل مَن حولك»، ويتابع: «صاحب البيت، شيخ الجامع، صاحب المقهى المجاور للبيت، تاجر الغلال الأكبر في السوق، العجوز ذو الظهر المُنحني الذي تراه في كل صلاة، ورسول القنصل البريطاني في دمشق الذي يزورك كل أسبوع ناقلًا الرسائل والمال».

يسألك الروائي وهو يعلم أن إجابتك تحتمل الصدق والكذب عن شعورك بطبيعة مهمتك في ذلك الوقت.. يسألك وهو يكاد يقول لك: إنك كنت تنقل كل معلومة إلى استخبارات بريطانيا المخفية تحت ستار جمعية جغرافية علمية، مَن تظن نفسك سوى عميل، جاسوس، مُخبِر لا يعي مَن يستغل معلوماته وكيف، وهل يفيد بها الناس أو يضرهم؟ يُكرر في سخافة لومك، مفترضًا أن بعض المعلومات تتسبب في أوجاع الناس، تساعد على هزيمتهم، وتيسير نهبهم، وتمهيد سلب خيراتهم، وتخطيط أولي لاستعمار بلاد الشرق. يسألك: «هل كُنت محبًّا لهؤلاء الناس الذين تنعتهم تارةً بالطيبين، وتارةً بالكسالى؟ هل شعرت يومًا أن كلمة منك، فكرة، حكاية قد تتسبَّب في مقتل إنسان؟».

يُشير إليك مُلحًّا على ما تُخبئ، يدعوك إلى أن تتكلم، لكنه يجهل أن أكثر من مائتي سنة تفصلكما تجعل حديثكما محض افتراض. تُفكر أن تحكي، لكنك تعود للتدثر بين أوراقك تاركًا لذلك الإنسان أن يجتهد. تصرخ فيه وأنت تعرف أثر ما تقول: «ما الرواية إذا لم تكُن أنت حاضرًا؟ ما النص الخالد إن لم تكتبه يداك؟». تمنحه نظرة تشجيع وتهتف به: «اكتب ما تشاء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدايـة الرحلـة

تستعذب البحث، تمضي من شارعٍ إلى آخر، تُعاين أناسًا يفترشون أحلامهم وأوهامهم، تفر من أعيُن متطفلة وأخرى مستريبة، وتفلت بحنكة، وبمصادفات من ورطات وورطات. تراقب معتقدات وتصورات، وتحيا بوجهٍ لا تعرفه، ولسان مُستأجَر، وأقنعة متعددة. تُجهض رغباتك، وتكبت فورة الشباب داخلك لتُركز في كشوفات تحمل نفعًا يُقنعك بأن ما تتلقاه من مالٍ دفعت مقابله جهدًا وأخطارًا. تقتل السذاجة وتتدرب على الحذر حاملًا ضمانات أخيرة اشتراها لك القنصل البريطاني بدمشق «مسيو باركر»، صاحب الابتسامة الرائقة والشارب الخفيف، والعينين الزرقاوين. يُخبرك أن كل شيء هُنا قابل للشراء، وبهدايا بسيطة يُمكن شراء خطابات من باشوات المُدن الشامية تضمن لك بعض الأمان. تُقلقك كلمة «بعض» فيصدمك بأن أمراء المُدن هنا ليسوا صفًّا واحدًا، كل شخص يُضمر حقدًا وغيرةً تجاه الآخر، وربما تفيدك خطابات باشا دمشق بالأمان باعتبارك تاجرًا مسلمًا تتنقل من مكانٍ إلى آخر، لكن مَن قال لك إن جميع المُدن تدين بالولاء للرجل؟ فثمة أقوام هُنا هواهم مع «باشا مصر»، وآخرون مع الوهابية، ثم آخرون مع قبائل العربان المختصمة لكليهما، والجميع يتربص بالجميع، والجاسوسية لأيٍّ منهم تهمة مكررة ومعتادة.

تُدرك حاجتك الماسَّة إلى «حميد»، ذي الحنكة البادية، تُقرضه ما طلبه مقابل أن يصحبك شرقًا وغربًا لتبصَّ على كل شيء. تحكي له حكايات ملفقة عن تجهُّزك لتجارة بضائع مختلفة تصل إليك خلال شهور مع قافلة كبرى قادمة من الهند، وأنك بحاجة إلى التعرُّف إلى الناس في كل مكانٍ في الشام لتحدد أيّ السلع يُمكن بيعها في كل مدينة. يمنحك «حميد» نظرة تسليم واتفاق لكنها توحي في الوقت ذاته بأنه لا يُصدقك. يطالبك مرة بأن تُحدثه عن بلاد الهند، فتسترسل عارضًا بعض ما قرأت في دراساتك عن السحر والجمال والطب والعطارة هناك، وتُحاول تأكيد هويتك بنطق بعض الكلمات الهندية التي مررت بها. تستأجران عربة مُطهمة سوداء تليق بثري غريب لا يكترث لنفقات، ثقةً بأن كل قرش يدفعه يعود ثلاث مرات أو أربعًا. يرافقك الشاب حليق اللحية في رحلة جديدة إلى دمشق، ليحكي لك طوال الطريق عن حبيبته «ليلى» التي يعمل بِجِدٍّ ومثابرة ليدَّخر مهرها. يقول لك في شوق: «أبوها أكبر تاجر صابون في حلَب؛ لذا فقد طلب مني عشرة جمال شامية مهرًا لابنته». تلمح في ناظريه هيامًا صادقًا بفتاة لم ترَها، لتستعيد ذاكرتك قصة «مارغريتا»، وتتخيلها في ثياب الراهبة تسأل الله لك النجاة من كل شَرّ.

تفتنك دمشق بروعتها، تأسرك بناياتها المبهرة، تعجبك أسواقها الصاخبة، تسكنك روائح العنبر والمسك والبخور، وتستوطن بنفسك الملامح الباسمة للبشر، والضجيج المحبب، ومنظر عباءات النسوة في الطرقات، وهي تلتف حول أجساد غامضة. يتلألأ نهر بردى كشريط فضي بين خطوط من الشجر الأخضر، تقطعه مراكب صغيرة تُبحر في بطء يناسب صيادين بسطاء يمدون صنانير صغيرة إلى الماء. تستعذب سخونة الطقس، وأنت تزور قباب صالحين منثورة عبر ربوع

المدينة القديمة. تسحرك قبة صلاح الدين بجوار المسجد الأموي بروعة ألوانها الزاهية، يُخبرك «حميد» إن كُنت تعرف «صلاح الدين»، فتحكي له ما قرأت عن نبله، وشجاعته، وبطولاته. تُحاول الإيحاء بامتنانك للزيارة مؤكدًا: «هذا محرر بيت المقدس»، وتتذكر مقولة مؤرخ عربي قال: إنه دُفِن ومعه سيفه الذي طالما جاهد به أعداء الله ليتوكأ عليه إلى الجنة، وتصطنع جلالًا وأنت تكررها أمام «حميد» المندهش دومًا.

تسير منبهرًا نحو خان المدينة الفخم، لتترك حقائبك، ثم يتركك «حميد» طالبًا السماح له بشراء أقمشة لحبيبته، مانحًا إياك فرصة اللقاء منفردًا بـ«مسيو باركر» قنصلك المُهذب. تُبدل ثيابك سريعًا لتبدو كمبعوث تُركي، قبل أن تتسلل في خفة نحو بيت القنصل. تروق لك الفخامة والسحر والحياة المترفة التي يغوص فيها الرجل، وتستهويك لوحات وآثار قديمة على الجدران تعود إلى أزمنة مضت لتحكي قصصًا وأساطير متداخلة مرت بهذه البلاد. تُمعن النظر في لوحة بنية تحمل نقوشًا جميلة، ليسألك الدبلوماسي الودود إن كانت تعجبك.

تجيبه دون أن تخلع عينيك عنها بكلمة واحدة: «مبهرة».

تُحدِّق كثيرًا في تفاصيل النقوش التي تُبدي عمائر شديدة الروعة منحوتة في الجبال، وتسأل الرجل بإنجليزية دارجة:

«من أين حصلت عليها؟».

يبتسم القنصل «باركر» ويقول:

«تجار العاديات كثر، بعض المسافرين عبر الصحراء من العرب يحضرون لنا كل شيء، وبقليلٍ من المال يُمكن أن تُنشئ متحفًا».

ويتابع قائلًا:

«لقد نقلت تحفًا كثيرة إلى المتحف البريطاني في لندن مقابل مكافآت بسيطة. هؤلاء الناس لا يقدرون كنوز الماضي، ينظرون إليها باعتبارها أصنام الكفار!».

«هل تعرف إلامَ تشير اللوحة؟».. تسأله، فيجيبك:

«نعم. البتراء. المدينة المفقودة».

«إنها حلم. أين يمكن أن تكون؟».

يعقد كفيه خلف ظهره ويسير مفكرًا قبل أن يقول:

«لا أحد يعرف يقينًا.. تجار العاديات الذين يأتوننا لا يتكلمون، لكني أعتقد أن المدينة كانت موجودة في الكرك، ثُم اندثرت ولم يبقَ منها سوى قطع ولوحات أثرية قديمة. وأنت دارسٌ للجغرافيا وتعلم أن عشرات من الرحالة تجولوا هناك كثيرًا، لكنهم لم يصلوا إلى شيء؛ فأغلب الظن أن العرب هدموا كل شيء بحثًا عن الذهب».

تمصمص شفتيك، وتقول بثقة عالم للتاريخ والجغرافيا:

«لا أعتقد أن البتراء في الكرك، لقد قرأت كلام الألماني سيتزين، وأحسب أن المدينة ما زالت قائمة، وهي في الغالب في الصحراء، ربما في مناطق الشرق، وعلى أيِّ حالٍ سأبدأ رحلتي غدًا، وسأزور كل المدن في الشمال والشرق، وسأترك منطقة الجنوب الشرقي لما بعدُ».

يدخل أحد العبيد السود ليضع زجاجة وكأسين، ليسارع القنصل بملئهما، ثم يقرر:

«اسمع يا لويس، أنا لا أعرف تحديدًا طبيعة مهمتك هنا، لكني أقول لك بوضوح: إنك لو توصَّلت إلى اكتشاف البتراء فستكون قد أدَّيت خدمة عظمى، ليس لبريطانيا وحدها، لكن لأوروبا المسيحية كلها. لقد التقيت سيتزين في بيت القنصل الألماني فان ماسك وأعرف كم أنفق من وقتٍ ومالٍ وجهدٍ للوصول إلى البتراء دون نجاح».

«لن أحتاج سوى لقليلٍ من المال».

ينظر إليك باعتزازٍ ويقول:

«ستحتاج إلى أكثر من المال». يقوم من مقامه ليحضر لك خنجرًا معقوفًا، وزجاجة صغيرة تكاد تنطق بأنها زجاجة سم، ثم يفتح درجًا صغيرًا ليقدِّم صرة نقود ذهبية وحزمة أوراق مختوم عليها بختم باشا دمشق.. ثم يوصيك قائلًا:

«لا تأمن لأحدٍ».

فيما بعدُ سيقول لك صديقك المغامر «جيوفاني باتيستا بلزوني»: إن نصيحة جميع القناصل لرعايا بلادهم في الشرق واحدة، وهي عدم الثقة بشرقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محـاورات «حميـد»

يُشعرك «حميد» بغباءٍ زائفٍ، تتشمم في عينيه لمحة مكر، يسألك في الطريق إلى «زحلة» عمَّا يدفعك إلى أن تسافر وتهدر وقتك وجهدك ومالك في الذهاب إلى مدينة النصارى! تقول له بهدوء: «المعرفة»، فيسألك «لِمَ؟»، ويضيف سؤالًا آخر: «أمن أجل التجارة؟». تُزعجك أسئلته فتصرفه بحذرٍ قائلًا: «لا تشغل بالك. أمور التجارة تفتح أبوابًا يظنها كثيرون موصدة». تحاول جرجرته إلى حديثٍ عن محبوبته، وإن كانا اتفقا على أسماء الأبناء أم لا، فيغلبه الخجل ويلوذ بالصمت. تستغل غيابه عنك لشراء الطعام أو السؤال عن الحانات ودكاكين المخطوطات، في تدوين ما تراه وكتابته.

تبدو المدينة جديرة بتسميتها «بلد الكنائس»؛ إذ تقع بين كتلتين ظاهرتين: إحداهما جبل صنين من ناحيةٍ، والكنيسة الكبرى من الناحية الأخرى، وبينهما تتراص الكنائس والمنازل ذات القراميد الملونة لتحيط بها صفوف من أشجار السنديان والرمان والجوز، المزروعة في تدريجات تعلو ناحية الجبل.

يُخبرك «حميد» أن أهل «زحلة» متمردون بطبيعتهم، يرفضون الخضوع للأتراك، وأنهم وحدهم في مُدن الشام لا يدفعون الجزية؛ لأنهم سبق أن اشترطوا ذلك على الأمير «جهجاه الحرفوشي» مقابل أن يناصروه في ثورته ضد «أحمد باشا الجزار»، والي عكا، الذي سبق أن انتصر على الفرنسيين، لكنه انهزم أمام أهل هذه المدينة. يقص عليك بعض الحكائين بالمقهى الكبير أساطير عن ذلك الأمير الذي اقتحم المدينة بأقل من مائة مغامر، واستولى على الإمارة في لمح البصر.

تبدو المدينة جميلة زاهية كإحدى المدن الأوروبية العتيقة، وتكاد تتميَّز عن باقي مُدن الشرق بالسمت الأوروبي الواضح، وبغياب أيِّ مظاهر تدل على حكم الأتراك، الذين بدا أنهم فقدوا الأمل في استعادة السيطرة على المكان، أو ربما قرروا تركه عن قصدٍ ادعاءً للتسامح؛ إذ لا توجد عائلات مسلمة بين السكان. وعلى الرغم من ذلك فإنه يوجد مسجد وحيد صغير بين أكثر من خمسين كنيسة تزدحم بها المدينة الجميلة.

تجوب أنت ورفيقك «حميد» ربوع المدينة في أقل من يوم، لتغادرا قبل المغرب نحو «بعلبك»، المدينة ذات المعابد الرومانية المدهشة. تمر في الطريق بقبائل بدوية تدَّعي الولاء للأتراك، ربما تصوُّرًا منهم أنك مبعوث تركي، مثل كثيرين يمرون بهم. ثَمَّةَ قبائل تسمى «الدروز» تقابلك بحفاوة وكرم بالغ، ويهمس لك «حُميد» في أذنك بأن تحذرهم؛ لأنهم كفار، يجذبك أحدهم من يدك مقسمًا أن تزور قبر «النبي نوح»، مشيرًا إلى قبة صغيرة مكسوة بالبلاطات الرخامية. تشم رائحة احتيال، وتُبدي عدم اهتمام، فيقول لك «حُميد» بثقة: «إنه قبر نوح ـ عليه السلامـ بالفعل، هم لا يكذبون، كل السكان يعرفون ذلك، وقبل سنين جاء علماء أتراك وزاروا القبر وأقروا بأنه قبر النبي».

تزوران المعبد الكبير في «بعلبك»، تتلمس بأصابعك أعمدته الجرانيتية الضخمة، تُخرج ريشتك وترسم هيئته، يتوجس «حميد» قليلًا ويسألك عمَّا تفعل، ثُم يحذرك من تشكُّك الناس في أيِّ شخص يرسم شيئًا. يفسر لك ذلك بأن كل غريب يكتب أو يرسم شيئًا يفعل أمرًا لم يعتَده الناس، فيتشككون فيه ويذهبون إلى قصر السرايا، حيث يسكن الأمير، للوشاية به. لا تكترث كثيرًا؛ فأنت تعرف أن أمير بعلبك خاضع في النهاية لباشا دمشق، وفي حال الخطر الداهم ستُخرج خطابات الأمان المختومة لك.

يقول لك «حميد»، دون أن تسأله، إنه يلتقي حبيبته في طريقها إلى السوق كل جمعة، وإنه في إحدى المرات قدَّم لها ثمرة مشمش تعبيرًا عن محبته. تسأله: «كيف يولد الحب في بلادكم؟»، فيحكي لك عن نظرات تتلاقى وبسمات تتقابل وأبيات من الشعر تُكتب في ورق، أو تُنقل عبر الجواري والأطفال. يتفاهم الحبيبان، ويُحدِّث الحبيب أهله ليصحبه والده وكبراء العشيرة لخطبة الفتاة، والاتفاق مع أهلها، ويُقدَّر المهر حسب مكانة كل أسرة. تسأله عن الموقف إن رفض أهل الفتاة قبول الخاطب، فيقول لك: «تمرض الفتاة وتذبل، وربما تموت إن كانت بالفعل مُحِبَّة للخاطب».

تسأله: «وهل تُقَبِّل فتاتك؟».

تبرق عيناه غضبًا ويقول:

«ليس من المروءة قصُّ ذلك».

يبتسم قليلًا ويُخبرك أنه فعلها في بستانٍ ناءٍ، ثم يعود إلى مكرِهِ ويسألك:

«هل تفعل ذلك في بلادكم؟».

تقول ضاحكًا: «ربما أكثر»، ثُم تتذكَّر أنه يحدِّثك عن الهند وليس سويسرا، فتشعر بالخطأ وتتراجع قائلًا: «ألا تحب الهزل يا حميد؟».

ثم تُخبره أنك ستذهب إلى الحانة؛ فأنت مشتاق إلى العرق الشامي اللذيذ. يتأفف ويقول لك: «ستجد خمارات كثيرة، فأكثر سكان بعلبك من النصارى».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلعـة بانيـاس

تُراجع خرائطك ماشيًا بإصبعك فوق مُدن شامية لها ذكر تاريخي يُقرِّبك من ضالتك. تقول لنفسك: «لو كانت البتراء هُنا لظهرت للعلن؛ لأن معظم السكان مسيحيون، ومتصلون بأوروبا بأكثر من طريقٍ، ولا يرون في مساخيط الأقوام الماضية كفرًا أو ضلالًا». تُتابع استقراءاتك لتنتقل من نقطة إلى أخرى، من وادي داستوش إلى أرض لكلوك، لتجد أن الطريق كله ينزرع بكنائس مبهرة، صمدت في وجه الزمن قرونًا وقرونًا.

تفتنك العمائر الدينية ببهجتها وروحانيتها وصفوها، تلمح في عيني «حميد» استغرابًا طافحًا، يحاول أن يثنيك عن دخول دير الأحمر، لكنك لا تلتفت إليه، وتطلب منه أن ينتظرك في الخارج. تدلف في ممر منكسر ليقابلك كاهن عجوز يتوكأ على عصا خشبية، ويجوب معك الدير مُرحِّبًا بوجهٍ تكسوه السماحة. يحكي لك الرجل عن تاريخ المكان، وهو لا يعرف مَن أنت وفيمَ أتيت، تسأله بهمسٍ عن البتراء، فتبرق عيناه هنيهة، لكنه يهز رأسه نافيًا أيَّ معرفة، ثم يصمت قليلًا كمن يتذكَّر شيئًا ليخبرك أنه سُئِل قبل سنوات السؤال نفسه من زائرٍ آخر يحمل اسم «الحاج موسى سيتزين».

يلتمع الاسم في ذهنك، وتتذكر أنك قرأت أنه مرَّ من الطريق ذاته في محاولاته لاكتشاف المدينة المفقودة، وينتابك القلق من أن يسبقك ذلك الألماني الماكر في الوصول إلى المدينة الساحرة.

تزور «قلعة بانياس»، وتُعاين أبراجها الطويلة ومزاغل السهام المنغرسة في جدرانها. تلحظ تململ «حميد» الصامت بتجهم، لكنك تتجاهله، وتواصل مهمتك في رسم المكان. تعرف أنَّ «حميد» متطفل يتشكك في كل شيء، لكنه يحتاج إلى المال، وأنت أيضًا تحتاج إليه في ظل هذه العادات والثقافات المتباينة. يُخبرك أحد الأدلَّاء في القلعة أن هناك قرية على الطريق تُدعى «بوسترا» تضم معابد وعمائر قديمة، إلا أن الطريق إليها محفوف بالخطر؛ لأن هناك قُطَّاع طرق من العربان يسلبون المارة ويستعبدونهم. تتذكر حكاية «روبنسون كروزو»، لتمحو من رأسك فكرة تعرضك للاستعباد على أيدي هؤلاء، لكن «حميد» يتدخل في الحوار، ويقول للدليل بتحدٍّ: «مَن قال لك إننا سنسمح لأحدٍ أن يسرقنا؟ لو خرج هؤلاء اللصوص لنا سنسلبهم وسنبيعهم عبيدًا». يُدهشك «حميد» بجرأته وكبريائه على الرغم من إيمانك بأنه أول مَن يفر في معركة مثل تلك التي يتحدث عنها. تبتسم للدليل وتسأله:

«كم تبعد القرية؟».

يقول لك: «مسيرة نصف يوم».

ثُم يُفاجئك قائلًا: «لقد عرض تاجر مهاب مثلك، اسمه الحاج موسى، على أدلاء القلعة ثلاثين قرشًا ليصحبه أحدهم إلى هناك، لكنهم رفضوا جميعًا؛ خوفًا من العربان».

تفغر فاك، لكن «حميد» يُثبت ذكاءه المخفي مرة أخرى ويسأله:

«ولماذا أيها الهمام لم تذهب أنت معه وتفوز بالثلاثين قرشًا؟».

يجيب الدليل بسرعة:

«لأنني لم أكُن هُنا».

يصمت قليلًا ويتابع قائلًا:

«كنت هناك في القرية، وكان معي أمير مملوكي كبير أراد زيارة المكان».

تنظر إليه وتسأله:

«إذًا ستصحبنا إلى هناك؟».

يهز الدليل رأسه موافقًا ويُتمتم:

«سآخذ خمسين قرشًا».

«لا، ثلاثين».

«اتفقنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيدنا الخضر

يفكِّر مؤلف روايتك في دوافع الكتابة، يسأل نفسه: لماذا أكتب؟ تنتابه بين الحين والحين وساوس، سبق أن زارتك، حول أن ما يهدره من وقتٍ في التدوين يذهب سُدًى، لا أحد يقرأ في هذه البلاد، لا أحد يبحث عن الحقيقة؛ فالناس مشغولون بالبحث عن أرزاقهم بعيدًا عن المعرفة. ينظر الناس إلى الكَتَبة باعتبارهم مُرفهين، لا يجلدهم شظف العيش، ولا تُعذبهم الحاجة، فينغمسون في البحث، والسرد، والقص، وصناعة الدهشة. يتصورهم الساسة مستخدمين لديهم، مهمتهم ترسيخ دعائم سلطانهم، ويحسبهم رجال الدين مُهرطقين، يحولون بينهم وبين الناس؛ إذ يُعرُّون بشريتهم وإصرارهم على ادعاء القداسة واحتكار الصلاح. يعتبرهم البصَّاصون خطرًا على الأمن العام؛ لأنهم يفتحون أعيُن المحكومين على ما تكرهه في حُكَّامهم.

يُكرر المؤلِّف سؤالًا جمع له عشرات الإجابات عمَّا يدفع الكاتب ليكتب. يردد كلمات «تيري ماكملان»: «أكتب لأتخلص من جلدي الميت»، ويتذكر عبارة «مار كار»: «أكتب لأحلم»، ويستعيد ما قالته «كاثرين هاريسون»: «أكتب لأن هذا ما يمنحني الأمل».. يقف كثيرًا عند نصائح «إيزابيل الليندي» التي تُشجع أمثاله على أن يخوضوا الكتابة، داعيةً إياه إلى أن يفتِّش عن الكلمة الدقيقة الواصفة لفكرته.. يحكّ رأسه، يستخدم مخيلته، وعندما يشعر أنه التقط إيقاعًا، وأن الشخوص بدأت في التشكُّل، ليراهم أمامه، ويسمع أصواتهم، ويتحركوا ويفعلوا ما لم يخطط له، فإن عليه أن يعي جيدًا أن الكتاب صار موجودًا في مكانٍ ما، وكل ما عليه فعله هو أن يجده ويحضره كلمةً بعد كلمة.

يشعر المؤلف بقليلٍ من التشجيع، يقرر أنه يكتب لأنه يتعبد بذلك، يعتبر أن في الكتابة عبادة للخالق، الذي أنعم عليه بنعمة الرغبة في الكتابة، فقرر أن يكتب من أجل أن يكتب.. بحثًا عن الحقيقة؟ ربما. سعيًا إلى المتعة؟ وارد. كسرًا للجهل؟ يجوز. طلبًا للذكر؟ ممكن. نثرًا للجمال؟ أكيد. إنه يكتب ليحيا، يتمدد، يسافر عبر الزمن، يتجاوز الحدود، يفضح القبح، يسبك اللغة، يشبك الحروف، ويُحلق في فضاءات الكون. يكتب ليعبُر إنسانيته، يتجاوز دنس الطين البشري، ينفتح على نقاء الأرواح، ويتلاقى معك لقاء صديقين أنهكهما الترحال بحثًا عن المعرفة.

يجلس المؤلف جِلسته المفضلة، ليفتح نصَّ روايته عنك، ويذهب بك سريعًا إلى قرية «بوسترا»، التي كنت تحسبها «البتراء»، لكن أملك يخيب؛ إذ تجد قليلًا من البنايات القديمة وسط أحراج قبيحة ولا شيء ولا بشر.

تتعرَّض للخداع كثيرًا، ويرميك «حميد» بنظرات شامتة، وتمضيان طريق العودة إلى دمشق في جدالٍ وتربُّصٍ.

يقول لك «حميد» في حدة:

«يجب أن تكف عن التعامل معي باعتباري خادمًا أو عبدًا. أنا لست كذلك. نحن شريكان، ومن الجائز أن أدفع روحي ثمنًا لأسفارك الغامضة».

تقول له في كبرياء تليق بأوروبي عالم:

«تذكر.. بيننا اتفاق مسبق، وأصله أن تتبعني حيثما أريد لتحصل على ما تريد».

يعود لتطفله، ويقول:

«لِمَ لا تخبرني بصراحة عمَّا تريد؟ ولِمَ تسافر وتتحرك شرقًا وغربًا؟ لا تحسبني ساذجًا لأصدق أنك تاجر يبحث عن زبائنه. أنت تبحث عن شيء آخر».

يعلو صوتك مستفسرًا:

«مثل ماذا؟».

«ربما تبحث عن كنوز الغابرين، ذهب، مساخيط، وربما رممهم، أو أن تكون جاسوسًا لأحد باشوات الشرق، مثل محمد علي الكبير. أنت لا يمكن أن تكون عميلًا للوهابيين، هم ورجالهم لا يشربون الخمر، وأنت تفعل».

تهتف به:

«يا هذا.. كُفَّ عن تصنيفي وإلا افترقنا».

يهدأ قليلًا، ويبدو حرصه على المال الذي وُعِدَ به حاجزًا بينه وبين مواصلة التطاول. تقول له بهدوء:

«اسمع يا حميد، لو كنت ستصاحبني فيما بعدُ سأطلب منك ما طلبه سيدنا الخضر من النبي موسى: لا تسألني عن أمر حتى أحدثك عنه، وإن لم أحدثك فلا تسألني عنه مطلقًا».

يصمت متظاهرًا بالغضب، ثم يقول:

«سيدنا الخضر نبي موصول بالله، وأنت تشرب الخمر، وتتبع بعينيك النساء، وتتلصص على الناس و...».

«يكفي هذا يا حميد.. لقد اتفقنا».

يصمت كمَيِّت..

تتمايل بكما عربة السفر في طريقها الوعر الممتد بين التلال، تبصر المروج والغابات كلوحات تمر بسرعة على الخاطرة، تشعر باعتلال مفاجئ، وألم خفيف بين ضلوعك، يصيبك الغثيان بعد تنهيدة خاطفة، وتشعر بالدوار، ثم الخدر، وتغيب عن الوعي رويدًا رويدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضربـة شمس

تُفيق على وجه «حميد»، وهو يقف مُنتصبًا مُشمرًا، ويحمل إبريقًا من الماء ينثر بعضه على جبهتك. تهم بالقيام، فيشير لك أن تبقى مسترخيًا، ويخبرك أنك قاربت على الموت بعد ضربة شمس خاطفة. ترفع رأسك المثقل لتشعر بمغص مفاجئ ورغبة في التقيؤ. تستقرئ المكان حولك لتكتشف غُرفة صغيرة بلا نوافذ، ولا شيء فيها سوى زير قديم، وموقد صغير، وكومة من الحطب، وفراء أغنام مفروش على الأرض، وآخر مُعلق على الجدار المقابل.

يقول لك «حُميد»:

«لقد فقدت الوعي فجأة، وخشيت عليك فطرقت أول باب صادفنا فاستقبلنا نساء البيت وسمحن لنا بالدخول كضيوف حتى الصباح، لنغادر إلى دمشق».

تصفعك الدهشة وتهتف بصوت مبحوح:

«ألم تُحذرني مرارًا أن أحادث النساء طوال الطريق حتى لا أتعرَّض لغضب رجالهم؟!».

«بلى.. لكن هؤلاء غجر، ونساؤهم يتحدثن مع الغرباء دون قيود».

يشرح لك «حميد» أن هؤلاء النسوة يختلفن عن باقي نساء الشام؛ لا يحتشمن، وفي الغالب فإن رجالهن يرتحلون بعيدًا بمجرد الزواج؛ طلبًا للرزق، ومعظمهم يعملون في تجارة التبغ، وإدارة المقاهي، وأسواق الميسر، وأصحاب النخوة فيهم يقطعون الطرق بين المدن.

يواصل الرفيق المستأجر تبريره قائلًا:

«لم يكُن هناك بديلٌ، سيد إبراهيم.. خشيت عليك أن تموت في بلاد غريبة، أصعب شيء على المرء أن يموت بعيدًا عن أهله، ولو حدث لا أعرف لك أهلًا في الشام، ولم أكُن أعرف مَن أخبر سوى مسيو باركر».

يعرف عنك أكثر ممَّا تتصور.

يقول أيضًا:

«سنبقى هنا الليل، وسأدفع للنسوة بعض القروش إكرامًا، بالطبع هن لم يطلبن شيئًا، لكنهن فقيرات، ومن شيمنا نحن العرب أن نكرم الكرماء دون أن يطلبوا».

تهز رأسك موافقًا، لكنك تسأله:

«من أين عرفت مسيو باركر؟».

يبتسم ويقول لك في ثقةٍ:

«أوصاني بك خيرًا.. وسبق أن رأيتك مع أحد الخدم لديه، لكن لا تشغل بالك. أنا معك لأرعاك لا لأتجسَّس عليك».

تتشتت الرؤى حولك، تتفتت التصورات، وتتداخل الأسماء، تَبصر الوهم فتحسبه حقيقة، ولا تدري إلى أين تمضي وكيف، ومَن يرسم خطواتك!

تُغمض عينيك، وتُطارد بذهنك رجلًا يُشبهك، يعبر نهرًا جميلًا متلألئًا لتجد آخر قصيرًا، غليظ الملامح، ذا عمامة مكورة يبتسم لك، ويأخذ بيدك لتسيرا معًا نحو سُلَّم مُدلى من قمة تل، ويدعوك لتصعد. تطاوعه، وترفع قدمًا ثم أخرى، وتتعلق يداك بالدرجات العليا، وفجأة يُخرج الرجل سكينًا صغيرًا ويقطع حبال السلم من أسفل، فتسقط بقوة، وتغيب في الغياب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

المُكتشف

ألف ليلة وليلة

تتعلم من أخطائك، تحاول أن تُحدد مهامك بدقة، تتذكر واحدة من وصايا «النبي لقمان» في القرآن، الداعية إلى أن يقصد الإنسان في مسعاه. تُقرر لنفسك مهمة أولى مرحلية قبل الوصول إلى مهمتك الأساسية في النيجر، وتكتب في كراستك أنك لا بُدَّ من أن تصل إلى البتراء. تُمدد خريطة حديثة لأرض العرب، وتُفكر في مكان قاحل، قريب من نبع ماء، يقع على طريق القوافل القديم، ثُم تُحدد مسارات الرحالة «سيتزين»، التي لم تصل إلى شيء. تتذكَّر إشارات له بأن البتراء مدفونة تحت مدينة الكرك، وتُفكر أنها قد تكون قريبة منها، لكن ليس هناك.

تومض في باطنك أفكار وذكريات ممتعة، تتذكر شوارع «بازل» النظيفة، وساعات الساحات الكبرى، وأجراس الكنيسة العمومية وهي تدق رنينًا منتظمًا، تلعق شفتيك لتحس طعم أول قبلة أذاقتك إياها «مارغريتا»، تنعم بدفء ذراعيها تلتفان حول عُنقك في تشبُّث لذيذ، تُبصر قمر الليل الساطع في طريقك نحو «لايبزج»، تلمح مبنى الجامعة العتيق، والمعلمون يقفون كآلهة يُقررون ما الصواب والخطأ.

تسمع صوت الأذان ينادي لصلاة الجمعة، وتُقرر ضرورة الذهاب إلى هناك؛ لأن الغياب سيلفت نظر «حميد» المتطفل دائمًا، والقابع على المقهى المجاور للبيت؛ انتظارًا لأيِّ مهمة تكلفه بها، ترتدي سروالًا قطنيًّا فوق قميص أبيض من الكتان، وتغطيه بعباءة بُنية، ثُم تبدأ مهمة لف العمامة فوق رأسك، قبل أن ترش قليلًا من عطر المسك على ملابسك، تضع قدميك في مداسٍ من جلد الغنم، وتُغادر.

تسهو تحت قدمي الخطيب ذي الصوت الزاعق، الذي يتمايل يمينًا ويسارًا، ذاكرًا عذاب الله للأمم الكافرة، وداعيًا بالصحة وطول العمر للسلطان الأعظم والوالي الأكرم. يسهو مثلك عشرات وعشرات، تلمح تلابيب النُّعاس على أعيُنهم؛ هربًا من كلام مكرر يسمعونه منذ سنين دون أن يُغيِّر فيهم شيئًا. يؤمِّن الناس على دعاء الإمام، وتؤمِّن معهم، لكنك تقف عند واحدةٍ من الأمنيات بقضاء حوائج الناس، متذكرًا لهفتك، وشغفك أن تصل إلى مبتغاك.

تزور محل مخطوطات في منطقة السيدة زينب، وتشتري نسخة من كتاب «الحيوان» للجاحظ، ترجع إلى ثلاثة قرون، لتقدمها إلى «مسيو باركر» ليبعث بها إلى جامعة كمبردج، مقررًا أن كل كتاب يفيد في التعرُّف بصدق إلى الشرق. تسأل ناسخ الكتب إن وصلتْه أيُّ نسخ من «ألف ليلة وليلة» أن يبعث لك مَن يخبرك، لتشتريها. تعلم كم يهم هذا الكتاب الباحثين في الشرقيات ليحللوا من خلاله غوامض الشخصية الشرقية.

يُخبرك «مسيو باركر» أن الوقت يُسابقك؛ لأن الوهابيين حققوا انتصارات مُدوية في شبه الجزيرة، وغزوا كثيرًا من المُدن الشامية، ودانت لهم بالولاء، وهم لن يسمحوا، حال تمكُّنهم، للنفوذ البريطاني بأن يبقى قويًّا في الشام، كذلك فإن جواسيس باشا مصر ـ المُلقب بالداهية ـ في كل مكان؛ لأن عينه على هذه الأرض لتدعيم مملكته في وادي النيل. يقول لك القنصل: إن هذا الرجل ليس معاديًا للأوروبيين،

لكنه يُكِنّ بشكل خاص كراهية لبريطانيا، ولا ينسى لها أنها ساندت عدوه اللدود وأمير المماليك الراحل «محمد الألفي». يُحدثك «باركر» بوضوحٍ مُلمحًا إلى أن صبر بعض المتبرعين للجمعية الجغرافية قارب على النفاد، وأن عليك أن تسافر خلال ثلاثة أشهر إلى القاهرة لتلحق بمهمتك الأصلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حفل ختـان

يستدرجونك رويدًا رويدًا، يسحبون قدميك، ينصبون لك الفخ، ثُم يدعونك طوعًا، لكنك تعلم أنها طواعية مغلفة بالجبر؛ فمن ذا الذي يرد دعوة أمير البلاد؟ يفاجئك «مسيو باركر» بأنك مدعو من باشا دمشق لحفل ختان ابنه، لكنه يشُك أن وراء الدعوة أمرًا ما. تسأله إن كان الباشا يعرف حقيقتك، فيجيب بغموض: «رُبما»، لكنه يصمت قليلًا كمَن يُفكر في أمرٍ ما، ثم يقول لك:

«المشكلة ليست في الباشا، المشكلة في مبعوث محمد علي، باشا مصر؛ فهو رجل حاذق، ضليع في أمور السياسة وفنون الحرب، وهو في الأصل إنجليزي».

«إنجليزي؟!».. تسأل مندهشًا، فيجيبك قائلًا:

«ليس بالضبط.. هو رجل أسكتلندي، اسمه توماس كيث، فارس من أشجع وأبرع الفرسان. معلوماتنا أنه كان من أسرى حملة فريزر ولم يُحَرَّر بناءً على اختياره، وصار مملوكًا للأمير طوسون، ابن الباشا، وتقريبًا هو الآن ذراعه اليمنى، يحرسه، يجمع له المعلومات، ويدبر له الحيل، وقد أسلم وغيّر اسمه إلى إبراهيم أغا. لقد أرسله محمد علي إلى باشا دمشق بعد إغارة الوهابيين على مُدن الشام، وأخذهم بعض الأسرى للتشاور والتعرُّف إلى الوضع العامِّ، وأغلب الظن أن محمد علي يتجهز لغزو الحجاز؛ لأن أمرًا من السلطان العثماني صدر بذلك».

تستغرب، وتسأل:

«لكن ما دخلي أنا التاجر الهندي بذلك؟».

يصب القنصل الأنيق كأسًا من «البراندي» ويقول:

«أتصور أن باشا دمشق يخاف من محمد علي ويعلم بأسه؛ لذا فربما يحاول شراء رضاه بإخبار مبعوثه إبراهيم أغا بكل ما يعرفه عن الأجانب وأنت منهم هُنا، وظني أنه بالطبع يدرك أنك لست تاجرًا هنديًّا، وربما يكون قد أخبره برحلاتك، ويريد أن يعرف منك معلومات عن المُدن التي ارتحلت إليها؛ لأنهم مقبلون على حرب، وكل معلومة في الحرب مهمة».

«والعمل؟».

«لا شيء.. ستذهب إلى الحفل وسينفرد بك توماس كيث، أو إبراهيم أغا، أيًّا ما كان اسمه، وسيتحدث إليك وستخبره أنك أوروبي مسلم، وتبحث عن العاديات والكنوز القديمة، ولن يجد بأسًا في ذلك، ففي مِصْر هناك أوروبيون كثر تخلفوا عن حملة نابليون وخدموا في ظلال محمد علي»..

ويواصل القنصل موصيًا:

«لو عرف أنك تابع لبريطانيا لن يجازف بأيِّ فعل متهوِّر».

تنظر إليه في تردد وتسأل:

«هل ستكون معي؟».

يبتسم ابتسامة مكر قائلًا:

«بل ستكون أنت معي، سأبعث إليك عربة تقلك بعد العشاء، وسنلتقي في القصر الكبير. لا تقلق. مثلما تخشاهم فهم يخشونك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توماس كيث

يُبهرك قصر «الباشا»، بُنيان فاخر، ومعمار فخم، وجدران عظيمة متسعة تتوسطها نافورة مياه، تتراقص حولها جوارٍ حسناوات على أنغام موسيقى شرقية غريبة، وتتراصّ موائد الطعام على صفينٍ في أحد جوانب قاعة مرتفعة السقف تتدلَّى منها مشكاوات ضخمة مُبهجة، تمامًا كما تحكي قصص ألف ليلة وليلة.

تُقارن المشهد بأزقة دمشق الغاصة بشحَّاذيها الملتفين كَسُورٍ حول المسجد الأموي بثيابهم الرثة، ووجوههم البائسة، وروائحهم النتنة، لتعرفَ مدى الفارق بين مَن يَحكمون ومَن يُحكمون! تتعرَّف إلى وجوه تُجار وأعيان كبار طالما رأيتهم في حوانيتهم ومقاهيهم، وبعض الأثرياء الذين التقيتهم في الخمَّارات، فضلًا عن صفٍ من القناصل الأجانب وكبار المماليك وأبنائهم. تُبصر «مسيو باركر» بين الزحام، وإلى جواره شاب طويل القامة، قوي البنية، حادّ النظرات، له شارب مُهندم، يُشير إليك من بعيد ليعرِّفك بالرجل الذي لا بُدَّ من أن يكون «توماس كيث».

يقوم الجميع للسلام على «الباشا» الداخل بعباءة فضفاضة مزركشة، خلفه اثنان من الحرس يحمل كل منهما بندقية خشبية، يبدو الرجل مضطربًا بعض الشيء، وتزيغ عيناه يمينًا ويسارًا وكأنه خائف من أمرٍ ما. يُعرفه القنصل بك قائلًا: «السيد إبراهيم بن عبد الله»، فيبتسم في ود مُصطنعٍ، ويقترب «توماس كيث» منك، متداخلًا في التعريف، مادًّا يديه مصافحًا ليقول لك «باركر»: «الأمير إبراهيم أغا».

تفهم من نظرة عينيه أنه يريدك تجديدًا، وأنه ما قدم إلا ليراك ويجلس معك. تصافحه مُرحِّبًا، لكن بمجرد أن تعانق كفُّك أصابعه، تشعر بقشعريرة الخوف تسري بين جنباتك، وكأنه يشعر بذلك فيقبض على كفك لتجلسا معًا في أحد الأركان.

يسكت وعيناه تتابعان الرقص الشبيه بقفزات بلا معنى لنساء جميلات. تسأله بالعربية إن كان مُعجَبًا بالحفل، فيجيبك بإنجليزية دارجة بأن عينيه لا تريان تلك الحسناء المتمايلة وهي تشدو. يرميك بنظرة فاحصة قبل أن يدلق في جوفه كأسًا من الخمر اختطفتها يُمناه من فوق الطاولة. يأخذ كأسًا أخرى ويسألك:

«قُل لي يا سيد إبراهيم، أو لويس، أو بركهارت، أو أيًّا ما كان اسمك.. كيف وجدت مُدن الشام؟ كيف أهلوها؟ ما أحوالهم؟ بالتأكيد أنت رأيت المُدن الموالية للوهابيين في الشام، هؤلاء الكفار. هل هم سعداء بهم، أم ناقمون على كفرهم؟».

يُصدمك الكشف المبكر، فتحاول رد الصفعة قائلًا:

«الناس هنا لا يعنيهم سعود ورجاله، ولا يعنيهم غيره. الناس في الشام كله يبحثون عن أرزاقهم. مثلهم في ذلك مثل الأسكتلنديين لا يعنيهم البلد الأعظم الذي ينتمون إليه؛ فمصالحهم هي الأولى».

يبتسم الرجل في برودٍ ويقول:

«لا تغضب يا صديقي. إننا نقف على الأرض ذاتها».

ويواصل:

«أنا مجدي في الحرب والقتال، وأنت مجدك في الكشف عن الكنوز القديمة أو العبيد أو أي شيء آخر، أو حتى تتجسَّس لتنقل الأخبار. لا يهم. ليس هناك تعارض بيننا. أنا أخدم باشا مصر وسيدي الأمير طوسون، وأنت تخدم مصالح التاج البريطاني».

تمد كفك لتحتضن كأسًا من كؤوس عدة تراصت أمامك، وتقول:

«لكنك مُتقلب يا توماس. كُنت قبل ثلاث سنوات تحارب باشا مصر ونجله طوسون، والآن أنت تحارب لهما».

يُسارع مُصحِّحًا:

«معهما وليس لهما. أنت دارس جيد للغة العربية وتعرف الفرق».

تحول دفة الحديث مهاجمًا إياه بقولك:

«معهما أو لهما، لا يهم، المهم أن النتيجة واحدة. لقد انقلبت أحوالك بصورة غريبة تُحيِّر كل صاحب تفكير».

يقهقه بصوت خفيض ويرد:

«القصة طويلة يا عزيزي، لكن إن كنت تكتب ما تراه فاكتب قصتي، فأنا اخترت بإرادتي البقاء في مِصْر، والعمل مع رجلها العظيم، رجل المستقبل»..

ويواصل بلهجة صديق:

«كل الحكاية أنني سافرت مع الحملة غازيًا، كان أملي أن أحصل على غنيمة لائقة بعد أن أوهمنا القائد فريزر أننا سنذهب في نزهة، وأن أعداءنا رعاع، جبناء، يخافون من ظلالهم.. لكننا فور وصولنا وجدنا الجحيم بانتظارنا، والغريب أن ذلك الجحيم لم يكُن جنود الباشا ومماليكه، وإنما كان أهالي المحروسة الذين خرجوا علينا من خلف الأشجار في شكل دائري عجيب، ففصلوا بين الجنود وقائدهم، واصطادوا كل فرد وحيدًا. وأنا كان نصيبي ضربة عصا غليظة فوق رأسي لم أرَ بعدها شيئًا. وبعد ساعات وصل مبعوث الباشا وقيَّدونا بسلاسل، وطافوا بنا شوارع القاهرة قبل أن نشاهد الباشا وابنه طوسون وربيبه إبراهيم يفحصون وجوهنا وجهًا وجهًا. كنا ننتظر الموت، لكن الأمير طوسون سألني عن فنون القتال التي أتقنها، ثُم سألني إن كنت أرضى بالعمل لديه، فسكتُّ، حتى وصل مبعوث الصلح عارضًا أسماء الأسرى المطلوبين، وبالطبع لأنني أسكتلندي فلم يكُن اسمي بينهم؛ لأن أحدًا لا يهتم بأسكتلندي مغمور».

تمتد كفُّ مُحدثك بقطعة دجاج مشوية إليك، فتعتذر لتوعُّك معدتك، فيواصل وأنت شغوف بحديثه حاكيًا:

«بعد انتهاء الاتفاق، سأل المبعوث البريطاني إن كان هناك أحد الأسرى الباقين، فسألني أحمد بونابرته، القائد الأكبر في جيش الباشا، عن قراري، فأخبرته أنني أقبل بالخدمة كمملوكٍ للأمير طوسون. وفي الحقيقة لا أعرف ما الذي دفعني إلى ذلك.

إنني أومن بأن القدر يُسيِّرك في بعض الأحيان إلى ما لم تختَره، لكن على أيِّ حالٍ أنا سعيد بما فعلت، وسعيد أكثر بما صرت عليه خلال سنوات قليلة. لقد أقمت حراسة خاصة بالأمير لها أعيُن في الداخل والخارج، مهمتها جمع كل معلومة ومعرفة كل أمر، ليس في المحروسة وحدها، وإنما في البلدان المجاورة؛ لذلك فأنا أعرف عنك كثيرًا، وتحديدًا مُنذ أن وصلت إلى مالطة، ثم نزولك بحلب، وقدومك إلى الشام، ورحلتك إلى زحلة وبعلبك وغيرهما من المدن والضواحي».

«تهنئتي لك، لكني مُسلم أوروبي أتى طالبًا الإسلام».

يبتسم «توماس» ويقول:

«مثلي تمامًا.. وهذا ما دعاني إلى أن أغير اسمي إلى إبراهيم أغا».

تحاول إغاظته، فتخبره ناصحًا أن يحذر غضب الأتراك وغدرهم، وتقول له: «ربما يقتلك محمد علي يومًا ما».

يرد الإغاظة بإغاظة أشد قائلًا:

«وقتها سأموت سعيدًا، وربما شهيدًا. لقد اهتديت إلى الحق، لم يكُن لي وطن فصار لي وطن، ولم يكُن لديَّ أهل فصار لدي أهل وزوجة وابنة، ثم مَن قال لك إن هذا يُخيفني؟! سأحكي لك كصديق».

يأخذ نفسًا عميقًا ثم يقول:

«بعد ستة أشهر من التحاقي بحراسة الأمير، ارتكبت خطأً ما؛ إذ سمعت صرخته من مخدعه ذات ليلة فاقتحمت غرفة نومه وهو يضاجع إحدى جواريه، وغضب مني بشدة، وكان قد أفرط في الشراب فأمر بقطع رأسي»

تُباغتك الدهشة أولًا لحكايته، وثانيًا لصراحته، وثالثًا لتلك البساطة التي يحكي بها وكأنكما صديقان مُنذ الصغر.

تستحثه أن يُكمل فيقول:

«استسلمت لمصيري المحتوم، لكن عندما قيَّدني مملوك صغير كان يتلقَّى مني الأوامر من خلف ظهري اشتعل الغضب داخلي، وشعرت بالإهانة، وانتابتني قوة خارقة لأكسر قيدي وأخنق بيدي ذلك المملوك المسكين، ثُم خطفت سيفه، وقاومت به الحرس الذين هاجموني، فلما تكاثروا حولي قفزت من شرفة القصر، وذبت في الظلام. واختبأت لدى امرأة جميلة كانت أرملة لأحد مماليك شيخ البلد، وعشت لديها شهرين وتزوجنا، ثُم بعثت برسالة إلى سيدة القلوب العظيمة أمينة هانم، حرم الباشا وأم طوسون، التي أصدرت عفوًا عني، وأعادتني، لكن في وظيفة أمير جُند الأمير طوسون. والآن أنا كل شيء لدى الأمير مثلما هو الأمر بالنسبة لأحمد بونابرته لدى الباشا الكبير».

يصمت قليلًا، وينظر إليك بتودد ويقول:

«وأنت؟ ها. قل لي، ما حكايتك؟ ما الذي رمى بك إلى هنا؟

ما الذي دفعك إلى أن تخاطر وتضع نفسك مواضع الشبهات وأنت ما زلت فتيًّا؟».

تنظر إليه ببرود وتُخبره بقصتك الملفقة بأنك أوروبي تبحث عن الحقيقة، وهداك الله للإسلام، فيشير عليك أن تحكي غيرها، فتقول له بعد تفكير سريع:

«سأقول لك بصراحة: إنني أبحث عن معابد المدينة القديمة المسماة البتراء. ساعدني في الوصول إليها، وسأساعدك فيما تريد».

يُفكر قليلًا، ويرمي «مستر باركر» بنظرة تشكك، ثُم يقترب منك أكثر، ويقول هامسًا:

«نريد أن نتفق. أنا مُخول للحديث معك باسم الباشا. ها. باشا مصر، هو يستعد للحرب في الحجاز ولا يقلقه سوى بريطانيا؛ فهو متخوف أن تُكرر محاولتها غزو مِصْر خلال قتاله في الحجاز، وهو يريد حلقة وصل مع بريطانيا للتفاهُم والتشاور، وقد اقترحتُ عليه أن تكون أنت حلقة الوصل. ما تريد أن تعرفه سنساعدك فيه، وإن أردت خطابات من الباشا لمن هم في طريق اكتشافاتك سنمدُّك بها، لكن عليك أن تُقنع مَن تعمل لحسابهم بعدم الاقتراب من مملكة الباشا».

«اسمع يا توماس...».

يقاطعك قائلًا:

«قل لي إبراهيم. أنا إبراهيم، وأنت إبراهيم».

تستجيب له وتقول:

«يا إبراهيم أغا، أنا واثق بأن بريطانيا لا تُدبر لغزو مِصْر، هي مُنشغلة بطريق الهند وبتحركات الفرنسيين. والبريطانيون يرون محمد علي رجلًا ذكيًّا، طموحًا، لا يكِنُّ كراهية للأوروبيين، لكنه ليس وحيدًا في حكم مِصْر، فلديه شركاء؛ فالمماليك ما زالوا يحملون السلاح، ويُخضعون أجزاء من البلاد لسلطانهم، والمشايخ يُمكنهم تحريك الناس وإثارتهم، وسبق أن عزلوا واليين. كذلك فإن الباشا الذي تدين له بالولاء ليس مُطلق اليد في المحروسة؛ فهو ـ مهما كان ـ مندوب للسلطان العثماني، وحوله أعيُن وجواسيس كُثر يراقبون ما يفعل. إنك أسكتلندي وتعرف جيدًا أن بريطانيا تُحب التعامل مع شخصٍ واحدٍ، أي: حاكم وحيد؛ لأن التفاوض مع رجل وحيد أفضل وأيسر من الاتفاق مع عدة أمراء».

يقوم «توماس» متظاهرًا بالترنح، ويودعك قائلًا:

«سيكون كذلك».

ثُم يُكرر:

«سيكون وحيدًا».

تهز رأسك وأنت تشعر بمزيجٍ من الاطمئنان والرضا، تُغادر وألف طارق يوقظ في داخلك خلايا الحذر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خوف الكاتب

بين الوحدة والخوف يتأرجح كاتبك المارّ بالأرض بعد قرنين من رحيلك. تُجبره العُزلة المفروضة اتقاءً للجائحة أن يجلس بالساعات يُقلِّب في حكايتك. يرى الأيام مُتشابهة ويتسرب إليه الملل كل بضعة أيام، مُتخيلًا أن كابوس الوباء الذي يعُم العالم كله لن ينقشع. يسأل نفسه إن كان كتابه عنك سيرى النور أم لا، لا يعرف يقينًا إن كانت الكُتب ستزهو في فاترينات العرض بالمكتبات مرة أخرى، أم ستنعس في أجهزة الحاسبات، ولا يعرف أيضًا إن كان الناس سيعودون للقراءة أم سينسونها، إن كانوا سيهتمون بالتعرُّف إلى سيرة غريبٍ عابرٍ تجوَّل في بلادهم، وصعدت روحه إلى السماء منها، أم أنهم سينشغلون بـ«كورونا» وما بعد «كورونا» عن كل شيء.. يُفكر في شعورك به.. كيف تراه؟ وماذا تحسبه؟ وهل تُرضيك كتابته عنك؟ هو يعرف أنك تعرف ما يفعله، ويستند إلى آية قُرآنية يقول معناها إن مَن يموت يُبصر كل غيب، لكنه بالطبع لا يعرف ما يدور بنفسك تجاهه.

يستقرئ الكاتب شخوصك، يستنطقهم، يطاردهم في كتابات أخرى. يبحث الكاتب عن أيِّ ذكر لـ«توماس كيث» الذي قابلك في الشام فلا يجد له أثرًا كأنَّه تبخَّر؛ فأنت الوحيد الذي ذكرته في كتابك، ولأنك لم تُشر إلى صفاته الجسمانية، فإن الكاتب اختار أن يرسم صفات خيالية له. بالطبع فإن رجلًا مثل «توماس» هو رجل شجاع، لا يهاب الموت، وهو بالضرورة قوي البنيان؛ لأن إعجاب «الأمير طوسون» به مُستمد من إعجابه بهيئته وقوته. كذلك فإن استنباط صفة الذكاء فيه أمر منطقي، فمَن يهرب من الأمير في فورة غضبه، وينجح في الاختفاء بعيدًا عن بطش رجاله؛ فهو بلا شك رجل ذكي.

يشعر كاتبك بالضيق، بالتعب من القراءة، بالسأم من الكتابة، يزفر هواءً مكبوتًا داخله، يفرقع أصابعه، ويهرب منك كل حين إلى جداره الافتراضي للتواصل مع الناس. تراه يهذر. بالطبع هو لا يعرف ما الضيق، وما التعب، وما السأم.. وبالطبع فهو أيضًا لا يعرف الخوف الحقيقي. ما يراه ويعيشه لا شيء ممَّا عايشته أنت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مذبحة مِصْر

يصدمك «مسيو باركر» بحكاية مجزرة قلعة القاهرة التي تخلص فيها «باشا مصر» من ألف مملوكي بدمٍ باردٍ في احتفالٍ صاخبٍ دعاهم خلاله إلى مأدبة طعام. وصلت الأنباء بأن قادة المماليك جميعًا لبوا دعوة كريمة من الوالي «محمد علي» للاحتفال معه بخروج ابنه «طوسون» على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل لاسترداد الحجاز من الوهابيين، وبعد دخولهم من بوابة القلعة أغلق الباب عليهم، وحوصروا في ممر ضيق ليصطادهم قناصة «الباشا»، ويتساقطوا رجلًا خلف آخر. قُطعت رؤوس كبار الأمراء وأطلق الرعاع والجنود ليكبسوا بيوتهم ويسلبوا نساءهم ما يرتدينه من ذهب وحرير، ويذبحون مَن أقعده المرض أو الخوف عن تلبية دعوة المقتلة. بالطبع لم يرحم رجال «الباشا» أحدًا ممَّن طلبوا الأمان أو استجاروا بالمشايخ، ولم ينجُ من المجزرة سوى «إبراهيم بك» شيخ البلد السابق الذي استراب في الدعوة، وشعر بالمكيدة فهرب إلى «دنقلا»، و«أمين بك» الذي صدق ولبى الدعوة، لكنه فور إغلاق بوابة القلعة قفز بحصانه من أعلى الجبل ليهبط سليمًا ويفر ويختفي تمامًا.

تتذكر الآن مقولة «توماس كيث» المودعة: إن «محمد علي باشا» سيصبح حاكمًا وحيدًا، وتعي أنه أدَّى دورًا ما في خطة المذبحة. يبدو الأسكتلندي الطامح واعيًا بما تؤول إليه الأمور في مِصْر، وفي الغالب فهو يعرف هدفه المباشر، وهو الصعود مع الأسرة الصاعدة في الشرق، أسرة «محمد علي».

إن كُل مَن في الشرق يعرف أن هذا الرجل الذي تتوق أنت للقائه يحسب خطواته جيدًا، ويسعى حثيثًا نحو المستقبل الذي يُرضي طموحه. تعلم مثل «باركر» أن الشام ـ آجلًا أو عاجلًا ـ ستسقط في حجر الرجل، وأنه بدأ رحلة التأسيس لإمبراطورية كبيرة.

يقول لك «حميد»: إن أعيُن «باشا مصر» مبثوثون في أنحاء دمشق؛ بحثًا عن «أمين بك»، الهارب من المذبحة، وإنهم رصدوا مكافأة قدرها خمسون دينارًا ذهبيًّا لمن يأتي برأسه. يُخبرك أنه يعرف ذلك الأمير الهارب من سنوات، ويعرف أن له ابن خالة يسكن بالقرب من الكرك، وأنه

لا بُدَّ قد لجأ إليه. يسألك الشامي الماكر أن تُمول رحلة بحثه عن الهارب، مقابل أن يقاسمك ما يفوز به من جائزة، فتُبدي لا مبالاة مُكررًا: إن المال مهما كان لا يساوي حياة إنسان لم يرتكب جريرة يستحق من أجلها الموت.

يقول لك «حميد» مبررًا:

«كل مملوك من المحروسة يستحق الموت؛ فهؤلاء خانوا أهل البلاد، ووالسوا مع بونابرت، وساموا الناس عسفًا».

«ليسوا كفة واحدة. في كل فئة هناك أوفياء وهناك ضالون، ومثلما وقف بعضهم مع الفرنسيين، فهناك من وقف ضدهم».

«الأيام دول، والقمم لا تدوم لأحد».

تهز رأسك موافقًا، وتقول:

«سبحان الله! وحده هو الباقي».

ينظر إليك «حميد» بتمعن، ويبتسم فتسأله:

«ماذا يدور في رأسك؟».

يُفكر الشاب قليلًا ويقول:

«هل تعرف؟ إنني أفكر أن أسافر إلى المحروسة، هناك في ظل الوالي القوي يُمكن جني أموال جيدة».

ترد ساخرًا:

«نِعْمَ العقل الراجح يا حميد.. أن تسعى إلى الخطر بقدميك، سيكون حتفك على يد والٍ داهية مثل محمد علي».

يرد والابتسامة لا تفارق وجهه:

«في الخطر تكمن الفرص. إنني أريد أن أقبض على المجرم الهارب من سيف الباشا لأنال الجائزة التي تُعجِّل بزواجي بليلى، بل وشراء نُزُلٍ خاص لي أخصصه لزائري الشام من الأوروبيين، وأهنأ بعدها إلى الأبد. تعالَ معي وتحمل تكلفة الرحلة وسأهديه إلى الوالي العظيم».

تُفكر للحظات قبل أن يستطرد:

«أنا أعرف أنك تبحث عن البتراء، لكن لا أعرف لماذا. لا يهمني أن أعرف إن كنت تاجر عاديات وباحث ذهب أو غير ذلك، وأنا أتصور أن أمين بك موجود في ذلك الشريط الشرقي الممتد بين عمان والكرك؛ حيث يُمكن أن تجد مدينتك التائهة. ما رأيك أن نتشارك في الرحلة، أرافقك وأحرسك ونخوض الرحلة معًا، كُلٌّ يبحث عن مبتغاه؟».

تنزعج؛ فكل ما يقوله يُثبت أنه يعرف عنك كثيرًا.

ينظر إليك بتركيز ويسألك:

«لماذا تبحث عن مدينة البتراء؟».

يتبادر إلى ذهنك رد سريع ناتج من قراءات واسعة حول احتمال وجود قبر «النبي هارون» قرب المدينة المفقودة، فتقول:

«فيها قبر النبي هارون، ولقد نذرت أن أذبح هناك نعجة وأوزع لحومها لله».

«تستطيع أن تقول هذا الهراء لمن يقابلك في الطريق، لكن لا تقله لي، وعلى أيِّ حال تجمعنا المصلحة المشتركة. سأقول لك شيئًا: إنني أعرف مكان قبر النبي هارون».

تُفكر قليلًا، وتهز رأسك دون أن تنطق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مـدن الكـرم

تتجهَّز لمسيرة المجد بحماسٍ وتدبيرٍ وثقةٍ بأن الله لا يُذهب كَدَّ إنسانٍ سُدًى. ترنو إلى تسجيل اسمك في سجلات خادميِ العلم. يدفع البريطانيون لك لقاء المعلومات والكشوفات، وأنت تدفع من أمنك وحياتك مقابل العلم الخالد. تؤجل مُهمتك الأساسية المرسل إليها بعد أن لاحت مُهمة أكثر تلاؤمًا مع طبيعتك. ترى أن الكشف ينفع الإنسانية، كُل الإنسانية، ويبقى في تاريخ العلم نُقطة ذهبية.. أما التجسس فمُهمة تفيد أناسًا وتضُر آخرين.

تقبل العرض المُقدم من «حميد» لمصاحبتك، فعلى الرغم من كل عيوبه، فإنه شخص مُخلص، وهو ما يصعب الوصول إلى أمثاله في هذه البلاد. بالطبع هو يحلُم بالمال من أجل فتاته التي لا تستطيع أنت تخيُّل جمالها الذي يُبهره، لكنه وفيٌّ ولا يبيع مَن وثق به، والدليل: عنايته بك لمَّا ضربتك الشمس الحارقة. تُدرك أن مُهمته شبه مُستحيلة، فكيف له، وهو الدليل المُسالم نحيل الجسم، التغلُّب على فارس مغوار خاض حروبًا، وهرب من مقتلة عظيمة مثل «أمين بك المملوكي»؟ وحتى لو تغلب عليه، فإنه لن يتمكن من الوصول به إلى «المحروسة»؛ لأن الرجل الفارَّ سيُفضل القتل مرات ومرات قبل أن يوضع مصيره بين يدي «الباشا» الذي لا يعرف الرحمة.

تُخططان معًا طريق الرحلة، لتبدأ من «عكَّا»، مدينة الصلابة والقوة، ثُم «السلط»، فـ«البلقاء»، وما بينهما حتى تصلا إلى الكرك، وهُناك في الجوار يُمكن البحث شرقًا في وادي موسى؛ حيث الخرائب القديمة. تُجهزان فرسين من سلالة ضعيفة كي لا يُصبحا مطمعًا لقُطاع الطرق أو أشقياء البدو. يُخبرك «حميد» أن فكرة نذر ذبح نعجة عند قبر «النبي هارون» فكرة جيدة؛ فتلك النعجة ستكون إذْنَ المرور إلى تلك المناطق المنسية. يجلب لك رفيقك ثيابًا بدوية يراها الأصلح لرحلة في الصحاري التي لم يطأها أحدٌ من قبلُ. تعدُّ أنت حاجاتك بعناية، تُحضر معك خطابات تأمين من باشا دمشق، وبطريرك الكاثوليك، و«مسيو باركر»، وبعض سادات دمشق من أصحاب القنصل الذين يمتون بصلات للمدن الواقعة في الطريق. تضع في حقيبتك «بسكويت» مملحًا، يصلح للبقاء عدة أسابيع، وقطعة أفيون، وبوصلة، ومرآة، وريشة كتابة، وحبرًا وورقًا، وخنجرًا معقوفًا، وسكينًا صغيرًا. ويصر «حميد» على إحضار بُندقية صغيرة، ونارجيلة علَّمَك كيف تدخن عليها التبغ التركي. وفي اللحظة الأخيرة يضع ضمن الرحال مصحفًا، مُقررًا في لحظة إيمانية غير معتادة منه أنه سيحميكما من العفاريت التي تملأ الخرائب القديمة التي تخطط لزيارتها. تقاوم نفسك الأمَّارة لأخذ عرق سوري معك، موقنًا بأنك لا تحتمل أيَّ غيابٍ عن الوعي هذه المرة.

تقرآن معًا الفاتحة، تتعاهدان على الوفاء كشقيقين، وتنطلقان قبل بزوغ ضوء الفجر بعد وداعٍ قصيرٍ لـ«مسيو باركر»، همس فيه في أذنك بألَّا تتورط في قتالٍ، وأن تبقى أنتَ القائد، ولا تسمع لرفيقك.

يحكي لك «حميد» في الطريق عن والده الحداد الذي مات قبل أن يراه، وعن أمه التي اختفت يومًا وهم صغار؛ هربًا من الفقر والحزن، وأشقائه الذين انطلق كل واحد منهم في ناحيةٍ؛ بحثًا عن الرزق، فلم تعد له سوى «ليلى» التي أحبها وخطبها له عمه. تبدو «ليلى» في مخيلتك فتاة ساحرة، ممتلئة قليلًا مثل معظم نساء الشرق، واسعة العينين، ترسم الحياء على وجهها البريء، وتحمل ابتسامة هادئة تليق بفتاة يُمكنها أن تسحر هذا الشاب المُجتهد. تتذكر «مارغريتا»، وتظن أنها تحمل الآن مسحة حُزن زرعتها الوحدة في روحها. تسأل نفسك إن كان صوابًا أن تتركها مكسورة القلب، وتُواصل طريقك وحيدًا بعد أن عقدت عليك آمال غدها! ولا تجيب كعادتك عن السؤال.

تفتنك بهجة الأشجار في بدايات صيف شامي، تُرفرف أوراقها كرايات نصر مُرحبة بفاتحين، تبدو الطُرق سهلة، منبسطة، ومأمونة بلا تعرجات أو منحدرات، ولا أكمنة تشي بخطرٍ ممَّا توقعته. يحكي «حميد» طوال الطريق حكايات كثيرة لا تُركز في أيها، وتُواصل السير حالمًا بإنجاز عملك.

تُشاهد بنايات غريبة، وأقوامًا مختلفين، وألوانًا من البيوت الصغيرة، وتمر بقُرى هادئة وأخرى صاخبة، وتبدو مهن الناس متباينة؛ فهؤلاء يزرعون الأرض، وأولئك يصنعون العطور، وآخرون يطحنون الغلال، وبعضهم يُحضرون الملح ويبيعونه للمارة. تُقابلك آثار لا حصرٍ لها، بعضها لبيوت من القرنين الماضيين، وبعضها الآخر خرائب مهجورة تُعشِّش فيها الحوام، وثمة شواهد قبور متنوعة بعضها يحمل الصليب فوقه. يُخبرك «حميد» بنبرة عالِم أن هذه القرى يعيش فيها أناس مختلطو العقائد، بعضهم نصارى، وبعضهم الآخر يهود، وهناك مَن لا يدينون بشيء. تسأله وأنت لا تصدقه:

«هل يحظون بالأمان؟».

يهز رأسه بالإيجاب، ثُم يُخبرك أن اليهود أنفسهم يتمتعون في بعض البلدان بميزات أكبر من الممنوحة للمسلمين، ثُم يُشير إلى أن تولي «سليمان باشا» ولاية عكا دفعه إلى الاستعانة بوزيرٍ من اليهود اسمه «حاييم فارحي» توسَّع في منح أذون التجارة لبني دينه؛ فأثْروا وبنَوا أعظم البنايات.

تبدو ملابس الناس متشابهة، ولا يمكن تفرقة المسلمين عن النصارى بحسب ما ترى أمامك، وكما تسمع من دليلك الثرثار. يُزيدك الرفيق إيضاحًا بأن أفراح المسلمين والنصارى سواء، وهم متشابهون في العادات، ونادرًا ما تحدث بينهما خصومات.

تسأله في استنكار:

«هل تريد أن تُخبرني أن الناس هنا متسامحون؟».

«نعم هم كذلك. سترى ما لا تتخيله لو ذهبت إلى الكرك؛ فهناك يعمِّد المسلمون أبناءهم في مغطس الكنيسة؛ اعتقادًا منهم أن ذلك يدفع عنهم الشر».

تتظاهر بالغضب وتُتمتم:

«الكفار».

لكن «حميد» يرُدك بحكمة قائلًا:

«ليسوا كفارًا. هي مجرد عادات، والجميع يعبد الله».

تشعر بأن الرجل يُنافقك، ربما ظنًّا منه أنك غير مسلم.

تمران بعمان، مدينة البؤس الحقيقي؛ إذ يبدو العبوس سمة غالبة على الجميع، ويُفسر لك دليلك الأمر بكثرة الضرائب المرسومة على الناس لصالح باشا دمشق، وتغادرها دون استراحة لتمر بين قُرى كثيرة حتى تصلا إلى «إربد» ليستضيفكما شيخ البطاينة، وهي قبيلة عربية مشهورة بالكرم، وعلى الرغم من فقر الرجل فإنه يُكرمكما بلا مقابلٍ، فيقدم لكما اللبن والكشك والبرغل في صحون، ثُم يُحضر نارجيلته مُجهزةً تمامًا لتدخنا تبغًا فاخرًا؛ ما يدفعك في الصباح إلى أن تمنح الأطفال بعض الشعير والبسكويت على سبيل المكافأة.

يُبهرك كرم العرب على الرغم من فقرهم، تشعر وكأنهم لا يخافون الحرمان، ويتميزون عن غيرهم من الأمم التي عايشتها بالترحيب بالغريب والإحسان إليه، ما لم يشكُّوا في عداوته.

تُعاين مُدنًا قديمة، وبلدانًا مُقدسة، ومساكن تضم خليطًا من الناس، وتجوب تل الخنزير، وعين فيران، وخان يوسف، وكوة القرد.. لتقابل وجوهًا شتى، وعقولًا متباينة، وأشجارًا ونباتاتٍ وصخورًا عجيبة الشكل. تكتشف تجمعًا يهوديًّا بجوار بحيرة طبرية، وتفهم من التحاور مع بعضهم أن أصولهم أوروبية من بولندا وإسبانيا، وقد قدموا زمن محاكم التفتيش. تسأل بعضهم عن أرض «يعقوب»، ثُم تسأل عن قبر «النبي هارون»، لكنهم يبدون متحفظين.

تواصلان السير من أرض إلى أخرى لتمرا بأماكن كثيرة تحوز أسماء الأنبياء، مثل: «أرض لوط»، و«بنات يعقوب» وغيرهما، ثُم تعبران «طبرية» لتصلا إلى «السلط»، وتحطا رحالكما في أطيب أرض تطؤها قدماك مُذ وصلت الشام. يتدافع الناس الذين لا تعرفهم عارضين استضافتك، ويتصايحون، وربما يتشاجرون، وكلٌّ منهم يحاول جذبك إلى بيته. يقول لك «حميد» بصوتٍ مسموعٍ: إن أهل «السلط» هم أكرم الناس وأطيبهم. تتذكر أنه قال لك العبارة نفسها في عدة مُدن، لكنك تشعر بالفعل من ملامح الناس بالكرم والمحبة غير المحدودة. والغريب أن ينتهي بكما الحال ضيفَيْنِ عند رجل مسيحي يُسمى «إسحاق الطيب»، والأغرب أن يقدم الرجل لكما أطباقًا من المنسف المكون من اللحم والسمن لتأكلا على الرغم من أن المسيحيين في فترة صيام الأربعين. يبدو الرجل سعيدًا بكما لدرجةٍ عجيبةٍ، ليمسح ظنونًا كاذبة عاشت في رأسك سنوات طويلة. تسأله إن كان يواجه أيَّ مشكلات كونه مسيحيًّا في هذا البلد، مُدعيًا أنك قادر على أن ترفع شكوى بما يضايقه إلى حضرة السلطان نفسه، فيفاجئك بقوله:

«هذه المدينة ليست خاضعة للسلطان».

ويؤمِّن «حميد» على عبارته قائلًا:

«نعم، أعرف أن السلط مستقلة تمامًا، وسبق أن حاول باشوات دمشق دخولها وحاصروها ثلاثة أشهر وفشلوا وغادروا».

ويستطرد «إسحاق الطيب» قائلًا:

«إن كثيرًا من البلدان هنا لا تعني السلطان؛ لأنها بلا خيرات سوى مزارع العنب والتفاح التي تراها، ومعظم الناس يعملون في جنيها وبيعها لتجار القدس مرتين كل عام».

تسأله عن أيِّ خرائب قديمة في المنطقة المحيطة، فيقول دون تردد:

«هناك منطقة تسمى خلدا، فيها بعض الخرائب القديمة، إن كنتما تهتمان بذلك سأدلكما على الطريق في الصباح».

يسأله «حميد»:

«وهل سمعت بقدوم فارس المماليك أمين بك؟ إنني أحمل له رسالة من ابن خاله».

يهز الرجل رأسه نافيًا.

وفي الصباح، يودعكما كما يليق بأميرين خرجا توًّا من قصص ألف ليلة وليلة، وترحلان إلى «خلدا»؛ حيث لا بشر، لدرجة صعودكما قلعة الجبل والمكوث ساعاتٍ طوالًا تقضيها أنت في الرسم، بينما يجلس «حميد» يُقرقر في نارجيلته دون أن يمر عليكما إنسان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قـرار «حميـد»

ترى ما لم تعرفه، قُرى منسية، وبلدانًا فرَّت من خرائط العلم، أناسًا بسطاء يبشّون لمرأى غريبٍ، ونساء فضوليات يسألن عمَّا تبيعانه؛ ظنًّا أنكما تاجران من دمشق. تنزلان خانًا قرب «السلط»، وتفرد خرائطك وتُعلِّم بريشتك على كل منطقة تزورها. يُخبرك أحدهم بوجود قبر «النبي أشعياء» في وادٍ قريب، فتشد رحالك إليه وحيدًا بعد مُمانعة من «حميد» الذي يُصيبه الضجر من الترحال دون أيِّ إشارةٍ إلى وجود فريسته.

يقوم القبر في وادٍ سحيق كمزارٍ لكثيرٍ من المسلمين والمسيحيين، وإلى جواره يتجمَّع بعض التجار ليبيعوا الصابون والزيوت، وفوق المدفن مُستطيل الشكل توجد قبة عالية، وفوقه أقمشة حريرية مختلفة الألوان، وفي البناء ذاته مُصلًّى صغير تفصله عن المدفن مفصلات خشبية متعامدة.

تواصل السير وحيدًا، وتسأل عن خرائب قديمة ليدلوك على خربة السوق، وهناك تقضي يومًا بلا طائل، فلا جديد سوى بعض المدافن القديمة. في الناحية الأخرى توجد خرائب أخرى تسمى خرائب أيوب، وهناك تجد ديرًا قديمًا يعيش فيه راهب كفيف وخادمه، يستضيفك ليلة ويُسقيك لبنًا، وتغادره في الصباح شاكرًا بعد محاورة لا تصل فيها إلى شيء، ثُم تعود إلى «حميد» في الخان، فيخبرك صاحب الخان أنه غادر وترك لك رسالة. تقرؤها لتجده يُخبرك بأنه سمع بقدوم أمير مملوكي وحيد إلى قرية الشوبك، وأنه سيُعاين الأمر؛ فربما يصل إلى مبتغاه ويفوز بجائزة باشا مصر.

تُقرر أن تسلك الطريق نفسه بجوار قلعة الشوبك؛ حيث يشير البعض إلى وجود قبر «النبي هارون» هناك. تضبط بوصلتك وتنطلق مارًّا بضفاف البحر الميت؛ حيث يستغله كثيرٌ من العرب كمشفى؛ إذ يعتقدون أن مياهه تُبرئ الأسقام. يقول لك أحد التجار هناك: إن الناحية الأخرى من البحر تزخر ببنايات وآثار قديمة عجيبة المنظر. تُفكر في العبور، لكنه يؤكد لك أن الأمر شديد الخطورة، وأنه يجب عليك استئجار رجال مُسلحين لحمايتك؛ حيث يكثر اللصوص الذين يفتكون بأيِّ مارٍّ. تُصدقه وتسأله المساعدة فيجلب لك أربعة رجال أشداء يطلب كل منهم خمس فضيات للعبور معك ومصاحبتك، وتوافق على مضضٍ. تنطلقون ولا تلبث أن تسمع صوت امرأة ترتدي عباءة سوداء تهرول خلفكم وتنادي بصوت مرتفع: «رشيد»، ويقف الجمع كله، فتنهر المرأة الرجال الأربعة وتتهمهم بالجنون وتعريض حياتهم للخطر نظير قروش معدودات. تلجمك المفاجأة؛ إذ يستجيبون لتحذيرها وينسحبون معتذرين.

تواصل السير وحيدًا نحو الشوبك، وهناك تُقيم في خان كبير يشاهد ساكنوه القلعة الكبيرة المقامة فوق ربوة عالية، تستريح نهارًا، وفي المساء يطرق بابك «حميد»، الذي يُفاجئك بسهولة وصوله إليك، ويخبرك أنه قرر إنهاء المهمة والعودة إلى حلب للزواج.

تستغرب، لكن سرعان ما تتذكر أن هذه البلاد لا يجب أن تَدهشك بعجائبها وتحولات أبنائها وتناقضاتهم. تسأل رفيقك الغريب عن قراره، فيحكي لك أنه وصل إلى «أمين بك» بالفعل، ولاحظ أنه لا يكترث لشيء، ثم دعاه البك إلى الغداء، وفوجئ به يعرض عليه نصف قيمة الجائزة المُقدرة من «الباشا» مقابل الصمت والعودة في هدوء من حيث أتى، فوجده حلًّا أكثر نُبلًا.

يُبلغك «حميد»، وهو جادٌّ، أنه على استعداد لأن يُعطيك كل ما أنفقته عليه من مال منذ بَدْء الرحلة. تُخبره أن ذلك لن يكون مُرضيًا، وأنك لا تريد أن تأخذ أموالك، لكن عليه أن يبقى معك حتى يوصلك إلى قبر «النبي هارون»، مثلما اتفقتما. يبدو وجهه راضيًا وهو يهز رأسه قائلًا:

«سأبقى معك حتى أوصلك إلى قبر سيدنا هارون، وبعدها أعود».

«اتفقنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النعجة الحامية

تبدآن الرحلة ظهرًا بعد أن يجلب لك «حميد» تذكرة عبورك عبر الصحاري. مَن يُصدق أن هذه النعجة اللطيفة ستفتح لك أبوابًا موصدة مُنذ مئات السنين؟ تأخذ أدواتك كاملة وبعض البسكويت والتمر وقِرَبًا من المياه تكفي أن تروي ظمأ التيه أيامًا في حرارة أغسطس الحارقة. تصعدان جبلًا جميلًا تتميَّز حجارته باللون الوردي، وتُصادفكما شجيرات قليلة للعرعر، وأعشاب صغيرة، وتلمحان خيامًا بعيدة في الوادي.

يبدو «حميد» هادئًا وديعًا، ليس كما كان عند اتفاقكما، وترسم علامات الرضا والحبور بصماتها على وجهه الغض الرائق. تهرب من عينيه نظرات التطفل السابقة ويسير بسَمْت فارسٍ نبيلٍ بعد أن حاز مالًا يفي له بتحقيق غرضه بالزواج من محبوبته. يُخبرك أن «النبي هارون» كان سندًا لشقيقه «النبي موسى»، وأنه يشعر الشعور ذاته تجاهك، فواجبه أن يقف إلى جوارك في مُهمتك، ليس من أجل شيء سوى أنكما بدأتما الطريق معًا. يُكرر لك أن وجهك حسنٌ عليه، وأنك رجل مبارك، ومَن يتبعك يفُز بما يطلب.

يُقابلكما فارس في ثياب بدوية بيضاء، ويُلقي عليكما السلام، فتخبرانه بقصدكما قبر «النبي هارون» لتقديم نَذْرٍ له.

يتفرَّس الرجل وجهك، ثم يعرض عليكما تمرات يحملها قبل أن يسألكما:

«هل سمعتما بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب؟».

تهز رأسك بالإيجاب، فيقول إنه أحد المؤمنين بدعوته، وإن تعاليم الوهابية تقوم على إلغاء جميع الوسائط بين الإنسان والله، وإنه لا نذر يُنذر لقبر يضُم ميتًا حتى لو كان ذلك الميت نبيًّا. ويحكي الرجل أنه سافر إلى الحجاز وقضى سنين متعلمًا كُتب الشيخ المُجدِّد ورسائله، والتقى تلامذته، وصار مبعوثهم إلى قبيلته. يُمارس «حميد» فِطْنَته الشامية في الصمت وتغيير الحديث، بينما تسحبك كلمات العابر الصحراوي، لتدلف إلى تفاصيل أكثر عمقًا عندما تسأله عن شعور الناس ورضاهم في الحجاز عن حُكم الوهابيين. يرد الرجل مؤكدًا أن معايش الناس تمضي كما كانت، لكن بعضهم يضيقون ذرعًا بتحريم الدخان، وبهدم قباب الصحابة وأمهات المسلمين بدعوى محاربة الشرك. يُتمم حديثه بأن إقامة قباب ومساجد للأولياء والصالحين بالفعل شِرْك بالله، والإسلام لا يقبل وسيطًا بين العبد وربه. يتهرب «حميد» من المناقشة قبل أن يدعو الله بصوتٍ عالٍ بأن يُولِّيَ مَن يُصلح.

تمضيان معًا في الطريق إلى قبر «النبي هارون»، لتسمع آراء «حميد» التي تُنبئ عن خبيرٍ فطِنٍ. يؤكد لك الرفيق الماكر أن عابر السبيل ليس سوى جاسوس لـ«محمد علي»، وهو يُحاول اختبار مَن يُصادفه في الطريق ليعرف حدود دعوة الوهابيين في أطراف الشام. يُقنعك تصوره، وتواصلان السير بتأنٍّ يلائم قيظ الصيف القاسي.

بين راحةٍ وراحةٍ، وشربة ماء وأخرى، يزحف المساء رويدًا رويدًا، ويقف «حميد» فوق قمة كاشفة ليُشير بسبابته إلى بناء صغير فوق ربوة مقابلة قائلًا:

«هذا هو قبر سيدنا هارون.. ما رأيك أن نذبح نعجتك، ونوقد نارًا لشيِّها ونطعم كل مَن يمُر؟».

تجيبه بإصرارٍ:

«لن نذبح النعجة إلا فوق القبر. لقد نذرت هذا، وسيكون ذلك في الصباح، وسنُطعم كثيرًا من زوار القبر».

«لا يوجد زوار، لا في الصباح ولا المساء».

ثُم يضيف:

«عمومًا، كما تشاء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المدينة المفقودة

تدوس في الأرض المنسية، تنسى القبر وساكنه، ونعجتك، ونذرك، وكل شيء، عندما تلمح بنايات حجرية منحوتة في الجبل المقابل قبل عشرات الأمتار من قبر «النبي هارون». ترقص البهجة في فؤادك، ويطل عليك وجه الجد «جيدوني» ضاحكًا مستبشرًا، وتسمع صوته يقرع أذنيك مُهنئًا بمجدٍ تليدٍ سيذكره التاريخ إلى الأبد. تمد الخُطى لتلمح «حميد» إلى جوارك مُجهدًا ومُترجلًا عن فرسه، فتطلب منه أن ينتظرك ومعه النعجة المنذورة للذبح أمام القبر، لتعبر وحيدًا تلالًا صغيرة تفصلك عن مدينة الأنباط المهجورة، التي لم تطأها قدم إنسان مُنذ قرون.

«اذبح النعجة وأوقد لها النار، وانتظرني هنا. سأوافيك غدًا».

تقول ذلك لـ«حميد»، ثم تقصد ما تراه من بنايات وردية غريبة الهيئة. تُخرج ريشتك وتجلس لترسم مخططًا عامًّا لمدينة أتعبت باحثي أوروبا ورحَّالتها. تكتب في رقاع تحملها أنك في يوم ٢٢ أغسطس ١٨١٢م وصلت إلى مبتغاك، البتراء، عاصمة المجد، والجمال، والغموض.

تتذكر أن آخر أوروبي زار هذه المدينة كان بصحبة جنود إحدى الحملات الصليبية قبل أكثر من خمسة قرون. تُحملق في البنايات الوردية، المحفورة في الجبال، لتجد إجابات شافية حول سؤال سبق أن باغتك عمَّا جعل البتراء تنال كل ذلك الإعجاب في العصر القديم، وكيف جعل منها الأنباط مركزًا حضاريًّا فائق الروعة.. تزورك دراسات درستها تفصيليًّا عن عظمة حضارة الأنباط وحنكتها ووسطيتها، وكيف صارت الجسر بين العصر الروماني وما بعده. تدور برأسك براعة بناة المدينة في الحفاظ على سمات ساحرة لعمائرهم التي تقف كأساطير مُنبعثة من أعماق التاريخ لتؤكد أن الإنسان القديم رسم بخطواته أدلة وجوده لتبقى إلى الأبد. تبدو العمائر متأثرة بالعمارتين المصرية القديمة، والإغريقية، مع سمات بيئية استغلت الطبيعة في صناعة سمات أكثر تميُّزًا.

يمتد الشارع الرئيس للمدينة طولًا بين صفي عمائر، وجبال منحوتة، وتماثيل ومقابر غريبة الشكل، وأعمدة جرانيتية، وأقواس حجرية، ونقوش غريبة، وبقايا جدران. تمضي وحيدًا ولا شيء آخر، لا تسمع سوى صوت الريح، ووقع أقدام حصانك المُتمهِّل على الحصى. تُبهرك الخزانة الكبرى المنحوتة في الصخر، المكونة من طابقين يرتفعان لنحو أربعين مترًا، وتُذكرك الأعمدة الخارجية المتصدرة لمدخل يُفضي إلى ثلاث حجرات واسعة بتيجانها البديعة ذات أعمدة المعابد الرومانية. يُدهشك مبنى الدير بطابقيه الكبيرين، وبتماثيله ذات الوجوه الغاضبة، وكأنه يحوي بشرًا أحياء قادمين من عصورٍ أخرى.

تستريح قليلًا، وتواصل تجوالك لتجد مسرحًا رومانيًّا على هيئة حلزون متدرج يُخبرك أنه ما مُحيت أمة عرفت الفن وأحبته. تفتنك المدرجات الصخرية، وتُقدر أن ذلك المسرح يتسع لنحو عشرة آلاف شخص،

ثم يقابلك المعبد الكبير بأعمدته المرتفعة وساحته الواسعة، وترسم المذبح الكبير، ومعبد الأُسود المجنحة، ومقابر الشهداء، والطريق الجنائزي.

تقضي ساعات في رصد كل بناء، رسم كل نقش، وصف كل طريق، تلامس بأصابعك الحجارة، وتحمل في جيبك حصى الأرض، وتُدَوِّن في كتابك ما تشعر به، ما تعرفه، ما تعتقده، وما تستخلصه. تلك مدينة جميلة، شديدة الروعة، تستحق كتابات وكتابات، تفتح أبوابها لحضارات العالم لتتعلم وتعرف، تؤكد أن الإنسان قادر على التطور والإبداع دومًا.

تبدو لك وجوه التماثيل غاضبة؛ لأنك كشفتها، كسرت عزلتها، اقتحمت مملكتها، وأزلت ستورًا تدثرت بها أزمنة طويلة. لو حكت لك عن حملات الغزاة، وفَزَع الناس، وتحوُّلات السياسة، وتبدُّلات العقائد، ومآسي البشر وملاحمهم، لو تكلمت عن زلازل مباغتة، وكوارث طبيعية دفعت جميع السكان يومًا إلى الفرار إلى الأبد لفهمت سِرَّ غضبها.

هُنا، في الجمال الساحر تعرف لماذا كتب رحالة أوروبا في عهد الإمارات الصليبية عن مدينة الأساطير، وتفهم ما الذي دفع اليهود إلى تقديسها والادعاء أنها تضم تابوت العهد؛ حيث وجدت ألواح «موسى»، وتعي ما الذي جعل سلطان مصر «الظاهر بيبرس» يزورها كلما عاد من حملة عسكرية خارج بلاده.

تتجاوز بخطواتك ما حدده لك معلموك. أنت أكبر من طموحاتهم، أسرع من أحلامهم. تفتح عينيك على ما لا يتصوره أحد، تُثبت لمن بعثوك أنك جديرٌ بحمل شرف الكشف والاجتهاد. تتذكر «روبنسون كروزو»، لكنك تنتهي إلى أن ما حققته أنت أعظم بكثيرٍ ممَّا حققه ذلك الرجل الخيالي.

تنعس قليلًا، لترى «جوزيف بانكس» وهو يُذكِّرك بأن العالم ينتظر ما ستحققه من أمجاد في النيجر. تقول له إنك لم تُهدر الوقت سُدًى، وإنك ستواصل طريقك لخدمة العلم والحضارة.

تُبصر كاتبك المستقبلي يجلس أمام جهاز ناطق تتحرك فيه صور البتراء، قبل أن تلمح بطرف عينٍ اسمك مكتوبًا بالعربية كمكتشِفٍ لها.

تستيقظ على جلبة قدوم «حميد» الذي استبطأك، يُقدم لك بعض اللحم المشوي، ويُهنئك على وصولك، ثم يسألك باهتمامٍ:

«تُرى أين يُمكن أن يكون ذلك الكنز المدفون؟».

ويُحملق بإعجابٍ في بنايات المدينة الساحرة، ثُم يصيح بك:

«سنُصبح أثرياء».

تُفهمه أن الكنز هو الوصول إلى المدينة، تحديد موقعها، وصف بناياتها، فيشيح بوجهه ويقول:

«أنتم مجانين، تعرِّضون حياتكم للخطر دون مقابل يستحق».

ويواصل حديثه قائلًا:

«هُنا سنفترق. لقد وفيت بعهدي معك، وسأعود إلى ليلاي ربما تكون هي زينة الحياة، سأعود إلى حلب. أنت تعرف مكاني، فمتى قدمت سأسعد بلقائك».

يعانقك كأخ، وتُبلل خديك قطرات قليلة من دموعه، ويأخذ حصانه مُغادرًا ليتركك وسط مملكتَك لتحتفل بكشفك وحيدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

الرحَّـالة

مدينة الألف عين

أخيرًا تحط بمدينة الكاتب البصَّاص الذي يتتبعك بعد مائتي عام. بعد أيام سعادة ورضا، وتهانٍ، ومراسلات شكر، وتحفيز، ومكافآت، وسياحة مُمتعة عبر سيناء، ومشاهدات عذبة لم تحلم بها يومًا، تصل إلى القاهرة.

تحط في مدينة المؤامرات، والأعيُن المتطفلة، والألباب الطموحة. هُنا مركز الجغرافيا، ومُنصهر التاريخ، ونقطة التحولات والتغيرات الحاسمة في الشرق. ما جاءها إنسان طموح وذكي إلا وباغتته أحلام القوة والتمدد، فَعَلَا وصعد حتى شاهق، ثُم تردى غير حذرٍ بعد أن تُسكره عظمة البلد التليد. تسكُنك مِصْرُ قبل أن تسكنَها، تحتضنك، وتُهدهِدك، ويتسرب هواؤها إلى رئتيك وأنت ما زلت على الحدود، تنتقيك لتُسعدك، وتدوس ثراها مبتهجًا، لتشعر كم هو مُطمئن أن يضم عظامك.

تقول يومًا لصديق النهايات «جيوفاني باتيستا بلزوني» حقيقة ما يعتمل في صدرك تجاه هذه الأرض. تُخبره صراحة بأنك تشعر أن نهايتك فيها، وأن ذلك لا يُقلقك. سيحمل نعشك رجال وصبية لا تعرفهم، وسيقرؤون عليك ما تيسر من القرآن، ويُحضرونك لسؤال المرور للضفة الأخرى. وسيزورك كُثر بعد ذلك، منهم كاتب المستقبل الساعي بك نحو مجده. سيقرأ لك الفاتحة بعد أن ينشر قصتك، ليقرأها أناس لا تعرفهم ولا يعرفونك يبحثون عن رواية فاتنة، لم تمر بهم من قبلُ. حكاية نابتة من أرض الواقع، ومتمددة بين ثنايا التاريخ.

تفتح عينيك على مآذن مُبهرة، وأسوار عالية، ووجوه غريبة تحمل طِيبةً ومَكْرًا وسخريةً، تبصر جلاليب زرقاء وبيضاء وعممًا، وعربات وبغالًا وحميرًا بألوانٍ شتى، وحوانيت متلاصقة، وبيوتًا متباينة الأشكال والألوان والمعمار. تبدو القاهرة جديرة بوصف المدينة الصاحية، التي لا تنام.

يستقبلك «مستر إدوارد ميست»، القنصل البريطاني، استقبالًا يليق بالعظماء. يبدو موظفًا تقليديًّا وهو يُشير إلى أنه مسؤول عن راحتك، وتوفير كل ما تحتاج إليه لرحلة النيجر التي لم تنسَها يومًا. يُهيئ لك دارًا جميلة بالأزبكية تتكون من طابقين. يبدو البناء مبهرًا مثل قصور ألف ليلة وليلة، يعمره أثاث فخم، وتُزينه مفارش رائعة، وتُميزه مشربيات مبهجة لغريب مثلك لممارسة هواية التلصص ومراقبة المارة ساعات وساعات. يمنحك «ميست» عبدًا أسود البشرة يُسمَّى «آدم»، وجارية حبشية اسمها «نور»، نحيلة القوام، طويلة البنيان، لها عينان ساهيتان، لكنها لا تكاد تنطق.

يقول لك العبد إنه من قبائل وثنية تعيش على نهر السوباط، وإنه اختُطف كآلاف مثله وهو صبي، وأرسل زمن الفرنسيين إلى مِصْر ليباع لأيٍّ من أمراء المماليك، لكنهم كانوا جميعًا هاربين فاشتراه قُنصل بريطانيا ليخدم ضيوفه، ثُم انتقلت ملكيته من قنصل إلى آخر حتى أهداه «ميست» له. يُخبرك أنه تعرَّض للإخصاء صغيرًا مع عشرات من أقرانه قُبَيل وصوله إلى «المحروسة».

يبدو المصريون أكثر تقبلًا للغرباء من غيرهم من شعوب الشرق؛ ففيهم على الرغم من أعيُنهم المتطفلة سماحة وطيبة ممتزجة بقليلٍ من الدهاء.. لكنهم، عامةً، يُحبون الثرثرة، ويجدون لذة ماتعة في نثر الحكايات، وتقديم الرواية وعكسها بتشويقٍ ظاهرٍ، يُبرر لك الآن اندفاع كاتب الرواية المستقبلي إلى كتابة حياتك.

يحكي لك تاجر غلال تلتقيه على المقهى التركي في الأزبكية ما جرى قبل أكثر من عام عندما فتك «الباشا» بالمماليك الملاعين، وصار كل مَن يعرف بمكمن أحدهم يُخبر به، ليؤخذ إلى القلعة، ثُم يُلقى برأسه مسلوخًا بعد قليل ليحمله الحراس وينصبوه على حربة ويطوفوا به الأسواق، محذرين من المصير ذاته لمن يعرف شيئًا عن مملوكي ويتركه دون إبلاغ. يحاول أن يُخيفك عندما يقول لك: إن بعضهم تنكروا في أزياء تجار غرباء، لكنهم وقعوا في النهاية وقُطعت رؤوسهم. تنظر إليه بثقة وتُخبره أنك صديق لكبار الأمراء، مكررًا اسم «إبراهيم أغا»، ليرتبك محدثك وجلًا، وهو لا يدري أن ذلك الأغا المرعب ليس سوى جندي أسكتلندي بائس، اسمه «توماس كيث» تركته حملة «فريزر» بعد هزيمتها لتتغيَّر حياته تمامًا!

يُخبرك التاجر بتلقائية مَن يعرفك بأن أسعار الغلال سترتفع بشكلٍ كبيرٍ، وأن هناك فرصة لجني مكاسب كبيرة. تسأله عن السبب، فيهمس لك بأن جماعةً من الإنجليز وصلوا إلى «المحروسة» قبل أيام وقدَّموا للباشا هدايا عظيمة تضمنت أواني ذهبية، وساعات لها رنات عجيبة، وببغاوات تُردد كلام البشر، واتفقوا معه على شراء كميات كبيرة من الغلال ونقلها لبلادهم.

يحكي لك حلَّاق بشارع المُعز أن الأنباء تأتي من الحجاز بوقوع هزائم لجيش «الأمير طوسون»، وأن «الباشا» سيخرج بنفسه على رأس جيش كبير للحرب هناك، ثُم يقول همسًا: «ستكون نهايته»، مُعبرًا عن نفورٍ وخوفٍ من الرجل الذي نفى «عمر مكرم»، الشيخ المحبوب لدى الناس، والذي سبق أن واجه مظالم المماليك والفرنسيين والولاة العثمانيين، ثُم جمع الناس حول «الباشا» ليقدموه على غيره واليًا للبلاد. تسأله بحيرة عمَّا منع ذلك الشيخ أن يدعو لنفسه ما دام يحظى بحب الناس إلى هذه الدرجة، فيقول لك شارحًا: «لأنه من أبناء البلد.. وأمور الحكم لا تصلح إلا للأتراك ومَن هم على شاكلتهم»، ثُم يُخبرك بمَثَل شعبي غريب يتناقله أهل البلد يقول: «جور الترك ولا عدل العرب».

تتعرَّف إلى أحد ناسخي الكُتب في شارع الأزهر، وتجد لديه مخطوطات رائعة تضم تاريخ الخلفاء، والشفا، وإخوان الصفا، والمنقذ من الضلال، وحي بن يقظان، فتطلب منه نسخها بأيِّ ثمنٍ، وتتفق مع عامل بريد القنصل أن يمُر عليك مرتين كل أسبوع ليأخذ ما تنسخه من كُتب، ليُرسله إلى بريطانيا، مع رسائلك، وما تنتهي من ترجمته من كتاب ألف ليلة وليلة.

بعد أيام قليلة من استقرارك في «المحروسة» يصلك مرسال غريب الهيئة، يُنبئك أن «توماس كيث»، الشهير بـ«إبراهيم أغا»، ينتظرك في الغد في قصره بشبرا، تتذكر لقاءكما في دمشق، وينتابك قليل من القلق، لكنك تعلم بصدقٍ أن «الباشا»

ورجاله يعملون ألف حساب وحساب لبريطانيا ورجالها، وأنهم حريصون على عدم التورط فيما يُثير غضبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجـلاء

«الناس على دين ملوكهم».. تتذكَّر حكمة العرب الأشهر وأنت ترى رجال «محمد علي باشا» منغمسين في النعيم، يتلذذون بكل شيء. ليس هناك مَن يهتم منهم أن يلتفت إلى جوعى الطرقات والمتسولين الذين يقابلونك كل يوم في سيرك طالبين الإحسان. يُبهرك جمال بيت «إبراهيم أغا»، الذي يزدان بتحف وشمعدانات وقناديل وسجاجيد من كل شكلٍ ولونٍ. يستقبلك بهدوء رجل الأمن الغامض الذي يُحيط بكل شيء علمًا. تبدو عيناه مُحملتين بحكايات شتَّى ومشاهد دامية. تعرف من القنصل البريطاني أن «إبراهيم أغا» شخص مُخلص تمامًا للباشا وابنه، وأنه كثيرًا ما يعتمد عليه في العمليات الدامية. هو الرجل الثالث كما يقولون بعد «الكتخدا محمد لاظ أوغلي»، الذي يوصف بأنه الذراع اليمنى للباشا، وصديقه الأقرب، ويقال: إنه في يوم المقتلة العظيمة كان هو واضع خطة الغدر بـ«شاهين بك» ورجاله، والمشرف على تنفيذها.

يُقدمك «إبراهيم أغا» إلى زوجته «إحسان هانم»، ذات الطلة المُبهجة والجمال الشرقي الرقيق، تبدو أنوثتها طاغية على الرغم من أن عمرها قد يتجاوز الأربعين، تُرحِّب بك في حفاوة، وهو ما يندر في هذه البلاد؛ إذ يعتبر الناسُ نساءهم حريمًا يحرُم ظهورهن إلا للضرورة القصوى. يُخبرها «إبراهيم أغا» باسمك الجديد «إبراهيم الشامي»، مقدمًا إياك كتاجرٍ كبيرٍ لَفَّ البلدان لَفًّا.

تجلسان وحيدين في غرفة فسيحة تستند إلى جدرانها آرائك ناعمة، وتتوسطها أطباق فضية ممتلئة بالتين والعنب، قبل أن يطرق الباب طارق، يُقدِّم القهوة الساخنة ذات الرائحة الخلابة. ويُخبرك مضيفك أن كبار التجار المصريين أدخلوا قبل شهور البُن الإفرنجي بعد أن اعتاد الناس سنوات طويلة البن اليمني، وأن كل مَن تذوقه استحسنه كثيرًا. تسأله إن كان يعرف الفارق بين النوعين، فيُخبرك بأن حبات البن الإفرنجي خضراء وكبيرة، وأنه يتوقع أن تُحدث تغييرًا كبيرًا في التجارة في «المحروسة». تسأله عن سعر النوع الجديد فيقول لك: «أربع وعشرون فرانسة للقنطار»، ثُم يُتبع رده قائلًا: «سيرخص فيما بعدُ؛ فمع اعتياد الناس إياه سيكثر مَن يجلبونه ويُباع بسعرٍ أدنى».

يُنبئك أن المصريين يُحبون القهوة كثيرًا، ولا يُمكن لأحدٍ منهم أن يتخلى عن شيئين، هما: القهوة والدخان، فكلاهما يطلبه الجميع، أغنياء وفقراء، حرفيون وتجار؛ لأن هناك نوعيات رخيصة وأخرى غالية.

يتحدث معك في موضوعات شتى، يدلف بك إلى أمور حياتية، ما أعجبك في البلد، وما لم يعجبك. يسألك عن رحلاتك واكتشافاتك، ومهمتك في البحث عن المدينة المفقودة، وتصوراتك للمحروسة، ثُم يصل بك إلى آرائك في «الباشا» وتوقعاتك لمستقبله.

تومض عيناه بسحرٍ عجيبٍ، وهو يقول لك: إن «الباشا» لا يتشكك في نياتك، ويعرف أنك مُحب ومخلص ومسالم، وهو على استعداد كامل لأن يساعدك في

كشوفاتك وبحوثك بشرط أن تضمن له السلام مع بريطانيا، ويقول لك بنبرة تنَمُّ عن احترامٍ:

«هو يعلم قدرك لدى البريطانيين، وقدرتك على التواصل معهم لمد جسر محبة وسلام، وأنت تعرف أنه يواجه أعداءً كُثرًا، شرقًا وغربًا، ولا يُريد فتح جبهة عداء مع دولة يحترمها مثل بريطانيا.

ترشف من قهوتك، وتقول في ثقة:

«قلت لك من قبل: إن بريطانيا لا ترى باشا مصر عدوًّا لها، ولا أتصور أن ما قام به فريزر، قبل سنوات، يُمكن أن يتكرر، خاصةً أنه لا يوجد مَن يستنجد بالبريطانيين من أمراء المماليك.. وإبراهيم بك، آخر الأمراء، شريد في أقاصي الصعيد، وليس لديه سوى أربعة أو خمسة أنفار يفرون معه من بلدةٍ إلى أخرى».

يهز رأسه مكررًا:

«صحيح.. صحيح».

فتواصل قائلًا:

«لكن ربما يُضايق الإنجليز ـ وأنت أدرى بهم ـ أن يُحيط الباشا نفسه بفرنسيين دهاة يرسمون له خطواته ويوجهون سياساته».

يضحك «إبراهيم أغا» مُقهقهًا ويقول:

«تُعجبني صراحتك سيد إبراهيم، لكن دعني أوضح لك أمرًا: الباشا لا يستعين بفرنسيين فقط، وإنما بكل إنسان متميز، بكل ماهر ومُتقن من أيِّ مكان. صحيحٌ هناك فرنسيون حول الباشا، مثل سليمان باشا الفرنساوي، وطبيبه، وبعض العلماء، لكن هناك أيضًا إنجليزيين، وهناك أتراكًا، ومصريين، وشاميين، وعربان.. والآن أنا أعرض عليك العمل للباشا، وأنت إنجليزي سويسري وشامي في آنٍ واحدٍ! لقد قلت لك من قبل، وأنا إنجليزي: الباشا هو المستقبل، ولم يمضِ وقت طويل على حديثنا السابق، وصار المماليك فعلًا ماضيًا، أنا أعرف ما أقوله جيدًا».

تعلق عليه: «أسكتلندي وليس إنجليزيًّا.. أنت تعرف الفارق يا عزيزي».

يهز رأسه مُتمتمًا:

«نعم أتذكر، الأسكتلندي لا يُمكن أن يصبح إنجليزيًّا».

تعتدل في جلستك، وتتذكر أن عليك مُهمة لم يعرفها هؤلاء بعدُ، وأن عليك إنجازها، وهي لا تتعارض مع طموحات الرجل الداهية.

يواصل «إبراهيم أغا» محاولات تجنيده قائلًا:

«اسمع سيد إبراهيم، لم يعد هناك أيُّ خصم لمحمد علي في حكم مِصْر، ولا حتى السلطان العثماني نفسه. أنا أعرف ما أقوله لك. لقد كان آخر مَن يمثلون خطرًا على الباشا رجلين، الأول: قائد عثماني يُدعى أحمد لاظ، قَدِمَ إلى البلاد معه، وساعده في

القضاء على خصومه؛ فولاه مدينة قنا، والثاني: أحد الأتراك الموضوعين عينًا عليه، واسمه لطيف باشا. أما الأول فقد حرَّض قادة الجيش عند تأخر أرزاقهم على الباشا ودعاهم إلى التمرُّد عليه، وقت توجُّه العساكر إلى الحجاز، ولاطفه عظيمنا وهادنه حتى استطاع تدبير أرزاق القادة، ثُم دعاه إلى التشاور، واتفق مع الكتخدا ومعي على أن نُخلصه منه، وعندما جاء بجنوده أدخل للباشا للعشاء، وقبضت على حرسه وحبستهم، ثُم احتد عليه الباشا في الكلام، فدخلت أنا والكتخدا وأخذناه ليجلس معنا حتى يهدأ الباشا، وبعد ساعات من الضحك والمسامرة أخبرناه بحكم إعدامه، وسألني بمَ أنصحه، فقلت له: أوصني بأي شيء، فقال لي: غسِّلوني وصلوا عليَّ قبل دفني، فوعدته، وبالفعل قطعنا رأسه وغسلناه وصلينا عليه.

أما الثاني فقد أخطأ خطأً كبيرًا؛ إذ وصلت البشرى بنجاح مولاي الأمير طوسون في استرداد مكَّة والمدينة من أيدي الوهابيين، فسأل الباشا خاصته عمَّن يرغب في توصيل البشرى ومفاتيح المدينتين إلى السلطان العثماني، فبادر القائد لطيف لذلك، وهناك في الأستانة خلعوا عليه الرُّتب ومنحوه لقب باشا مثل عظيمنا، ولما عاد أخبرتنا أعيُننا أنه يُحقر من أمر الكبير ويقول لحراسه: هو باشا وأنا باشا مثله.. والسلطان وعدني بالخير. فقررنا محاكمته، لكنَّ والينا العظيم رفض أن يقرر هو أمره وترك لنا الحرية في ذلك، وبعد أن سافر إلى الحجاز، اتفقنا أنا والكتخدا ومحمد بك الدفتردار على إعدامه، ويبدو أن أحدًا أخبره، فاختبأ عدة أيام، لكن أعيُننا التي تصل إلى كل إنسان حددت مخبأه وحاصرناه وقبضنا عليه، ثُم قطعنا رأسه».

تستبشع الحكي، وتشعر بنبرة تهديد مبطنة يبعث بها مُحدثك إليك، لكنك تعرف أنك لست جاسوسًا، ولا يمكن أن تكون حلقة وصل في علاقات كبرى، كما أن روحك ترفض سمات الغدر والقتل والانتقام السائدة في قصور الحكام، وتخشى دومًا أن يلوثك دم إنسان. تنظر باشمئزاز إلى كف الأسكتلندي المُتَتْرَك، الخاضع لـ«محمد علي» وتتخيل الدماء تُغرقها، ثُم تسأله في لحظة شجاعة حقيقية:

«هل شاركت في قتل أمراء المماليك؟ وهل كُنت سعيدًا بالغدر بضيوفٍ جاؤوا للتهنئة والتودد وقطع رؤوسهم ونهب بيوتهم؟».

يبتسم دون طرفة عين، ويُجيب:

«بصراحة شديدة، نعم.. أنت لا تفهم يا سيد إبراهيم.. هذا هو القانون هُنا.. الغدر أساس الملك، ومَن لا يَغدِر يُغدَر به. المماليك كانوا أشد غدرًا ممَّا تتخيل، وكثيرًا ما تجد فيهم أميرًا قتل سيده، وهم لاقوا ما لاقوه لأنهم سفكوا الدماء وظلموا وغدروا، فكان جزاء الله من جنس أعمالهم. هناك يا صاحبي مَثَل يردده الناس هنا يقول: دار الظالم خراب ولو بعد حين. وهذا ما حصل».

«أليس غريبًا أن يأمنوا للباشا وهم معتادون الغدر؟».

«بلى غريب، لكنَّ الله يُعمي بصائر من كُتبت نهايتهم. اسمع، سأقول لك شيئًا مضحكًا: بعد يوم المقتلة وعلى مدى شهور طويلة كُنا نشتري أيَّ مملوكي يشي به الناس بثلاث حفنات من الذرة وأوقيتين من القهوة، وكان المماليك في كل مكان

مذعورين. وبدأ نبهاؤهم في التنكر والهرب إلى الجنوب، واجتمع رهط منهم في جبل بعيد في مدينة اسمها إسنا، ولما ولّى الباشا ابنه إبراهيم حكم الصعيد ومرَّ بإسنا، بعث لهم يدعوهم إلى وليمة كبيرة وصلح تام، والغريب في الأمر أنهم نزلوا من الجبل وذهب إليه أكثر من مائة مملوكي، ومعهم بعض الهدايا، آملين في الحصول على عفو نهائي، لكنهم ما إن وصلوا إلى دار القائد حتى أحيط بهم وانهال عليهم الرصاص من كل جانب، ولم يعفُ إبراهيم عن أيٍّ مسترحم سوى مملوكين فرنسيين كانا قد تخلفا عن جيش نابليون وسكنا مِصْر؛ وذلك لوساطة طبيبه الفرنسي».

تصمت قليلًا، وتخبر رجل الأمن المخيف أنك لا تحتمل مثل هذه الحكايات، وأنك ترجوه أن يقبل اعتذارك عن عدم التوسُّط لدى بريطانيا، فأنت أقل من ذلك، وتشير إلى أن هناك قنصلًا رسميًّا يمكنه أن يؤدِّي هذا الدور.

يرد عليك بأن القنصل الرسمي شخص اعتيادي، بارد، ضعيف التأثير، ويُسر إليك أن بريطانيا يمكن أن تُحسِّن علاقتها بـ«المحروسة» لو عيَّنت عالم آثار شابًّا وطموحًا سبق أن التقاه «الباشا»، اسمه «هنري صولت»، قنصلًا مكانه. يبدو مُحدثك ماكينة معلومات وعلاقات وأفكار وخطط لا يمكن الإلمام بجميع تفاصيلها.

يُطرَق الباب، لتدخل فتاة رشيقة القوام، كحيلة العينين، تتدلى ضفيرتاها على الجانبين، ترتدي عباءة كرزية اللون، قصيرة الكُمَّين، ويبدو جِيدها عاريًا كلوح رخام مصمت يلمع على إحدى ضفتي نهر التيمس، تحمل إبريقًا جديدًا من القهوة، يُقدمها لك قائلًا: «نجلاء، شقيقة زوجتي إحسان هانم.. علم وجمال ورقة».. تهز رأسها في أدب مصطنع وتُغادر، فيقول لك «إبراهيم أغا»:

«اسمع يا سيد إبراهيم، لقد أحببتك.. أولًا: لأننا أوروبيون في الأصل، وثانيًا: لأننا صرنا مُسلمين، والإسلام يفرض أخوة بيننا، وثالثًا، وهذا هو الأهم: لأنك رجل صريح وطيب ويُمكن الاعتماد عليك، سأزوجك بنجلاء، وستكون لك سندًا ودفئًا وحنانًا. لقد تزوجَتْ من قبل مرتين، لكنَّ حظها شديد التعاسة؛ فالأول كان تاجر بُن سكندريًّا مات بالطاعون قبل أربع سنوات، والثاني كان جنديًّا بجيش طوسون، وذبحه الوهابيون الكفار في العام الماضي. ولقد انتهت عدتها قبل أيام، وكلي أمل أن يعجبك اختياري».

يأسرك بعرضه، يُربك حساباتك، يُنهي عزلتك، ويكسر حوائط الحيطة لديك.. هل يريد تعريتك تمامًا؟ هل يسعى إلى توريطك وتقييد حركتك؟ هل يعمل على إخضاعك التامّ لرقابته ورقابة أسياده؟ تتملص قائلًا:

«لكني رجل مثقل بالأعباء، كثير التنقل، لا أبقى في مكان ولديَّ جارية، و...».

يقاطعك مضيفك:

«لقد أخبرتها بذلك كله ووافقت، وستكون لك أنيسةً وودودًا وطائعة.. وإن لم ترق لك طَلِّقها وقتما شئت».

«سأفكر بالأمر.. أعدك».

لكنه يُكرر ضغوطه بإلحاحٍ شديدٍ قائلًا:

«لأجلي لا تفكر في الأمر. لو فكرت لترددت، ولو ترددت لخسرت امرأة شهية جميلة ناضجة ستُقربنا أكثر».

ثم يقول:

«اسمع يا أخي العزيز. ستراها مرة أخرى قريبًا. سأنتظر منك زيارة الجمعة المقبل؛ فلديَّ وليمة لبعض القادة وزوجاتهم، وسيكون حضرة الكتخدا حاضرًا. وبالطبع فأنت تعلم أنه رجل عظيم الشأن، موصول بالباشا وصديق مقرب، سأعرِّفك إليه، وسيفتح لك كل الأبواب الموصدة، سنمنحك فرمانات رسمية بتأمينك أينما ذهبت».

تسرح مفكرًا وأنت ترشف رشفة تلذذ بالقهوة الإفرنجية المصبوبة بيد «نجلاء»، وتبتسم في حيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنـز زائـف

يرميك الكاتب، قصَّاص أثرك، في قصة حُب جديدة، ربما لم تمر في تصورك، يحشرها حشرًا في سيرتك. يُفبرك، بلغة الصحافة التي يعمل فيها، حكاية «نجلاء»، يتلاعب بك، يتصوَّر ذلك المُزيِّف أن إضافة قصة غرام جديدة ضرورة ـ تفرضها الدراما ـ لازمة من لوازم روايات العصر التي يحبها الشباب، أكثر مَن يقرؤون في بلاد العرب. يُلمّح الكاتب الأربعيني الذي عاش زمن الجائحة الأغرب في العالم إلى أن نظرة اهتمام رانت على عينيك عندما عرض عليك الرجل الغامض عرضه، يتصوَّر أنك تذكرت عيني الفتاة المترملة مرتين، وهي ترمي بنظرات إغراء مستترة لك. يُغريك بها. يقول كاتبك لك مثلما يقول دومًا لأصدقائه: إن العالم ليس عالمًا من غير نساء. يُكرر مقولة شاعره المفضل «محمود درويش» بأن تعيش الحياة في امرأة تُحبك. يكتب مرارًا أنه ليس أجمل من قلب امرأة مُحبة، ليس أدفأ من حِضنها، ليس أطيب من فرحتها، ليس أرقّ من نظراتها المحفزة والداعمة في أوقات الشدائد. يرسم الكاتب عينين ساحرتين تحملان حدائق من البهجة والسرور كفيلتين بأن تجعلا رأسك يدور كطاحونة، وتُفكر مرارًا وتكرارًا، تقول لنفسك: إن كلام «إبراهيم أغا» أو «توماس كيث»، أيًّا ما كان اسمه، يروقك؛ فأنت في حاجة بالفعل إلى امرأة، امرأة يافعة نضرة، تؤنس وحدتك، ليس من أجل الجنس، ولكن من أجل الألفة، من أجل التشارك، والتشاور، والتعايش الحقيقي في هذه البلاد التي تفتح لك ذراعيها برضا وترحاب شديدين. تناجي روحك بأنك وحيد كمسلَّة غُرست في أرض غادرتها الحضارة، ينقصك شيء ما. يتوهَّج بداخلك جوع غريب.

تقرأ في قصص ألف ليلة وليلة حكاية مغامر حلم يومًا ما بكنز مُخبَّأ في بلاد بعيدة، فأعد العدة، وسافر سعيًا إلى الكنز، ثُم قابل في طريقه أناسًا متنوعين، ومر بتجارب وعايش خبرات جعلته مثل مَن عاش ألف عام، ثُم وصل في النهاية إلى الكنز، فلم يشعر بسعادة الوصول، واكتشف أن الكنز الحقيقي كان فيمن عرفهم ورافقهم. تُسائل ذاتك ولا تطلب إجابة إن كانت «نجلاء» هي كنز رحلتك، تتذكر «مارغريتا» بضحكها، بدمعها، بصخبها، برقتها، بتطفلها، بسكونها، بغيرتها، ببرودها، بجموحها، ببراءتها.. بكل ما تمتزج به المشاعر الإنسانية من جنون. تشتاق إليها، تشتاق إليها، تشتاق إليها، وتُفكر إن كان يُمكن لامرأةٍ في الدنيا أن تعوضها!

تتفتت الفكرة في رأسك عندما تتذكر أنها من طرف الرجل الدامي الذي قتل ويقتل وسيقتل؛ إرضاءً لسيده الذي يعد ولا يفي، ويعاهد ويغدر. تتشوه الصورة الجميلة للمرأة الحانية عندما يفترض عقلك الباطن أنها من الجائز أن تكون مجرد عين عليك، تراقب أفعالك وأحوالك. تتبدد معاني الحب تحت مقصلة العَسَس. تشعر الآن بالكاتب الكهل وهو يسخر من حيرتك، ترجوه كما ألقى بها في طريقك أن يُنجيك منها؛ فالحب لم يُكْتَب على أصحاب المهامّ الأعظم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خـوارق

تعتاد الحكايات المُدهشة التي يرويها لك العبد «آدم» عن أناس تحكمهم الخرافة وتُسيرهم البركة، يروي لك المخصي المخلص عن شيخة سمراء يتحدَّث عنها الناس، ويعتبرونها صاحبة كرامات، كانت تذهب إلى بيوت الأمراء وتدخل على نسائهم، وتُخبرهم بما يحدث لهم، وقيل: إنها سبق أن تنبأت لزوجة «شاهين بك» بنهايته الدامية. ويبدو أن «الباشا» الكبير سمع عنها فدعاها إلى زيارة زوجته «أمينة هانم»، ففعلت، لكن من بعدها لم يسمح لها أن تخرج من بيتها مرة أخرى. ويقال: إنها أخبرت السيدة الكبيرة بأمور مفجعة تحدث لأبنائها خلال حياتها.

تكتب لـ«جوزيف بانكس»، في خطابٍ طويلٍ، أن المصريين مولعون بالخرافات، وأن لديهم اعتقادًا شديدًا في الخوارق، وكثيرًا ما يُرجعون كثيرًا من الظواهر الكونية للجانّ. يُكررون على الدوام عبارة «دستور يا أسيادنا»، ويتصورون أن العفاريت يُمكن أن تحل في أجسام الناس؛ لذا فإن كثيرًا من الأمراض تُشخَّص باعتبارها مَسًّا من الشياطين، وفي تلك الحالة، فإن الناس يلجؤون إلى أدعياء كُثر يقدمون أنفسهم باعتبارهم شيوخًا، ويتلون عبارات رقية وأذكارًا غير واضحة لصرف الأرواح الشريرة. يُخبرك «آدم» عن سوق بشارع الصليبة أمام بناء قديم يُعرف بالحوض المرصود يُسميه العامة «سوق الجن»، ويلجأ بعض الباعة المحتالين إلى بيع الفاكهة والبخور والعطور في هذه السوق، مستثمرين اعتقادًا زائفًا بأن أيَّ سلعة تُباع في هذه السوق تتحوَّل إلى ذهب بعد عدة ليالٍ.

وتقول لك الجارية «نور»: إن الجن يتشكَّل بأشكال القطط والكلاب، وإنها سبق أن رأت بعض القطط السوداء ترميها بشررٍ مخيفٍ من أعينها. تقول أيضًا: إن العفاريت تسكن في الخرائب والحمَّامات والأماكن المهجورة. وهو ما يدفعها إلى أن ترفض الاستحمام ليلًا؛ خوفًا من تلبسهم إياها. تسألها في سخرية عن الكيفية التي يُمكن أن يتلبس بها الجان النساء، فتضحك في حياءٍ مصطنعٍ، وتُشير إلى أسفل بطنها وتهمس: «بالطريقة نفسها التي يُحبِل الرجلُ بها المرأة».

تكتب لـ«بانكس» أيضًا أن المصريين من أكثر الشعوب استعمالًا للأحجبة والتمائم، وأنهم يُخبئون في سراويلهم وجلابيبهم قطع قماش ملفوفة على مكاتيب تحتوي في الغالب على كلمات غير مفهومة يتصوَّرون أنها يُمكن أن تجلب لهم السعادة، أو تمنع عنهم الشقاء. تتذكر كيف رأيت في أكثر من بيت أعواد الند معلقة فوق الأبواب من الداخل وكأنها تطرد الشياطين، كما لا يفارق ناظريك ما تراه لدى معظم النساء معلقًا في رقابهن من خرزات وجعارين زرقاء لحمايتهن.

تلفُّ الأسواق، وتحضُر الموالد، وتشارك في حلقات الذكر، لتخلص إلى اقتناع الناس بقداسة أولياء الله الصالحين، لدرجة يظنون معها أن الله يُنجيهم ويسترهم ببركتهم، على الرغم من موتهم من عشرات السنين. تسمع يومًا في مشهد «الحسين» الكبير سيدة عجوزًا تناجي الله بصوتٍ مسموعٍ قائلة: «يا رب.. اقبل زيارتي وحقق مطلبي واجعلني أبلغ مرامي، أسوق إليك حبيبك الحسين، والسيدة

زينب، والإمام الشافعي، والسلطان أبا السعود».. تعرف أن مثلها كثر يعتقدون أن الصالحين وسطاء بينهم وبين الخالق. تُحاور أكثر من رجل يوحي مظهره بقدرٍ من العلم، مستغربًا ما يجري، فيهز رأسه في تهوين ويقول: إن القرآن نفسه يحفظ للأولياء الصالحين قدرهم.

تندهش أن يختلط في هذه البلاد النقاء بالخبث، لدرجة أن تضم الموالد وحلقات الذكر الباحثين عن المتعة من الرجال والنساء؛ إذ تحتشد بعض النسوة المطلقات مع الدراويش في صفوف عشوائية ليندس بينهم رجال وصبية يتدافعون يمينًا ويسارًا لتحتك الأجساد في عفوية كاذبة يَفُوز فيها الراغبون بلحظات تلذذٍ حقيقيةٍ.

يُعرِّفك القنصل إلى رجل عالم يُقال له «عبد الرحمن الجبرتي»، لديه حانوت لنسخ الكتب يبدو مختلفًا عن معظم الناس، بما يحمله من علوم واسعة، ويعرف أن نصف معتقدات الناس لا علاقة لها بالدين أو العلم. يُصارحك الرجل يومًا بأن الأتراك الظالمين يروِّجون لكل خرافة ليشغلوا الناس عن مظالمهم. يبدو الرجل كثير التلميح لمظالم «الباشا» ورجاله، مع إيمانه أنه جزاء إلهي لنفاق الناس وخبثهم. يتحدث إليك «عبد الرحمن الجبرتي» دون خوفٍ أو تشككٍ، مثلما يفعل غيره، متصورين أنك جاسوس تركي مُرسَل للاطلاع على أحوال الناس في القاهرة، أو جاسوس للباشا على الأعيان وأصحاب العلوم. يُخبرك يومًا برأيه في «محمد علي» قائلًا: «إنه يعتني بالعمران، وله مندوحة

لم تكُن لغيره من ملوك الأزمان، لكن لو وفقه الله لشيءٍ من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه».

تقول له بذكاءٍ: إن خليفته قد يُحقق ذلك، في إشارة إلى «إبراهيم باشا»، نجل «محمد علي»، فيُمصمص شفتيه قائلًا: إن الشابَّ جهولٌ قاسي القلب، وإنه عُرف عنه في الصعيد تعذيب الفلاحين غير القادرين على دفع الإتاوة بربطهم فوق موقد نار مشتعل وتقليبهم مثل الكباب. تستبشع القصة وقد حكى لك آخرون مشاهد مشابهة، فتسأله إن كان «الباشا» يعلم، فيهز رأسه بالإيجاب ويقول لك: إن أحد المُعذبين صرخ يومًا في «إبراهيم باشا» قائلًا: «بحق الذي أعطاك وأمّرك، أعتقني من العذاب». فقال له «إبراهيم باشا»: «ومَن الذي أمَّرني؟»، فرد الضحية: «الله». فقال الآخر: «أنا لا أعرف الله هذا الذي تتحدث عنه، والذي أمَّرني هو أبي وحده».

تزور بيوت «الخواطي» يومًا ما لتعرف جانبًا من أسرار هذا البلد المُمتلئ خيرًا وشرورًا، فتجد أمراء وأعيانًا يعتادون المرور بانتظام هناك ليقضوا حاجاتهم الجسدية، على الرغم من أن لكل منهم زوجة واثنتين، بخلاف الجواري. تحتار أن تفسر ذلك المسلك، فيخبرك «آدم» أن كثيرين يذهبون إلى هناك بحكم الاعتياد؛ بحثًا عن شُرب البوظة، وإتيان المنكرات، وأن الناس تستصغر ذلك بعد أن شاهدوا جنود العثمانلي وهم يمرون بالأسواق ومعهم النساء «الخواطي»، وأنهم يجاهرون بشرب المسكرات والزنا في نهار رمضان كأنما سقط عنهم التكليف. والأشنع ما يحكيه بعضهم حول اعتياد هؤلاء العساكر عشق الغلمان، حتى إن أحدهم تُيِّم حبًّا بأحد الصبية، وكان يتبعه في الطرقات محاولًا مصادقته، لكنَّ الصبي اغتاظ منه وقرر

تأديبه فدس بين ثيابه «موسي» واحتال على العسكري يومًا حتى استدرجه نحو إحدى الخرائب وقطع ذكره، وهرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نصف الدين

تُقرر مُسايرة «إبراهيم أغا»، وعدم المجاهرة برفض عرضه بالزواج من شقيقة حرمه، تذهب إلى وليمته لتستمتع بما لذ وطاب، تستدرجك الأبهة المبالغ فيها في استطياب قُرب باشا مصر. تُبصر البذخ الذي يغوص فيه رجال الرجل الكبير الملتفون حوله من شتى البقاع. تعرف كيف يُجل الرجل الطموح خُلصاءه، ويُكرمهم، ويُغدق عليهم، ويعتني بأسرهم، ويفتح لهم أبواب الصعود ثراءً ونفوذًا، بشرطٍ وحيدٍ: ألا يقتربوا من مقعده.

يبدو لك «الكتخدا محمد لاظ أوغلي» أهم رجل في مملكة «محمد علي»، يمتلك عينين مسحوبتين، ولحية كثة، وتُخبرك جبهته العريضة بثراء ما يحمل من خبرات ومعارف وخطط. يبتسم في وجهك عند النظرة الأولى، ويترجم «إبراهيم أغا» كلماته التركية لك، التي تفهمها من كلمات سبق أن سمعتها بقوله: «يُسعدنا وجودك أيها السيد». ينقل لك الرجل الضخم تحيات «الباشا الكبير» وترحيبه لأي مساعدة يمكن أن يُسديها لرعايا دولة بريطانيا العظمى، ويقول لك: إنه في شوق لاستقبالك فور عودته مكللًا بالنصر من الديار الحجازية. يتركك سريعًا ليصافح قناصل أجانب وكبار الكشاف وبعض القادة، وكأنه لا يكترث كثيرًا لوجودك.

يُجابهك وجه حسن سبق أن رأيته في البيت ذاته، وتقدم صاحبته طبقًا من العنب إليك في الزحام، ثم تفغر فاهًا رقيقًا مُرحبةً بك بعبارة: «شرفتنا أيها السيد الأنيق».. تُعاين بمقلتين صاحيتين ملابسك الضافية، وتلقي نظرة عابرة على عمامتك البيضاء الملفوفة حول طربوش أحمر قصير تتدلى منه شرائط سوداء، تتفرَّس في قَسَمات وجهك وكأنها تستلذ بتأمل بدائع خلق الله فيك، وتستنشق رائحة الشباب الغض لديك.

تستغل «نجلاء» انشغال الحضور بأحاديث جانبية تتخللها كؤوس تفيض بمشروبات الروح، وأطباق فاكهة توضع وترفع أمامهم، لتقول لك في نبرة أنثوية فاتنة:

«هل أعجبتك المحروسة أيها السيد؟».

تستعذب أنوثتها، وتُقابل بسمتها ببسمة مُتحفظة وترد:

«بالطبع، المحروسة جميلة».

«لا يأتيها زائر إلا ويتمنى البقاء فيها إلى الأبد».

تُسايرها قليلًا ثُم تسأل:

«لكنها ليست وطنك.. أليس كذلك؟».

تقول لك إنها من «بيت لحم»، لكنها قدمت مع عائلتها إلى «المحروسة» وهي صغيرة. وتُتمم كلامها:

«المحروسة صارت وطني»..

وتستكمل:

«هنا كل شيء طيب، أرض خير وجمال. كل شيء هنا حسن: الناس، النيل، الأسواق، المنازل، الطعام، المعازف، كل شيء».

تُخبرها بمثل عربي يقول: «بلدك حيث أهلك».

فتُصححه لك في ترقق قائلة:

«بلدك حيث أحِبَّتك».

تفرك بأصابع رقيقة جدائل شعرها، وكأنها تُمشطه، وتسألك في براءة مصطنعة:

«هل تزوجت أيها السيد؟».

تهز رأسك نافيًا وتقول:

«مَن تحتمل انتقالي الدائم من أرضٍ إلى أرضٍ، ومن بلدٍ إلى آخر؟».

ثُم تضيف مجيبًا:

«ورثت التجارة أبًا عن جدٍّ، نحن في الأصل من الهند، لكن جدي انتقل إلى طرطوس قديمًا ومنها إلى حلب، وعشت سنوات في الشام وفلسطين، ورحلت إلى مالطة وبلاد الجريك وجئت إلى هنا؛ بحثًا عن قوافل العاج والصمغ القادمة من وسط الأحراج».

تهز رأسها وتقول:

«أحب السفر والترحال، وأرى أنه من حُسن حظ أيِّ امرأة أن تتزوج رجلًا كريمًا مثلك».

ترميك بشرر لحاظها، وتهز رأسها ليلمع جيدها الرخامي، ثُم تقول بصوت مقارب للهمس:

«أتعرف أيها السيد؟ إن إبراهيم بك أغا كان نصرانيًّا وقادمًا من بلاد الفرنجة، ثُم عشق هذه الأرض وصارت له موطنًا، وصارت شقيقتي نصف روحه».

ثُم اقتربت من أذنك لتهمس:

«لقد فوجئت إحسان، بعد الزواج، بأنه لم يُخْتَن، فأفهمته أن عليه أن يفعل ذلك. ففعل على الرغم من الخطر على حياته».

تُفاجئك حكايتها، وتتذكر أنك فعلت كل شيء ممكن لتُخفي أصلك الأوروبي سوى الختان. تشعر بقشعريرة نقص التدبير وتحس أن ألف عين تترقَّبك، لكنك تكتشف أن كل مَن حولك مُنشغلون بأمورٍ أخرى. تلاحظ هي ريبتك فتكسر الصمت بقولها:

«يجب أن تُفكر في الزواج.. أهل مِصْر ينفرون من كل أعزب».

تبتسم وتقول وكأنك تنقل إليها رسالة:

«معك حق.. الزواج في المحروسة ضرورة، وحان الوقت لأن أكمل نصف ديني».

تقول لك في جرأة:

«هناك مثل يقوله أهل مِصْر كثيرًا هو: زيتنا في دقيقنا، معناه: أن مَن يطلب الزواج عليه أن يختار مَن يعرف، وأنا بصراحة أراك جديرًا بي. هل تتزوجني أيها الرجل النبيل؟».

تغزوك بسحرها وجرأتها فتهز رأسك قائلًا بتلعثم:

«بالطبع.. سأفعل».

تلامسك بخصرها وتقول في دلال:

«إذًا تكلم مع إبراهيم أغا.. حادثه الليلة؛ فمزاجه رائق».

وتبتسم في دلال وتغادر.

ويلمحك «إبراهيم أغا» وكأنه يسمع تحاوركما ويقترب منك ويهمس:

«خير البر عاجله، سنعقد زواجكما غدًا. تعال نُخبر الكتخدا فسيسعد لهذا الخبر».

«لكن..».

«لا عليك يا أخي. من الممكن أن تختتن فيما بعدُ.. هذا ليس أمرًا عويصًا، لكن ثِق تمامًا بأن مصاهرتنا ستفتح لك جميع الأبواب، وستجلب لك الثقة والرضا. نقرأ الفاتحة».

تلمح وجه «الكتخدا» مستبشرًا وهو ينظر إليك بطرف عينه، وتهز رأسك موافقًا، وتقرأ الفاتحة لتسمعه يقول في امتنانٍ:

«آمين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بـدايـة الطريـق

تندهش من تورطك السريع، لكنك تعي أن عليك فعل أيِّ شيء وكل شيء في سبيل غايتك الكبرى، وتتذكر أن أمامك بضعة شهور ويحل موعد انطلاق القوافل إلى صحراء أفريقيا؛ حيث يمكن من مدينة «إسنا» اللحاق بمهمتك إلى «النيجر». تتلقَّى توجيهًا جديدًا باستغلال الوقت المتبقي على رحلة «النيجر» في القيام برحلة استكشاف أثري وجغرافي لمنطقة «النوبة» وجنوب مِصْر.

تقضي ليلة ممتعة مع عروسك الساحرة، تقنعك خلالها بأن النساء ذوات التجارب السابقة أكثر إمتاعًا من الأبكار. تستغرب حرص رجال الشرق وتشددهم في البحث عن العذراوات للزواج، مقتنعًا بعكس ذلك؛ حيث ترى أن مَن خبرت الرجال تعرف كوامن إسعادهم، وتقول لنفسك: إنه ليس هناك أشهى من امرأة ذات خبرات وخبرات.

تُصدِقُ «نجلاء» ألفي قرش فضة، وتشتري لها خلخالًا ذهبيًّا، ويذبح لك «إبراهيم أغا» ثلاث شياه صغيرة، ويمنحك حمارًا جديدًا ويهديك مسدسًا أوروبيًّا مُطعَّمًا بالعاج. تتذكر جلسة الزواج وحديثك إلى وكيل العروس في جمع من الناس وكؤوس الماء وأقداح القهوة توزَّع يمينًا ويسارًا، وأنت تُقر زواجك على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان. تقرع أذنيك زغاريد النسوة وغناؤهن في ليلة صاخبة امتدت حتى مطلع الفجر، وتزامنت مع احتفالات «باشا مصر» بزواج ابنته بـ«محمد بك الدفتردار».

يفي «إبراهيم أغا» بتعهداته، فيحضر إليك بعد أيام من الدخلة فرمانات ممهورة بتوقيع «الباشا محمد علي» ووزيره «الكتخدا» موجهة إلى كشاف الصعيد بَدْءًا من «بني سويف»، و«إسنا» وحتى «أسوان» بتمتعك بأمان الوالي، وبطلب تيسير تنقُّلك، وتقديم كل الخدمات اللازمة لك حال تحركك الذي خططت أن يبدأ خلال أسبوعين مع بداية الربيع؛ انتظارًا لموسم القوافل الأفريقية في شهر مايو.

تتحدث لـ«نجلاء» عن رحلتك التجارية القادمة، وتخبرها أنها قد تستغرق ثلاثة أشهر أو أربعة، وأنك ستعود منها محققًا آمال حياتك في ثروة خيالية تمنحك رغد العيش، فتطلب منك مصاحبتك، لكنك تُخبرها باستحالة ذلك في ظل طرق وعرة، وصحراوات ساكنات، وقوافل قاصرة على الرجال، فتلوذ بالصمت.

تأخذها معك في رحلة لزيارة الأهرامات يشارك فيها مستر «إدوارد ميست» وزوجته وسائحان من النمسا وألمانيا. تنبهر «نجلاء» بمرأى الهرم الأكبر وتتساءل عمَّا يدفع الملوك الغابرين إلى أن يُقيموا هذا الصرح الضخم، ثم تتساءل عن الكيفية التي يمكنهم بها إقامته، فتقول لها: إن ذلك كله لا يزال سِرًّا. ترد عليك بقولها: «لكن ثق تمامًا بأن مولانا الباشا يعرف السر».. وتضيف مُتممة: «إنه يعرف كل شيء».

تبدو «نجلاء» أنثى مكتملة النضج، على قدرٍ من اللطف وحسن الدعابة، لكنها تفتقر ـ مثل نساء كثيرات في الشرق ـ إلى الذكاء والعلم، وهي ممَّن يصدقن كل شيء،

ولما كانت ربيبة لـ«إبراهيم أغا» وضمن رعاياه بحكم زواجه بشقيقتها، فإنها تُصدق كل ما يتفوَّه به، وتؤمن إيمانًا عميقًا بأن «محمد علي» يعرف كل شيء، ويملك كل شيء، ويحكم كل شيء!

لا تُصلي «نجلاء»، مثل معظم نساء «المحروسة»، لكنها تقول إنها تؤمن بالله، وتعرف أنه عادل ومنصف ومغيث للناس في مِحَنهم، ويبدو إيمانها بالقَدَر عميقًا لدرجة أن تردِّد لك كثيرًا أن زواجكما أمر مُقدَّر، بل هو مكتوب في اللوح المحفوظ منذ بَدْء الوجود.

تكتب لـ«جوزيف بانكس» خطابًا طويلًا تطلب فيه إمدادك بأموال كافية لشراء هدايا لأمراء البلدان التي ستمر عليها في رحلتك القادمة إلى «النوبة»، وتذكر له خططك بعد الحصول على فرمانات تسهيلٍ من «الباشا»، كما تُرسل له فصلًا كاملًا من قصص ألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى الفرنسية، وتذكر له ما عرفته من رغبة «محمد علي باشا» في مد جسور علاقة وئام ومودة مع بريطانيا عن طريق تعيين عالم الآثار المعروف بـ«هنري صولت» قنصلًا للدولة العظمى.

يزورك «إبراهيم أغا» مودعًا بعد أن تقرَّر سفره إلى الحجاز لدعم قوات «الأمير طوسون» ضمن مجموعة من كبار القادة الشجعان. تفهم من كلام الرجل أن جنود «محمد علي» يواجهون ظروفًا صعبة في قتال الوهابيين، الذين يتمتعون بشراسة وصلابة شديدتين. يقول لك بفخرٍ إن مثل هؤلاء لن يُخضعهم سوى رجال أشداء وشجعان ماتت قلوبهم مثله، ويتمتم متباهيًا: «سأقطف أكبر عدد من الرؤوس وأرجع بها».

يوصيك «إبراهيم أغا»، وكأنه شقيق أكبر، بالحذر والحرص، ويخبرك أنه لا يخشى عليك سوى من فلول المماليك الملاعين الذين يختبئون في الفيافي والأحراج، ويقتلون - بتوحُّش ودون تفكير - كلَّ مَن يتشككون في انتمائه لرجال «الباشا». يحكي لك عن أحد رجال «الباشا» الذين بعث بهم إلى حاكم «دنقلا» بحثًا عن شيخ البلد الهارب، لكنه وقع في كمينٍ أعده ثلاثة من المماليك، وسملوا عينيه قبل أن يلقوا به في نار موقدة على مرأى من الأعراب.

يطلب منك صراحةً أن تكتب للباشا كل ما تراه في طريقك؛ فكل معلومة ولو صغرت لها فوائد كثيرة. يُغادر هو في الصباح إلى مدينة «القصير»، بينما تستعد أنت للمغادرة إلى «إسنا» بصحبة عبدك المخلص «آدم». يبدو الحزن غلالة من القَسَمات المرتبكة على وجه «نجلاء»، على الرغم من محاولاتها المُضنية اصطناع البسمات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«إســنا»

الرحَّالة هو الذي يحتسب كل خطوة في سبيل العلم والكشف كصلاةِ مُودِّع للدنيا. ينتقل من أرضٍ إلى أخرى فاتحًا ناظريه على كُل شيء، مُغلقًا فمه، مستعدًّا لخطرٍ مباغتٍ، ورانيًا إلى مستقبلٍ لن يشهده يُقال فيه: رأى وكتب وعرف. الرحَّالة هو الذي يحمل قارئه خلفه على ظهر دابته ليجوبا معًا البلدان ويبصَّا على كل شيء.

تُمارس شهوتك الجامحة في البصّ طوال الطريق النيلي من «المحروسة» إلى «إسنا»، تستعمرك مشاهد الحقول الخلابة، وتنزرع بروحك عيدان القصب وأوراق البرسيم الخضراء، وهي تُرفرف كرايات ترحيب في كل مكان. يُبهجك مرأى الطين وهو يتقلّب تحت فؤوس تُحركها سواعد سمراء لفلاحين شمروا سراويلهم وانكفؤوا راضين بالكد دون سأم. تفرد رقاعك على حجرك مرارًا لتُراجع خريطة النيل المرسومة بأنامل رحالة سابقين متتبعًا الطريق نحو «أسوان» عبر الوادي الملاصق للنهر التليد.

تستريح أنت وعبدك في «إسنا»، بعد أن تُقدِّم إلى «حسن بك»، حاكم البلدة، فرمان «الباشا» بأمانك، ليمنحك دارًا بسيطة من الطين، لكنها تطل على قصره المجاور للنهر. يبدو «حسن بك» رجلًا أوروبيًّا شديد التهذيب، جذبته ألوان النجم الصاعد في الشرق ليلتحق به مثل كثيرين يمخرون في بلاط «محمد علي»، وكما يُخبرك هو فقد كان قبرصيًّا، لكنه أسلم والتحق بخدمة الدولة العلية؛ نصرةً لدين الله، وتعلَّم التركية قبل أن يُسمَّى «حسن بك». يبدو الرجل موظفًا مخلصًا وجد رونق الحياة في الخدمة لدى إمبراطورية الأتراك، لكنه على الرغم من ذلك يميل بإخلاصه أكثر ناحية باشا مصر، ربما يتملكه الخوف من مصائر مغامرين سابقين حاولوا التقرُّب إلى السلطان العثماني على حساب الوالي الداهية. يقول لك «حسن بك»: إن الاضطرابات سادت سنوات وسنوات في «إسنا» نتيجة إغارات فلول المماليك الذين ساموا الناس فسادًا وعسفًا حتى وصل إليهم «إبراهيم باشا» وأدَّبهم فاختفوا في ثغرات الجبال. تسأله عن مذبحة المماليك الثانية، فيقول لك: «كانت حتمية؛ لأنهم كلما وعدوا أخلفوا، وإذا تُركوا غدروا، فأخبر الباشا ولده إبراهيم أن يحتال عليهم مثلما فعل هو في المحروسة، فعقد لهم وليمة كبيرة في هذا القصر، وأرسل لهم فقدموا جماعات ثُم أُعدموا سريعًا». تُخبره إن كانت هناك أخطار من بقاياهم في الطريق إلى «دنقلا»، فيُشيح بوجهه مهونًا ويقول: «لا تقلق. في الجنوب يتولى أبناء الكاشف مملكة النوبة، وجميعهم تحت ولاية الباشا».

تُكلِّف «آدم» بشراء كل ما تحتاجان إليه من عتاد ومؤن وهدايا، من مسابح، وصابون، وخناجر، وأراجيل، وعطور، وبخور، وشمع، وعباءات ملونة، وطرابيش.. كما تكلفه بشراء بارود كافٍ لملء خمس بنادق تأخذها معك سلاحًا احتياطيًّا لدرء الأخطار. يُذكِّرك «آدم»

بـ«حميد الحلبي» في إخلاصه الشديد، غير أنه شتان بينهما في رفقة الطريق؛ إذ لا ينبس «آدم» بكلمة طوال الرحلة إلا إن سألته عن شيء، ما يُبعد عنك صداع

الثرثرة والتطفل الذي عايشته مع «حميد». تَفكر في الأمر مليًّا، فتجد أن ذلك طبيعي بحكم أن «حميد» كان رجلًا حرًّا، بينما «آدم» هو مجرد عبد مملوك لا يعرف شيئًا سوى الصمت والطاعة. تسأل نفسك إن كان «حميد» سعيدًا الآن في حياته المستقرة مع «ليلى»، وإن كان قد امتلك خانًا لاستقبال الأجانب كما كان يحلم!

تبدو أحوال الناس في «إسنا» أصعب كثيرًا منها في القاهرة؛ فالفقر ساكن دائم لبيوت المدينة المقامة بالطين والمعرَّشة بأفرع الأشجار الميتة. وعلى الرغم من أن متطلبات الحياة أقل هنا فإن البؤسَ عنوانٌ عامٌّ مدوَّنٌ على وجوه الجميع. تستفزك في البداية مشاهد أجساد الصغار العارية تمامًا من أيِّ شيء يكسوها، غير أنك تعتاد الأمر رويدًا رويدًا، وتظل النساء أشبه بكُتل من القماش الأسود تتحرك من مكانٍ لآخر، وفي الغالب لا تكاد تسمع أصواتهن. ويرتدي معظم الرجال جلابيب واسعة ويلفون حول رؤوسهم عمائم بيضاء فوق طواقٍ صوفية قصيرة.

تزور الحاج «جمال حبائر»، وهو أحد تجار البلح النوبي، بناءً على توصية الشيخ «عبد الرحمن الجبرتي»، فيكتب لك خطابًا إلى أعيان أسوان ليُساعدك بعد أن يولم لك وليمةً لا تُنسى. يقول لك موصيًا ألَّا تكتب شيئًا طوال الرحلات في الجنوب؛ لأن الناس تخاف من أيِّ كاتبٍ وتحسبه جاسوسًا، وربما يُقتل. تسأله عن قافلة «تمبكتو» فيُخبرك أنها بلا موعدٍ ثابتٍ، وإن لم تأتِ الصيف القادم فإنها لن تأتي حتى آخر السنة. تقبل نصيحته في بيع الحمارين اللذين معك، وشراء هجينين صُلبين لتحمُّل الرحلة إلى أسوان والمحس.

في الصباح، تواجه على المقهى الكبير تطفُّل البعض سائلين عمَّا دفعك إلى قطع مسيرة أيام للقدوم مع عبدك إلى بلادهم، لتشتمَّ تشككات كثيرة يتصور البعض معها أنك من أعيُن «باشا مصر» عليهم. تُدخن الجوزة في تلذذ كفلاح مصري محترف نبت من هذه الأرض الطيبة.

تقضي أسبوعًا كاملًا في المدينة البسيطة تحرص خلالها على جمع أكبرِ كَمٍّ من المعلومات والمعارف عن بلاد النوبة قبل أن تتحرك فجرًا إلى «أسوان». تشعر بوعكة بسيطة، لكنَّ عبدك الصالح يخبرك أن الطقس في «أسوان» أكثر جمالًا، وبأنك ستسترد عافيتك هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ناس «أسوان»

يشرد قصَّاص أثرك وهو يتابع وصولك إلى «أسوان» مع عبدك الأمين «آدم». يتذكَّر هو رحلة قام بها إلى المدينة الجنوبية في السنة الخامسة بعد التسعين والتسعمائة والألف؛ حيث كان طالبًا يدرس الآثار. يُخبره أحد زملائه في الرحلة بأن أهل أسوان هم أطيب أهل مصر قاطبة، ويحكي له حكاية ملخصها أنه ذهب لشراء بعض التحف الفنية من أحد المحلات، فأخبره صاحب المحل أن ما يحتاج إليه سيجده في المحل المجاور له، وهو محل أصغر كثيرًا ويبدو أقل في المعروضات، لكن الحاكي اندهش، وقال للرجل إن لديه ما يريد، مشيرًا إلى أحد الأطباق الخزفية الملونة والمعلقة خلفه، فقال الرجل بتسليم: «إنَّ جاري لم يمر عليه أيُّ زبون منذ الصباح. فبالله عليك اجعله يستفتح، وإن اختلفت معه في السعر فأرضِه وسأدفع لك الفارق».

يبدو أن البشر هم مَن لفتوا أنظار كاتب قصتك عندما زار أسوان؛ فعلى الرغم من أنه كان يدرس الآثار فإن عظمة البشر سكنته قبل عظمة الحجر. لم تعلق بذاكرته أيُّ لحظات تستحق التسجيل عند زياراته معابد فيلة، أو كوم أمبو، أو أبي سمبل.

تذكر أنت أيضًا ذلك الخبير النوبي الذي زوَّدك به أغا أسوان بعد أن أطلعته على خطاب «حسن بك»، حاكم «إسنا». كان رجلًا مُسنًّا، ناعس العينين، أجدب الرأس، يميل لونه إلى لون البلح المصري الأسود، تبدو الطيبة سمة ثابتة في خبير الطرق الذي سيصحبك إلى «دنقلا»؛ حيث القرى المنسية والقبائل الغريبة والبلدان المنقطعة عن الحضارة. تسأله عن اسمه فيجيبك: «محمد.. نادني محمدًا»، فتطلب من عبدك أن ينتظرك مع المتاع في دار صغيرة أسكنك إياها أغا أسوان.

في الفجر، تنطلقان معًا، أنت وخبيرك المُسِنّ، وعلى جسدك الزعبوط الأزرق، ومعك سيفك وبندقيتك وبعض الهدايا. تسلكان الطريق الشرقي المجاوِر للجبَّانة، تلقي نظرات على مقابر كثيرة تحمل نقوشًا تركية، يُخبرك دليلك أنها تخص أولياء صالحين لهم كرامات وكرامات. تتذكَّر ما كتبه المؤرخ العربي «تقي الدين المقريزي» يومًا بأن هناك عشرين ألف رجل ماتوا في أسوان في طاعون سنة ٨٠٦ هجرية، وتفهم سِرَّ سلاسل المقابر الممتدة كسورٍ مُحيطٍ بالمدينة القديمة. تسأل الدليل عمَّا يبقى من وقتٍ لتصلا إلى «فيلة»، فيجيبك بقوله: «الله يسهِّل»، دون أن يمنحك أيَّ معلومة. وفيما بعدُ ستكف عن سؤاله؛ إذ تجد الرد واحدًا بالكلمتين ذواتهما كلما كررت السؤال.

يدفعكما الليل إلى طرْق أحد الأبواب في قرية تسمى «سلق الجمل» ليضيِّفكما شيخٌ مُسِنٌّ، ويقدم لكما فطائر من الخبز عائمة في صحن من اللبن الشهي. يحيطكما التطفُّل في الصباح من معظم رجال القرية الذين يسألون الدليل عنك فيجيبهم بأنك تحمل رسائل من حاكم «إسنا» إلى حكام النوبة، لكنَّ التطفل لا يتوقف فيسألون عمَّا تحتويه تلك الرسائل. يقترب منك بعض الشبان ذوو العضلات الفتية، ويمسكون يدك، مقسمين بأغلظ الأيمان أن تتناول الفطور عندهم.

تصلان إلى مدينة «دهميت»، قرب المغرب، لتجدا «داوود الكاشف»، وهو شابٌّ طويلٌ، عريضُ الجبهة، يطق من عينيه الشرر، تُخبره أنك مبعوث في مهمة إلى والده «حسن الكاشف»، لكنك لا تشعر باهتمامه. يسألك أن تعطيه بارودًا، فتعتذر في هدوء يليق بمبعوث باشا مصر، وتُغادر قريته بعد أن تستريح قليلًا. يقول الدليل لك بعد المغادرة: إن آل الكاشف جميعًا ظلمة، يضربون الناس ضربًا مبرحًا ليرغموهم على دفع الإتاوة كل جمعة.

تعبران دار موت، لتعاينا خرائب جرانيتية تشير إلى أنه كانت هناك حيوات عظيمة في ذلك المكان قبل عشرات القرون، يضيق الوادي ثم يتسع ويتعرَّج، تبصران صخورًا غريبة الشكل، تتقطَّعها أعشاب مشابهة لتلك التي تزخر بها صحاري فلسطين. تغفلان تحت ظلال شجيرة ربانية قصيرة، ترى في منامك جنودًا عظامًا بملابس فرنسية يقرعون أجراس كنيسة بازل الكبرى، ثم يمسكون بفارسٍ مهيبٍ يسير معهم مرفوع الهامة، تتفرس في وجهه قليلًا لترى «رودلف بركهارت»، وتلمح بين الجموع وجه أمك الشاحب حزينًا كجنازة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«إسنا» مرة أخرى

تنقل خطواتك من أرضٍ إلى أخرى لتفهم كيف يُفيدك أن ترى أكثر ممَّا تسمع. تدفعك المشاهد إلى تصورات وقرارات تراها نافعة للبشرية، منها مثلًا: ضرورة أن تجمع كل ما يمكنك جمعه من تماثيل القدماء وبردياتهم لتُرسل بها إلى مَن يقدِّرها، ويمنحها حقها من الدراسة والبحث. تُعاين في كل مكان تنتقل إليه مباني ودور عبادة قديمة تزخر بكتابات الأقدمين ورموزهم الغرائبية. تُفكر في تلك الحضارة العظيمة التي لم ترَ عظمة مثلها، تتدبَّر في علومها وتتفرَّس في رجالها وتدرس آثارها. يقول لك رفيقك المُسِنُّ: إنكم معشر الغرباء طيبون للغاية؛ إذ تُنفقون أموالكم عبثًا على ما لا يفيد، مُتصورًا عبثية شراء الحجارة القديمة أو التماثيل الحجرية والرمم البشرية. تقول له مُفهمًا: «إن المعرفة كنز حقيقي، فكلما تعرفت إلى ماضٍ مضى، صرت أقدر على الاستعداد للغد القادم». يهز رأسه مُجاريًا، ثُم يصمت.

مثله مثل كثيرين ينظرون إليكم معشر الأوروبيين نظرة ازدراء قائمة على انشغالكم بعلوم لا تفيد ولا تضر، وإنفاقكم الأموال بحثًا عن المعرفة. يظُن مثل هؤلاء أن العلوم هي علوم القرآن والحديث فقط، وأن علوم الدُّنيا كلها بلا طائل، وربما مَرَدُّ ذلك أن القدرية تلعب دورًا حيويًّا في حيوات الناس بالشرق.

تقابل «حسن الكاشف»، فتتمنى أنك لم ترَه أبدًا، يبدو رجلًا عبوسًا، ضخم البنيان كمعبد روماني عتيد، حادّ النظرات، خشن الصوت. تحل ضيفًا عند أخبث شخص يُمكن أن يقابلك في حياتك، يكرهك من النظرة الأولى، ويتشكك في كل ما تتفوه به من كلمات، يحسبك في البداية جاسوسًا عليه، مرسلًا من حاكم «إسنا»، ثُم يتطور التصور لديه فيحسبك جاسوسًا موظفًا في بلاط «محمد علي»، أو مبعوثًا سريًّا للسلطان العثماني نفسه. تسأله عن حدود النهر ومدن ما بعد الشلال فلا يرُد، تُلح عليه فيجيب عن تساؤلاتك كمن يُقطِّر لك الدواء المر قطرةً بعد أخرى. يسألك هو في تبجُّح عمَّا تحمل من هدايا له ولعائلته؛ فتمد يدك في جوالك لتخرج له صابونتين لهما رائحة العنبر، وطربوشًا أحمر، وزجاجة كونياك، لكنه يدفع بها مزدريًا ويقول في خشونة: «تعطيني هذه الأشياء التافهة وتريد أن أوصلك إلى ما بعد الشلال! لقد أعطاني الخواجات هدايا ثمينة لأوصلهم إلى الشلال فقط!». تقول له في تأفف: «أنا لست خواجة يا سيد حسن، أنا شامي، ومعي فرمان أمان من باشا مصر». فينظر إليك بِغِلٍّ وهو يقول: «أنا في خدمة باشا مصر، لكنني لن أستطيع أن أؤمِّنك بعد مدينة سكوت. هذه هي حدود دولتي، وخارجها لا سلطان لي».

يطلب منك ابنه في الصباح بندقية هدية فتخبره أنك لا تملك سوى واحدة، لكنه يتركك كغريبٍ أجرب بلا معين، فيقول لك مرشدك: «إن الطريق بعد الشلال خطر، وهناك عفاريت تقتل الناس». يتكرر الكلام ذاته، وتكتشف أن هناك صبية صغارًا يسترقون السمع لما تقوله أنت ومرشدك في الكوخ الصغير الذي سمح لك «حسن الكاشف» بالإقامة فيه. تُغادران في الصباح بعد أن يُلحَّ عليك رجال «حسن الكاشف» بمنحهم بارودًا وبُنًّا وتبغًا هدايا، ثُم تتذكر أن أحدًا في تلك الديار لم يقدم لك اللحم أبدًا، فتشعر إلى أيِّ مدى ينغرس البُخل في نفوس «آل الكاشف».

تَشاهد معبد أبي سمبل بأعمدته الجرانيتية الطويلة الدالة على محبة مطاوَلة السماء لدى القدماء، تُبهرك الجدران المحتضنة نقوشًا ورسومات جميلة، وتُعيد رسم الرموز المكتوبة، وتُسجل في كتاب طويل سترسله لاحقًا إلى «مستر بانكس» تفاصيل وصفك للمعبد. يُحرضك تمثال لـ«أوزيريس» على تأمل دقيق لجميع ما يحتويه المعبد من آثار، وكأنه يُشير إليها.

تعود إلى «أسوان» بعد رحلات مُضنية تمر فيها على معابد جميلة ومقابر وبحيرات وقرى منسية، تسجل كل شيء تقع عليه عيناك، وتجد «آدم» في انتظارك لترجعا معًا إلى «إسنا»؛ حيث الأمان والراحة. تطلب منه السفر إلى «المحروسة» لجلب «نجلاء» و«نور»، بعد أن تشعر أن الرحلة إلى الجنوب تستحق التكرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشاهدات النـوبـة

تبدو إقامتك في «إسنا» أكثر طمأنينة ورضا، تتعرَّف إلى أناس كُثر: تجار، وأعيان، وعلماء دين، ومرشدين للسياح، ومنظمين للقوافل.. يُلهمك اتساع قاعة البيت أن تستضيف ألوانًا شتَّى من مشايخ القبائل كل أسبوع.

تحل «نجلاء» و«نور» ليستطيب العيش بعيدًا عن دسائس القاهرة وأعيُن «الباشا» المستريبة. يساعدك طقس «إسنا» الدافئ على أن تستعيد حيوية غائبة وروحًا وثَّابة مُنكبة على المعرفة والقراءة. تُغرقك «نجلاء» بحبٍّ فيَّاضٍ تشعر معه بالألفة والصدق والبراءة؛ فتستبعد شكوكًا وأوهامًا سبق أن طاردتك بكونها رقيبًا على خطواتك.

تحكي لـ«نجلاء» عن النوبة وأهلها قبل أن تكتب تفاصيل ما رأيت وعايشت مدونًا في كتاب كبير تتركه للعالمين. تُخبرها أن أهل النوبة طيبون وصرحاء، لكن الفقر يُقيِّد ألسنتهم، فلا يلحون في الكرم مثلما يفعل أهل الصعيد. يهتم النوبيون بنسائهم، يحترمونهن، ويشترون لهن ثيابًا جيدة، ويعاملونهن برفقٍ ومحبةٍ، وفي المقابل فإن نساء النوبة يقاتلن إلى جانب أزواجهن كلما حلت الحرب وهجم الأعداء؛ فالشجاعة صفة ثابتة في النساء كما هي في الرجال.

وعلى الرغم من ذلك فإن النساء تُعد وسيلة من وسائل التسلُّط؛ إذ يلجأ مندوبو «الباشا» في جمع الإتاوات والضرائب إلى حبس النساء لإجبار رجالهن على دفع ما يُستحق عليهم من معلوم؛ لذا فإن النوبيين لا يمكنهم الهرب من سلطان «الباشا»، ويخضعون دومًا لكل مَن هو قوي ويمتلك السلطة. في إحدى المرات يحكي لك أحدهم أن «حسن الكاشف»، الأمير المتوج على النوبة من قِبَل «الباشا»، كثيرًا ما كان يذهب بنفسه إلى بعض الأسر طالبًا بناتهم للزواج فتضطر الأسرة إلى فداء البنت بتقديم هدايا كثيرة للرجل.

تسألك «نجلاء» عن العملة المتداوَلة هناك، فتخبرها أنها الشعير والذرة. تشتري النساء الخلاخيل والثياب الملونة والأقراط بهما، وغالبًا ما ترتدي النساء العباءات الصوفية، ويضفِّرن شعرهن ضفائر طويلة تُثير الدهشة. ويبدو بعض الشباب الحدثاء حريصين على ثقب أنوفهم ووضع أقراط نحاسية وفضية فيها، ويحرص آخرون على لف تمائم من الجلد حول أعناقهم، معتقدين أنها تحميهم من الأرواح الشريرة.

الحشمة قانونٌ عامٌّ لا يقبل النقاش عند أهل النوبة، ولا تحترف أيٌّ من النساء الدعارة مثلما هو الحال في «المحروسة» و«إسنا»، ويؤمن الناس بأن الفحش صفة لا تليق سوى بالعبيد هناك؛ لذا فإنهم يثقون ثقة كبيرة بنسائهم، حتى إنك تذكر خلال رحلتك أنك رأيت فتى وفتاة يتحادثان في خلوةٍ، فسألت الفتاة في تطفل كيف تسمح لنفسها بالتحدث مع غريب، فقالت مبتسمة إنه ابن عمها، وأهلها يعرفون أن ابن العم أكثر حرصًا على بنات عمه من الوالدين.

يقيم النوبي بيته من الطوب اللبِن أو الحجر الصوان، وهو في الغالب لا يتجاوز حجرتين، واحدة للحريم والأخرى للضيوف، وكلاهما تسقفه سيقان الذرة. وفي داخل كل بيت لا يزيد الأثاث على ست قدور من الفخار الخشن، وصحاف من الفخار، وطاحونة يد، وبلطة، ونول خشبي صغير، وفروة ماعز يتمدَّد عليها أهل الدار في الشتاء. ويتخذ الرجال سلاحًا معدنيًّا عبارة عن مدبة صغيرة معقوفة، ونبوت خشبي غليظ، ويحمل القليل منهم سيوفًا لكل منها نصلان متعاكسان. أما القادة الكبار، مثل «حسن الكاشف»، فيمتلكون غَدَّارات ألمانية.

تسألك «نجلاء» عن أوجاع النوبيين، فتقول لها: إنهم أصحاء الأبدان، قليلًا ما يمرضون بسبب حيوية الشمس وارتفاع الحرارة، وهم أقصر قليلًا من المصريين، ويمتازون بالشوارب واللحى الخفيفة.

تقول لـ«نجلاء»: إن أهل النوبة يحسنون صنع البوظة، وهي قريبة الشَّبَه بالبيرة الموجودة في القاهرة، غير أن لها مذاقًا لاذعًا، ولا يعرف الناس فاكهة سوى البلح والعنب.

تقول لك: «لقد عرفت نساء جميلات الصوت في قصور كبار الأمراء جئن من النوبة»، فتصدق على كلامها وتقول:

«صحيح. لقد سمعت أعذب صوت في حياتي من امرأة في المحس، غنت لنا غناءً حزينًا لا يزال يتردد صداه في أذني حتى الآن».

«ماذا كانت تقول؟».

«لا أدري. كانت تُغني بالنوبية، لكن كانت نبرة الحُزن فاضحة».

تحتضنك «نجلاء» وتُخبرك إن كنت ترغب في غناء وعزف أو رقص، فإنها درَّبت الجارية «نور» على جانبٍ من ذلك، فتطلب إليها أن تُغني هي، فتفعل، لتقضيا وقتًا مبهجًا، وتعبًّا من مُدام الشوق والمُتعة بلا انقطاعٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مهمـة جديـدة

يُخبرك «جوزيف بانكس»، في خطابٍ سريٍّ، بتكليفٍ جديدٍ، يقول لك: إن بريطانيا بعيدة كل البعد عن بلاد الحجاز. يكتب إليك: إننا لا نعرف ما حالها، ولا كيف يعيش الناس، وما عاداتهم، وبمَ يؤمنون، وكيف يرون الأتراك والوهابيين و«محمد علي»، ولمن يدينون بالولاء، وكيف تسير الصراعات والحروب هناك، وما نقاط القوة لديهم، وما قبائحهم.

يُنبئك أن أوروبيين كثرًا تقنَّعوا وتسللوا إلى الحجاز، حتى إنهم كتبوا عن الكعبة التي يتحلَّق حولها المحمديون. يقول لك: إن تغييرًا مرحليًّا سيطرأ على مهمتك لتتوجَّه إلى الحجاز، وتعاين ما يحدث هناك قبل أن ترجع وتذهب إلى النيجر في وقتٍ آخر. يُلمِّح لك جامع أسرار الدولة أنهم يدفعون لك راتبًا مُجزيًا، وأنهم يُريدون استغلال كل وقت تعمل فيه لخدمة مصالح بريطانيا العليا. يُكلفك بالسفر إلى «الحجاز» ضمن قوافل الحج المنطلقة من الصعيد عبر الطريق البري من «النوبة» إلى «بربر» ثم إلى «جدة». يقول لك مُحفزًا: «إن ما حققته في البتراء سيُخلِّد اسمك في التاريخ».

يحوِّل لك «جوزيف بانكس» رسالة طويلة كتبتها شقيقتك «آن» تؤكد لك فيها وفاة «رودلف» بالحمى في الصيف الماضي، وتُخبرك أن «سارة روهنر» علمت من زيارتها للجمعية الجغرافية في «لندن» أنك اكتشفت «مدينة البتراء» المفقودة، وأنها فخورٌ جدًّا بك. تقول لك: إن صحف بريطانيا كتبت عن الكشف قبل شهور، لكنها لم تقدم أيَّ تفاصيل تشير إلى المكتشِف؛ حرصًا على سلامته. لا تعرف «آن» شيئًا عن «مارغريتا» التي انقطعت أخبارها وتلاشى ذكرها مثل كثيرين عرفتهم وعايشتهم. ينتابك بعد أن تقرأ شعور بالبعد الروحي عن كل ما تحكيه «آن» من حكايات، وكل ما تتطرق إليه من أسماء لشخوص وأماكن وذكريات. تحس أن بلادك هي حيث تحب لا حيث وُلِدت. أنت ابن الشرق. أنت تنتمي إلى مِصْر الآن قلبًا وعقلًا وروحًا، ولا تجد في ذاتك كإنسان فارقًا بين فلاح بسيط يخدم في الحقل تحت شمس «إسنا» الحارقة، وكاتب غريب أوروبي يتأمل ما حوله ويحكي ما يشاهده بروح مُحِبّ.

تصارح «نجلاء» برحلتك القادمة، تُخبرها أنك ستحج بيت الله الحرام بعد أن ملأك الشوق، وتملكك الفضول من كلام أحد التجار الكبار في «إسنا». يعاودها العبوس مرة أخرى وتقول لك إنها لم تعُد قادرة على فراقك. تجادلك قليلًا لكنها تفقد الأمل بعد أن تخبرها أنك اتفقت مع قافلة مغادرة بعد أسبوع. تغفو فوق كتفك، وهي تُردد أنه لم يعُد لها في الأرض أحدٌ سواك، بعد أن سافرت شقيقتها «إحسان» لتلحق بزوجها في «المدينة المنورة»؛ حيث عُيِّن حاكمًا عليها. تراودك أحلام الرحَّالة بكشوفات جديدة، وتتخيَّل مشهد البناء المقدس الذي يدور حوله الناس في الشرق، معتبرين إياه بيتًا من بيوت الله في الأرض.

تَعد العدة كاملة للتحرُّك، لكن تأخّر الأموال المُرسَلة من «لندن» يدفعك إلى أن تبيع عبدك المخلص «آدم» بعد أن تشترط على المشتري أن يوصل «نجلاء» و«نور» إلى القاهرة كمهمة أخيرة. تودعك «نجلاء» بعينين تفيضان بالدمع وتقول لك إن حظها عَثِر في الرجال، فلا تلتقي بأحدهم حتى يفارقها!

تجلس مع «حسين العلوان»، شهبندر تجار «إسنا»، بعد أن تتعرَّف إليه في دار «حسن بك»، فيقدم لك وصاياه ويُخبرك أن ابنه «خلف» سيذهب في قافلة الحجاز، وأنه سيكون ساعدك الأيمن. يقول لك: إنك لا بُدَّ من أن تُبَدل ملابسك، فلا ترتدِ زي تاجر ثري، وإنما تبدو رجلًا فقيرًا؛ لأن قطاع الطريق من العبابدة يتعرضون للقوافل ويسلبون مَن فيها مؤنهم وأموالهم. تسأله عمَّن يحمي القوافل، فيجيبك قائلًا: «العبابدة أيضًا»، وتفهم أن كل قافلة تعين حراسًا لها من قبيلة العبابدة ليقفوا في وجه اللصوص المنتمين للقبيلة ذاتها. تأخذ بنصيحته وترتدي العباءة الصوفية الفضفاضة فوق قميص وسروال من الكتان، وتضع على رأسك لبدة من الصوف الأبيض، وتلف حولها منديلًا كعادة أهل «إسنا». تضع في زعبوطك بوصلة وقلمًا ومبراة وكيس تبغ، وتحمل فوق جملك عشرين رطلًا من الدقيق وكعكًا وبعض البلح والعدس والأرز والبصل والفلفل والبن والتبغ. تجلب أيضًا معك فنجان قهوة وسكينًا وملعقة وسلطانية خشبًا وبلطة وحبلًا ومشطًا وقميصًا آخر وثلاث قرب مياه، ومصحفًا صغيرًا، وأفرخ ورق، وساعة، وصابونًا، وشفرات حلاقة، ومسابح خشبية.. تلف حول وسطك حزامًا تضع فيه خمسين ريالًا إسبانيًّا وجنيهين، وتدس في حرامك بندقية وثلاث دست من الرصاص.

تحين ساعة الرحيل فتودِّعكم النسوة والصبية، ويعانقك شهبندر التجار كصديقٍ، ثم يلتفت إلى ابنه «خلف» ويقول له في جدية بالغة: «اسمع يا بُني.. الشيخ إبراهيم هو أخوك، ضعه في قلبك، احرِص على أمنه وراحته». يهز الابن رأسه دون أن ينطق، وينطلق الركب في هدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرحلـة الخطـرة

يتابعك كاتبك المستقبلي بخياله وحدسه، يراك قَلِقًا خائفًا عندما يلتف حول القافلة فرسان ملثمون، بعِصِيِّهم وسيوفهم. تُخرج بندقيتك، لكن أحد حراس القافلة يُشير لك أن تسكن، ويتقدم نحو المهاجمين ليتفاهم معهم. يقول لك «خلف العلوان» في ضيقٍ:

«لا تتحامق أيها الغريب الشامي».

ينظر إليك بقرفٍ شديدٍ، ويُسمعك كل هُنيهة دعاءه بأن يخرب الله بيتك وبيت «حسن بك»، حاكم «إسنا». تحاول ملاطفته، لكنه يكاد ينفجر فيك نفورًا وكراهية، ويُخبرك أنه يكِنُّ كل كراهية وازدراء لـ«حسن بك» وكل شخص يمت له بأدنى صلة.

ينظر إليك باقي المسافرين في القافلة بحنقٍ وغِلٍّ؛ ما يُنبئ بكراهية مماثلة يحملونها جميعًا لحاكم «إسنا». يتصورون أنك تاجر شامي أو تركي، وفي الحالين فأنت جاسوس مأمور أن تعرف أخبارهم، وتطَّلِع على أسرارهم؛ ما يجعلهم غير مأموني الجانب. تُدرك أنك في حاجة ماسة إلى حماية من غدرٍ أو سوء ظنٍّ، فتلجأ إلى الحراس العبابدة وتدفع لهم نظير حمايتك وأمنك أموالًا إضافية.

تُريد أن تكتب، فتختفي عن الأنظار وتجلس خلف شجرة صغيرة لتدون في توجس، تدرك أنهم لو أبصروك لقتلوك؛ فالكتابة هنا لا تعني سوى التجسس، والتدوين دليل لا يقبل الشك على ذلك. تُبصر خيال أحدهم قادمًا من بعيد فتطوي أوراقك وتدسها في سروالك، وتُخرِج غليونك متظاهرًا بتدخين التبغ تحت الظلال الوارفة. ترفع رأسك للسماء فتلمح سحائب سوداء تعبر في انتظامٍ، ويهلل البعض مستبشرين خيرًا بأسراب الجراد المسافر بلا قصدٍ.

تأكل وحدك، وتنام وحدك، ولا يتحدث إليك أحد سوى العبابدة المكلفين بالحراسة. تعبرون من سهلٍ لتلٍّ، ومن أحراشٍ لصحارٍ، وتمرون بأقوام كُثر يتحدثون بألسنة شتَّى، وفي كل مكان يجيد الحراس العبابدة التفاهم مع مستقبِليهم من أصحاب الأرض. يقول لك أحدهم مبتزًّا: «إن عليك أن تدفع ثلاثة ريالات إسبانية مقابل حمايتك من رفاقك في القافلة نفسها؛ فهم جميعًا يتمنون الفتك بك»، فتستجيب مضطرًّا.

تسأل أحد الحراس عمَّا يدفع العبابدة إلى أن يقطعوا الطريق فيقول لك: «لم يتعلموا أمرًا آخر»، ويحكي لك عن لص شهير حَيَّرَ المماليك سنين، اسمه «نعيم»، كان يقطع الطريق على جميع القوافل العابرة من «إسنا» إلى «كردفان»، وكان يقطع أصابع مَن يقاومه مِن المسافرين، وتطهوها زوجته ليأكلها هو ورجاله مع الطعام، ولما ولي «إبراهيم باشا» حكم الصعيد حكوا له عنه، فأرسل له ثلاثة من خلصائه، فحاصروه وضيَّقوا عليه حتى وقع في أيديهم فأحرقوه على مرأى من رفاقه، ثُم قطعوا أذنيه وأرسلوا زوجته إلى القاهرة ليتزوجها أحد حراس «إبراهيم باشا».

لا مماليك تقابلهم في طريقك إلى «كردفان» مثلما تصورت، يمكن القول: إنهم تلاشوا تمامًا، على الرغم من حكايات سبق أن سمعتها في «إسنا» بأنهم ينظمون صفوفهم قرب «كردفان» بعد أن آواهم ملكها الوثني. تُدرك الآن أن كثيرًا ممَّا تسمعه لا يتجاوز مبالغات وخيالات الناس الذين يتحدثون عن كل شيء، ويدَّعون المعرفة مثلما يفعل كاتبك المستقبلي.

الدفع مقابل المرور هو القانون السائد في هذه الرحلة، ادفع كي تعبر بأمان، ادفع كي يبقى رأسك فوق عُنقك، ادفع لتهنأ بالطمأنينة. والدفع هنا يتدرج من حفنات من الذرة والتبغ إلى ريالات الفضة والهدايا الثمينة. تستقبلك القبائل الغريبة بصبيانهم العراة قبل أن يأتي أحدهم مقدمًا نفسه باعتباره الملك ويسأل العبابدة عن الهدايا، فيبدؤون بجمعها من المسافرين، فيدفعون وتدفع معهم حتى تقارب أموالك على النفاد.

تخشى الإفلاس، لكن أحد العبابدة يُخبرك بأكثر من حيلة للتكسُّب في مثل هذه الظروف، ويسألك إن كنت تقرأ القرآن، فترد بالإيجاب، فيخبرك أن هناك مسلمين في المدينة المجاورة يكنون احترامًا لكل مَن يعرف القرآن، وأنه يمكنك أن تذهب إلى مقابرهم لتقرأ القرآن في الصباح مقابل أجر جيد. يدهشك اتساع المقابر وامتدادها بطول عشرات الأميال وتصارح أحدهم بذلك، فيخبرك بأن عدو البلدة الأعظم الذي يزورها مرارًا هو الجدري، ومتى جاء يودع الناس شيوخهم وضعفاءهم الذين لا يتحملون قسوة المرض.

في بلدةٍ أخرى بجوار «شندي»، تضطر إلى بيع المسابح الخشبية التي معك إلى المارة لتجلب بعض الذرة بعد أن ينفد زادك. تضطر أيضًا إلى أن تبيع بعض أعشابك وأدويتك تحت لافتة الشفاء من الجدري، لتجد زبائن كثرًا.

تشاهد في «شندي» كل شيء: أسواقًا واسعة تبيع كل ما تتخيله، تجارًا بألوان وألسنة شتى، أعيُنًا غريبة ترمق ما حولها، رقيقًا أبيض وأسمر وزنوجًا، رجالًا ونساءً، يُعرضون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، بخورًا وعطورًا وآلات حرب وتبغًا وأساور من فضة ونحاس، وملابس غريبة الألوان. ترى أيضًا مساجد صغيرة، ومقاهي، ومحلات بوظة ولهو، وبيوت بغاء علنية، ومجازر للماشية. تقف أمام ساحة بيع الرقيق فتسمع المنادي ينادي: «جارية تَحيك الملابس وتطهو الطعام بعشرين ريالًا فقط»، ثُم تسمعه ينادي على أخرى: «فتاة للمعاشرة من الحبشة». تنظر إلى أطفال عبيد يستعرضهم النخَّاس فيُخبرك أحد الواقفين هامسًا: «لا تشترِ من هؤلاء، إنهم أحباش غدارون، لقد اشتريت أحدهم قبل عامين وفر بعد أن سرقَ خزانتي ليلًا». تتظاهر بالاهتمام وتقول للرجل: «أنا لا أريد ذكورًا، أريد خصيانًا»، فيباغتك قائلًا: «ليس هنا، أهل السودان لا يخصون العبيد»، ويهمس قائلًا: «الإخصاء يتم في قرية بأسيوط تسمَّى زاوية الدير. في الصيف الماضي خصى التجار مائتي صبي وأرسلوا للباشا في المحروسة». تعرف من الواقف قانون شراء العبيد هنا؛ حيث يُسمح بتجربة العبد واختبار طاعته وهِمَّته ومهاراته ثلاثة أيام، ويمكن رَدُّه بعدها إن كان به أيٌّ من العيوب الثلاثة المتفق عليها، وهي: الشخير في الليل، التبول خلال النوم، أو أيّ مرض طويل الأمد. وتفهم أن هناك مَن يشتري

الجواري ليؤجرهن لطالبي المتعة من المسافرين وعابري السبيل، ومتى حبلت الجارية دون معرفة المتسبب في الحمل تُضرَب حتى تُجهض. تبصر غلامًا بائسًا مكسور النظرات، يبدو زنجيًّا في الرابعة عشرة من عمره. تستعطفك عيناه بنظرات استجداء، تتوسلان إليك دون صوت أن تشتريه، تحصي ما في جيبك من نقود، فتجدها خمسة عشر ريالًا، وتسأل البائع عن سعره، فيجيبك قائلًا: «عشرون ريالًا». تقول له: «سأدفع خمسة عشر، ومعي هذه المسبحة، سأعطيك منها ثلاثًا». يوافق الرجل، لتأخذ الصبي رفيقًا لباقي الطريق. تسأله عن اسمه فيرد بابتسامة طيبة: «بكر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مـع «بكـر»

تمرون على قرية «عطبرة»، لينضم إلى الركب تاجر رقيق من القسطنطينية يُسمى «علي البرناوي». يبدو الرجل شبيهًا بـ«الكتخدا محمد لاظ أوغلي» في سمنته، وحمرة وجهه، وهيبته الطاغية. يقول لك جليسك المنتمي إلى الحراس العبابدة: إن هذا الرجل معروف بالغلظة الشديدة، وله صلات قوية بالأمراء والولاة في مختلف الأمصار، وإنه يُكثر من قراءة القرآن أمام الناس مُدعيًا التدين، على الرغم من أنه زير نساء، ومعروف عنه الغدر الشديد. يصطحب «البرناوي» في هودجه إحدى نسائه، التي يُقال إنها تصغره بخمسين عامًا، وهي وحدها تركب جملًا محملًا بالسكر والفاكهة، بينما تسير حولها عشر جوارٍ أخريات على أقدامهن، وعلى وجوههن نظرات بؤس وانكسار. يُخبرك الحارس بأن «البرناوي» له صوت مسموع لدى ولاة جميع البلدان في الطريق، وأن انضمامه للقافلة سُيسرع من خطاها. لا ينسى النمَّام الذي تجالسه أن يحكي لك عن «البرناوي» حكاية مفادها أنه سبق أن غدر بابنة عمه التي كانت ترغب في الحج قبل بضعة أعوام، فاصطحبها إلى مكة وهناك باعها باعتبارها جارية؛ حيث لم تفلح أبدًا في إثبات حريتها، ولم يشهد معها أحد من المشاركين في القافلة؛ خوفًا من سطوة الرجل.

تلاحظ في قرية «عطبرة» اختلاط الرجال بالنساء دون خوفٍ أو غيرةٍ من أزواجهن، وكثيرًا ما توقظكم في الصباح امرأةٌ ما لتسأل إن كان لديكم أساور أو مسابح تودون بيعها لهن. في إحدى المرات توقظك سيدة سمراء يحمل وجهها لمعانًا صافيًا لتسألك السؤال ذاته، فترد عليها سائلًا عمَّا يمكن أن تدفعه هي مقابل مسبحة من الخرز الأزرق، فتقول لك بابتسامة باهتة: «ما ترغب فيه سيدي»، وترفع ثوبها قليلًا عن ساقين سمراوين، فترتبك أنت، وتضحك هي وتُردد: «لا تخف شيئًا.. الرجال طيبون هنا، ولا يلومون امرأة أن تدفع ما يمكنها دفعه مقابل ما تريد شراءه». تفر منها بلطفٍ وتسأل عبدك الصبي عن ذلك، فيقول لك: إن كثيرًا من القبائل هنا لا تكترث لشرف نسائهن. تلاحظ أن بعض النساء يلبسن في أصابع أقدامهن خواتم نحاسية وبرونزية. يقول لك العبد الصغير «بكر»: «إن الناس في هذه الأنحاء متوحشون، يمارسون كل سوء: يزنون، ويسرق بعضهم بعضًا، ويقتلون في الظلام، ويثأرون من قتلة ذويهم بشرب دمائهم بعد ذبحهم». تسأله إن كانوا مسلمين، فيجيبك الصغير قائلًا: «هم مسلمون اسمًا؛ لأن ملوكهم خاضعون للحكام المسلمين في مِصْر والحجاز، لكنهم بالطبع ليسوا مثل أهل عطبرة أو شندي، لا يعرفون من الإسلام شيئًا».

تتشابه البلاد لديك، ترى القبائل الزنجية بعريها الإنساني البكر، وتُعاين مطامع النفس البشرية وانحطاط الأرواح إلى أقصى درجة. ترتسم أفاعيل «خلف»، ابن شهبندر تجار «إسنا»، في مخيلتك كدليلٍ دامغٍ على نكران الجميل ونكث العهد، لا يُمحى أبدًا من رأسك. تعاتبه يومًا، فاتحًا فرجة أمل في تصافٍ وتصالح نظرًا لمحبتك والده، لكنه يقابلك بوجهٍ قاتم، ويسبك مرارًا ويبصق في وجهك مرة، وأخرى، ثم يُهددك بالقتل إن عاودت الكلام معه، سائلًا الله جهارًا لك الهلاك قبل أن

تلحق بأرض الحجاز حتى لا يرحمك الله. تستغرب شأنه وتستبشر خيرًا باقتراب الرحلة من نهايتها بعد الإبحار إلى «جدة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرقــاء

تألف الرفقاء، يأنسون الوحدة، ويرسمون البهجة، ويمنحونك علمًا لا يعرفون مقداره. كل كلمة ينبسونها تُشكِّل معرفة في كُتبك ورسائلك إلى العالم، تستحق شُكرًا وتقديرًا. من «حميد» في «الشام» إلى «آدم» في «القاهرة»، و«محمد» في «النوبة»، ثم «بكر» في طريق «جدة»، تؤمن بأن الرفقة الطيبة نعمةٌ من الله.

ترى بمنطق عملي أن شراء «بكر» كان له فوائد كثيرة؛ فمن ناحيةٍ سيكون رفيقًا نافعًا، ومن ناحيةٍ أخرى سيمثل استثمارًا جيدًا؛ حيث اشتريته بالقليل من سوق النخاسة الكبرى، وستبيعه في الحجاز بسعر أعلى وتربح فيه. كذلك فإن وضع الأموال في سلعة تحتفظ بالقيمة أعظم كثيرًا من تركها مبعثرة في جيوبك عرضةً للسرقة وجاهزة للابتزاز.

تؤمن بأن الرق أمر فطري طبيعي؛ فهناك مَن دفعتهم أقدارهم إلى الأَسْر ليُستعبدوا طوال أعمارهم، وهناك مَن حمتهم يد القدر من الاسترقاق؛ فالعدالة لا وجود لها فعليًّا على هذه الأرض، لكن ذلك لا يعني ألَّا يحاول المسترق التحرُّر والمقاومة. تُدرك أن ثروات عظيمة جناها أوروبيون اعتمادًا على هذه التجارة المربحة، وتعرف بعض هؤلاء الذين فتكوا بأبرياء في غابات أفريقيا وأحراشها طلبًا للعبيد. تدفعك الأمانة إلى أن تُدوِّن في كتابك أن أهل الشرق من العرب أكثر ميلًا إلى عتق العبيد من أهل أوروبا، في بعض الأحيان تعرف أن رجالًا يوصون بعتق عبيدهم بعد وفاتهم؛ تقرُّبًا إلى الله، وفي القرآن نفسه حض مكرر على منح الأرقاء حريتهم؛ تكفيرًا عن الذنوب.

وليس أدل على ما وصل إليه العبيد من مكانة في الشرق من حكاية المماليك في مِصْر والشام؛ فهؤلاء العبيد المباعون حازوا القوة والنفوذ، وتمددت سطوتهم في القرون الفائتة لدرجة أوصلتهم إلى حُكم البلاد، فساموا الناس عسفًا وقهرًا، وفعلوا الأفاعيل. ويُحكى أن أحد رجال الدين في عهد ملوك الأيوبيين استاء من فساد أمراء المماليك وظلمهم، فأصدر فتوى بإلزام الملك بجمع جميع المماليك وعرضهم في السوق؛ لأنهم تم شراؤهم بأموال الناس، ولما كان ذلك الرجل محبوبًا من العامة، فإن الملك امتثل لكلامه وأعلن شراءه المماليك مرة أخرى وإعتاقهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

الجاسوس

صمت مؤقت

تعيش في ذهن الروائي كعادة يومية، يُطل عليك كل يوم صباحًا، يُعيد قراءة ما كتبه بشأنك، يحذف، ويُعدِّل، ويُبدِّل كلمات بأخرى. يستعيد النص من بداياته ساعيًا إلى اتساق الأسلوب وتجانس الشخوص. يحاول التأكُّد من ملاءمة المعروض في أول النص مع وسطه، ثُم يُمرن نفسه على الأسلوب ذاته في الكتابات التالية. يضع نفسه مكانك، يُفكر كـ«لويس بركهارت»، أو «إبراهيم بن عبد الله المهدي»، أو أيًّا من كنت. يتخيل لو كان مكانك ما يفعل، ينتابه تصوُّر عام بأنك كُنت تُفكر في صورتك، وأنت تعبر البحر الأحمر سعيًا إلى الحجاز. يتساءل مثلما فعلت أنت إن كان قلبك مُعلقًا بأستار الكعبة فعلًا، هل شعرت بأيِّ حنينٍ تجاه بيت الله؟ هل فكرت أن الحج كله مُجرد طقس لا معنى له ولا فائدة سوى لدى مَن يعتقدون أن الحاج يُغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ يُفكر إن كانت حجتك مقبولة من الله أم لا، وإن كانت نفسك قد راق لها جوار «النبي»، هل صليت عليه فعلًا وقولًا؟ وهل شعرت أنه يُكلمك؟ هل كنت تتظاهر بالسعادة والرضا وأنت تطأ بقدميك الأراضي المقدسة؟ وإن كانت الإجابة بنعم، فهل تلك السعادة كانت لأدائك ركنًا من أركان الإسلام، أم لدخولك جاسوسًا إلى منطقة محرمة، لترى وتشاهد وتكتب؟ يُفكر ويُفكر، وتستعبده الحيرة، ويفترض افتراضات ويمحوها، ثم لا يصل إلى شيء؛ فهناك علوم تبقى غيبًا لا يُكشف عنه إلا يوم الحق الأعظم، يوم تتوارى الحُجُب، وتسقط الأستار، وترى الناس سكارى وعراة.

يتوجع كاتبك من حصار الأسئلة، يحترق بغياب اليقين، يتململ ويضيق ذرعًا بأحاديث الاحتمالات، يكتب مقالًا طويلًا في مديح الصمت قائلًا:

«الصمت خير، سحر، لذة، لا كلمات تريحك، ولا عبارات ترضيك، لا هسهسة ولا حفيف يُخرجك من تأمل الكون وانقلاباته وتبدلات الحياة وعجائبها، لا ضجيج يثير أعصابك ويرجرج جوارحك، ولا أصوات نشاز تثقب أذنيك، وتطلق النار على ذائقة طرب كانت يومًا ما جميلة».

يقول الأديب الجزائري «الطاهر جاووت»: «الصمت موت». ليس صحيحًا، الصمت حياة، حكمة، استراحة المحارب الذي يقف وحيدًا في العراء أمام جيوش القبح. الصمت ضرورة تعبوية، فرصة لالتقاط الأنفاس، لحظة للمراجعة، هُنيهة لإعادة الحسابات، رُبما زُهدًا في اللاشيء الذي قد يتصوره الحمقى غاية النجاح والفلاح، وربما قناعةً بأن القبح سيبقى قبيحًا، وبأن الباطل لن يُغير منطقه، وربما تسليمًا لله بأن كل أقداره مقبولة في رحلتنا المؤقتة على الأرض.

الصمت سلاح لمقاومة العالم المتحجر المنفلت الجامح بسياساته وساسته ورجاله ونجومه وأعاجيبه وغرائبه، قبضة تحدٍّ في وجه الظلم والقهر والفساد، رفض عاقل لأمور كريهة وأفعال مستفزة، إنكار قلبي لبشائع وجرائم وخطايا إنسانية.

الصمت ضرورة حياة، لا تُعلق، لا تغضب، لا تفتح فمك، استمتع بالتأمل في خلق الله، تلذذ بالتدبر فيما وراء الفعل، انتشِ بالفرجة على تقلبات الناس، ارصد سقطات

النفوس، وأحصِ حالات التعري والانحدار حولك، اقرأ خرائط التلون والتحول، ستسرك الفرجة.

الصمت يُكتب صمتًا، نقاطًا فارغة، لا شيء في لا شيء، تعبيرًا بلا حروف، تعليقًا دون تعليق.. على الرغم من ذلك فإنه أقوى من قصائد ذَمٍّ، وأَحَدُّ من بيانات احتجاج، وأبقى من مقالات نقد، أفضل في كثيرٍ من الأحيان من خطابات برلمانيين وسياسيين وقادة.. هو من ذهب وفضة وألماس.

تخالفه بالطبع، تستغربه، تخاله قلقًا، مترددًا، تعارض كلماته، ترى أنها نوبة حيرة طارئة، حالة ارتباك مؤقتة. الصمت موت بالفعل، لا صمت أمام ما تموج به الحياة من معاناة وبهجة، مؤامرات وأحلام، أوجاع وأفراح، حكايات وحكايات. الصمت ليس علاجًا، الصمت موت، والحياة كلام وحروف وكُتب وروايات. هو يكتب عنك الآن؛ لأن هناك ما يدعوه إلى ألا يصمت، ينفجر بما يملؤه من مشاعر، من أسئلة، حتى لو كانت بلا إجابات لديه، ينزف كلماته؛ لأنها لا يُمكن أن تظل حبيسة داخله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«قــارون جــدة»

يتفرق رفقاء القافلة كأعداء ألِدَّاء، لا ترى أحدًا بعد أن يستقبلكم الحمالون وسائقو عربات النقل وسماسرة الخانات والبيوت الفارغة. يختفي «علي البرناوي» ونساؤه، ويغيب عن ناظريك «خلف»، ابن العلوان، الذي يلعنك دون أن تفعل له شيئًا، والحراس العبابدة الذين رافقوكم من «إسنا».

تستقبلك مدينة «جدة»، بقيظٍ مُهلكٍ يتحالف مع أوجاع غريبة تزورك بين الحين والآخر، نتاج الصيف، والسفر، ومخاوف الرحلة الخطرة. تنظر إلى ما لديك، فلا تجد سوى بضعة قروش لا تفي باستئجار غرفة صغيرة لأيام قلائل، تسحب عبدك الصغير إلى السوق، وتبيعه سريعًا دون إبطاء، قانعًا بالسعر المعروض بعشرين دولارًا وكيلتين من الذرة والشعير. تعتذر له بابتسامة تطييب خاطر، داعيًا أن ينال عطف المشتري القادم، مقابل إخلاصه وتفانيه.

تذهب إلى شيخ التجار الأكبر في «جدة» المعروف، والمُسمى في القاهرة ودمشق بـ «قارون العصر»؛ نظرًا لثرائه، لتعرض عليه صفقتك المالية. يستقبلك الرجل بملابسه الفضفاضة، ولحيته الكثة، وعطره الفواح في حانوت صغير يتوسَّط سوق العطارة، وتُخبره أنك في حاجة إلى عقد صفقة كبرى. تُطلعه على فرمانات «باشا مصر» لك بالأمان، وتقدم له سندًا ماليًّا موقعًا من القنصل الإنجليزي بالقاهرة يضمن أداء أيّ مبلغ يحمل توقيعك. تقول له بعد أن يدعوك إلى الجلوس:

«أنا في حاجة إلى استدانة مبلغ ثلاثة آلاف دولار، سيُرَد لك عند وصول قافلتك إلى القاهرة بموجب هذا السند في الشتاء القادم أربعة آلاف دولار».

يُقلب «قارون جدة» السند أمامه، ليتحسس جلدًا يكاد يبلى، ويطلب لك قهوة عربية، ثُم يُفكر قليلًا ويقول لك:

«هل هي المرة الأولى التي تقدم فيها إلى الحجاز؟».

«نعم، هي كذلك».

«هل تنشد البقاء للحج؟».

تومئ برأسك للأمام، وتقول في جدية:

«لهذا قطعت المسافات».

تبقى النيات حبيسة القلوب، لا يعلمها سوى الخالق الأعظم.

«من أيِّ البلاد أنت يا سيد إبراهيم؟».

«من حلب».

يصمت كثيرًا، وكأنه يُفكر، ثُم يعيد تقليب السند بين كفيه، ويقول لك متظاهرًا بعدم الاهتمام:

«لكن ماذا أفعل إن لم يُقَبَل هذا السَّنَد في القاهرة؟».

«سيُقْبَل حتمًا.. أنت تاجر كبير وتعرف ما يعنيه ختم القنصلية الإنجليزية».

تمنحه نظرة ثقة، وترشف قليلًا من القهوة متفاديًا آلامًا موجعة تُهاجم معدتك. يقول لك بعدم اكتراث مقصود:

«للأمانة أنا لم أختبرها، لكن بكل تأكيد هي مقبولة».

يصمت قليلًا ويعود للسؤال:

«لكن أخبرني.. لماذا يتعين عليهم الدفع لك؟».

«بيننا معاملات مالية منذ سنوات».

يهز رأسه مبديًا التفهم، وتشعر بجفاف في الحلق، فتطلب كوبًا من الماء، يشير إلى الخادم بجلبه، فيفعل.

يقول لك بعد أن تشرب عقب رحلة تقرُّس في وجهك:

«أيها السيد الغريب، أنت لست من حلب، ولا من الشام كله، لا يمكن لشامي أن يشرب ماءً بعد فنجانٍ من القهوة، العرب كلهم لا يمحون مذاق القهوة من أفواههم».

تسايره بحرص كي لا تستفزه؛ فهو أحد الأبواب الممكنة للحصول على المال. تقول له بهدوءٍ واتزانٍ:

«ملاحظتك في محلها يا سيد عُمر، لكن أنا في الأصل لا أشرب القهوة؛ لأني أعاني أوجاع المعدة، ونصحني الطبيب بذلك، لكن أدب استضافتك دفعني إلى قبول القهوة، وطلبت الماء لأخفف آثارها».

يهز رأسه وكأنه يقبل بالتبرير، ثُم يُفكر قليلًا ويقول لك:

«اسمع يا سيد إبراهيم.. لقد تعودت الأخطار، يمكن أن أقبل بسندك، لكن لا بُدَّ من أن ترفع قيمة المبلغ عند الاسترداد إلى ستة آلاف دولار.. أنت ترى الحروب الجارية كل يوم، ولا ضمان لشيء. فكِّرْ في الأمر، وإن قبلت تعالَ أخبرني صباحًا لأدبر لك المبلغ».

تكره الاستغلال والمستغلين، تأبى أن يُلْوَى عنقك تحت قدم تاجر أو سمسار، تفضِّل بحكم تربيتك على الإباء ألا تخضع لجشعٍ أو تنحني لصاحب سلطان. باسم «بركهارت» الأكبر ترفض، ترسم تكشيرةً استياء فوق وجهك المرهق، وتقوم مغادرًا وفي رأسك يقف «جيدوني» أمامك مشجعًا في إباء.

تراود شوارع المدينة الصاخبة بالتجار والغرباء؛ بحثًا عن ألفة تشابه القاهرة، فلا تجد. تستغرب الوجوه المتلونة حولك، لتسأل إن كانت القلوب تحمل التلون ذاته. تتابع ببصرك حوانيت الأقمشة والملابس والمسابح المتجاورة في الطريق إلى الباب الرئيس المسمى باب المدينة. تعاين المقاهي الصغيرة مُلاحِظًا خلوها جميعًا من الحكواتية الذين سبق أن رأيتهم يملؤون مقاهي القاهرة ودمشق.

تَتابع محلات التبغ وهي تضع في الصدارة لفائف من التبغ مكتوبًا عليها «تبغ فارسي وتركي»، وتلاحظ أن معظم الباعة فيها من الهنود، وقليلين منهم يحملون البشرة البُنية، لكن الجميع يتحدث العربية بطلاقة.

تكتشف دون مرشد كيف تنتشر العشش والأكواخ الصغيرة التي تؤوي الفقراء والشغيلة بجوار البوابة، وتبدو بعض البيوت الصغيرة، التي تحمل أبوابها أختامًا عربية، مشابهة لبيوت بائعات الهوى في حلب. تُدرك أن الناس في كل مكان لا يمكنهم الاستغناء عن الآثام الجسدية. تجلس على المقهى وتسأل جليسًا لا تعرفه عن تلك الأختام فيصدق ظنك، ويقول:

«هي بيوت الخواطي.. وهذا الختم وضعه الشريف غالب، حاكم مكَّة وجدة، ليُحدد لعمال الضرائب أماكن التحصيل».

تطلب نارجيلة بدخان مصري اعتدته، وتقول متظاهرًا بالأسى:

«كيف يكون ذلك في بلاد الحجاز؟».

يرد جليسك بنبرة حكيمٍ:

«وماذا في ذلك؟ الفواحش ستبقى إلى يوم القيامة، وهؤلاء جلبهم الأتراك، وهم في الغالب معظم زبائنهن».

تأخذ نفَسًا طويلًا من الدخان، لتسمع الجليس يستكمل حكيه:

«اسمع يا أخي، العرب لا يزنون ولا يحبون الفواحش، وهذه البيوت مخصصة للزائرين الغرباء من تجار قادمين من مِصْر والشام والسودان وتركيا، ومعظم النساء فيها جوارٍ يؤجرهن أصحابهن للتكسب».

ويواصل الرجل حاكيًا:

«عندما احتلت جيوش الوهابيين المدينة، أغلقت بيوت الهوى، وحرمت تجارة الدخان، وهدمت كثيرًا من المساجد والأضرحة، وتعطلت كثير من الأشغال، لكن كل شيء استمر كما هو سرًّا، حتى دخل الباشا الكبير، بمعاونة الشريف غالب، قبل أن يغدر به ويسجنه، ثم يرسل به إلى بلاد الترك».

تعرف القصة كاملة؛ تابعت وأنت في «إسنا» وصول «الشريف غالب»، حاكم «جدة»، إلى «المحروسة». تدرك أنه لم يكُن هناك بُدٌّ لدى «محمد علي» سوى أن يفعل ذلك؛ فـ«غالب» تحالف مع الوهابيين، ثم مد يدًا لـ«محمد علي»، ثم ترك رجاله يُذبحون، ولم يُبقِ ذرة ثقة بقلب حليفه. دعاه «الباشا» إلى مأدبة – كعادته ـ ثُم جعل رجاله يقبضون على حراسه واحدًا واحدًا، ثم على أبنائه، ثُم أحضر أحد أقاربه وولَّاه مكانه، وفتح خزائنه ليجد كنوزًا قُدِّرت بـ٢٥٠ ألف دولار! تلك حكاية مكررة في الشرق، حكام يصعدون ويتجبرون ويمتلكون ما لا يمتلكه أحد، ثم يهوون إلى قاعٍ سحيقٍ، فيعرفون الذل ويذوقون الهوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نـهايـة «سعود»

تردك الأنباء بوفاة «الملك سعود بن عبد العزيز». يقولون: إن «الباشا» أمر بتوزيع الحلوى في الطرقات؛ ابتهاجًا. يردد بعض مُنافقيه أن الله عاقب الكافر الضالّ بحُمَّى مُميتة عجّلت برحلته إلى جهنم. لكنَّ الخبثاء يُرددون في الجلسات المأمونة أن الحُمَّى لا تُسَلَّط على الكفار فقط، وأن النبي «مُحمد» مات بها.

ستكتب أنت عن «سعود بن عبد العزيز» في كتبك ورسائلك، ستحاول أن ترُد الصاع صاعين للباشا الكبير الذي يشمت في موت الرجل، سترسم «سعود» رسمًا يليق بشخوص أسطوريين يبجِّلهم الناس إلى الأبد، ستقول عنه ما تراه يستحقه دون تردد، ستكتب: كان ملكًا بسيطًا، طيبًا. بالطبع ليس كباشا مصر في غطرسته وقسوته، ولا كولاة الأتراك في فسادهم. يجلس الملك، الذي لا يبدو ملكًا، كل يوم بين الناس في المسجد الكبير في «الدرعية» من الصباح وحتى العصر، يلتفُّ بالعباءة الزرقاء فوق قميص أبيض، ويُغطي رأسه بغترة مغموسة في عطر العنبر، يبتسم للجميع، ويبدو وجهه رائقًا كطفلٍ بلا خطايا، تشع من عينيه نظرات رضا غريبة قَلَّمَا تبصرها في هذه البلدان. يستمع الرجل باهتمامٍ إلى رجال كثر يتحلقون حوله حلقات يقرؤون القرآن ويروون الأحاديث النبوية، يبتسم في وجوه الجميع، ويستمع إلى الشكاوى.

ستخُطُّ بيمينك حكايات عن تديُّن الرجل وذكائه وبساطته في جذب الناس، ستدَّعي أنه كان يقبل بزوار لا يعرف مَن هُم، ويُطعمهم الأرز ولحم الضأن والتمر، ويمد يده بحفنات من الأرز في أفواه ضيوفه. ستقول: إنه كان يخرج إلى الطرقات ومعه عصاه ليدعو الناس في الأسواق إلى الصلاة، ويضرب من يتقاعس. ستُردد ما حكاه بعضهم لك من أنه كان يُقيم العدل، ويوزع الصدقات على الفقراء.

ستكتب أنه كان يُركز دعوته على هدم الأضرحة، ومنع التبغ، وإلزام الناس بالصلاة في المساجد، ستذكر ما رواه لك أحد المكيين بأن الوهابيين عندما استولوا على مكَّة لم يقتلوا أحدًا، وسمحوا بفتح الحوانيت، ثُم هدموا بعض القباب، منها: قبة «السيدة خديجة»، لكنهم سرعان ما استسلموا أمام مباغتة «الشريف غالب» ورجاله. ستقول كثيرًا عن سجاياه، لكنَّ كاتبك المستقبلي لن يعجبه كلامك، لا يُعجَب الرجل بخلط الدين بأمور الحكم، وسيصف ما تقول في روايتك بأنك خالفت منهج التدقُّق، واستسلمت لأساطير الحكي المُحيط.

لا يهم يا «لويس»، لا يهم يا «إبراهيم» رأي الروائي الذي يُعلي دومًا الخيال على الحقائق؛ فدعه يكتب ما يريد.

سيموت «سعود» في سنة ١٨١٤م وسيخلفه ابنه «عبد الله»، وسيسمي الناس من بعدك «سعود بن عبد العزيز»: «سعود الأكبر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غربـــاء

لا تنفد سُبل العيش، تزور قصر الشريف الصغير، لتسأل عن «إبراهيم أغا» وحرمه، فيخبرك الحرس أنهما في «المدينة» بعد أن أمَّره «طوسون باشا» عليها. يعرض عليك أحد الوجهاء بنبلٍ غريبٍ أيَّ مساعدة تطلبها، ويقدم نفسه باعتباره أحد أطباء القصر، واسمه «يحيى أفندي». يبدو الرجل شخصًا مؤتمنًا، يتحدث العربية والتركية بطلاقة ويتسم بالتواضع، يضحك في وجهك كصديق يعرفك قبل سنوات وسنوات. تعرض عليه حاجتك إلى المال، واستعدادك لتسليم ذويه في «المحروسة» أيَّ مبلغ يدفعه لك من خلال السَّنَد المختوم من القنصلية، فيوافق على الفور ويتفق على إقراضك مبلغ ثلاثة آلاف دولار، بقيمتها نفسها بشرط إتمام الدفع بمجرد وصول السَّنَد. ويقول لك إنه يريد إرسال أموال لأسرته؛ لأنه متغيب عنهم منذ سنتين، وإنك هدية الله له لتحقيق ذلك. يأخذ السَّنَد ليرسله مع أول عامل بريد مغادر خلال أيام، ويمنحك أموالًا لا تحصيها في زكيبة قماشية، ومعها بعض القطع الذهبية. يسألك «يحيى أفندي» إن كان «الباشا» يعلم بقدومك، فتستبعد ذلك، فيخبرك أنه يجب إعلامه، مكررًا أنه رجل عظيم يُحب العلماء والمغامرين ويُجزل لهم العطاء. يقول لك، في تلقائية غريبة، إنه سيرسل له في «الطائف» ليُخبره بقدومك، متوقعًا أن يدعوك إلى لقائه. تزورك الرهبة وتتذكر نظرات «الكتخدا» المخيفة وأنت في «القاهرة»، وما تبصره من أعيُن تلاحقك بعد ذلك في «إسنا» و«أسوان». تشعر أن أعيُن «الباشا» ما زالت تلاحقك في كل مكان تذهب إليه، وأن ثَمَّةَ مَن يتتبع خطواتك من السوق إلى البيت، ومن المقهى إلى قصر الشريف.

تقول لنفسك إنك مخلص لما تعتقد، وقانع بما تفعل خدمةً للعلم والمعرفة. أنت تقرأ أماكن غير مقروءة، تخلع أستارًا مظلمة، وتفتح أعيُن العالم على أناس مختبئين في كتب الماضي. سيقولون عنك: جاسوس لعين.. فليكُن، لكن جاسوس للمعرفة وللعلم؛ فكل حرف تكتبه سيُنشر فيما بعدُ، وسينير طرقًا كانت مظلمة لبني البشر. وحتى أولئك الذين تفحصهم ببصيرتك، فإنك تترك لهم زادًا من العلم والمشاهدات والمعارف تفيدهم في كتابة التاريخ، أو في استقراء المجتمع.

تكتب لـ«بانكس» أن «جدة» هي مدينة الغرباء، تجار من كل بلد ولون، أحباش، هنود، يمنيين، مصريين، شوام، ومغاربة. تعتبر التجارة هي المهنة المشتركة للجميع، وتتصدر الحوانيت مقاعد حجرية يُسمح للزبون بالجلوس عليها لمعاينة البضاعة القادمة من «الشام» و«مِصْر» و«أفريقيا» و«اليمن». تُقدم جميع المقاهي القهوة الإفرنجية واليمنية على السواء، ويُقبل عليها الناس بإفراطٍ يصل إلى حد شرب عشرين فنجانًا للرجل في اليوم الواحد. ويشيع التبغ بأنواعه المختلفة، وهناك بعض المقاهي التي تُقدِّم الحشيش لتدخينه في الجوزة والبوري. وعلى أطراف المدينة يبيع البعض الفول المصري ليأكله الناس كل صباح ممزوجًا بالزيت أو السمن. أما الحلويات فيحتكر الهنود صناعتها وبيعها، ومثل جميع بلدان الشرق، فإن الحلاقين هم أطباء الأزقة والأحياء الفقيرة؛ حيث يقومون بالحجامة والختان، ومداواة الجرحى، ووصف الأعشاب للمرضى.

تَلاحظ أن النساء لا يكشفن وجوههن مثلما هو الحال في مناطق كثيرة في «مِصْر» و«الشام»، لكنهن يتحدثن إليك في بعض الأحيان دون حرج، فتقول لك سيدة تسكن بجوارك دون أن تراها أبدًا، من خلف شباك خشبي كبير يطل على جلستك الصباحية أمام البيت، إنك تشبه ابنها الغائب في مِصْر مُنذ اثني عشر عامًا؛ إذ ذهب يومًا مع إحدى القوافل لشراء عسل وتوابل وأقمشة، لكنه لم يعُد من يومها. تُخمّن سيدةُ الشباك المخفية أن تكون إحدى النساء الفاتنات في «المحروسة» قد أوقعت بابنها الغضِّ، واستبقته لينسى أمه العجوز، ويتركها للوحدة والكوابيس. تحاول أن تُطمئنها بمثل شعبي يقول: «كل غايب حجته معاه»، لكنها ترفض التبرير، مؤكدةً أنه لا حجة لشخص في الكون ـ مهما كانت ـ تبرر له ترك أمه، وهو وحيدها لتواجه تقلبات الزمن وأمراض الكبر.

تُذكرك السيدة، مع الفارق، بـ«سارة روهنر»، الجميلة الأنيقة، ابنة العراقة ووريثة المجد، بحُنُوِّها ورِقَّتها وتشجيعها الدائم أن تجعل منك فارسًا نبيلًا، وإنسانًا عظيمًا. تغيب عنها سنواتٍ طويلة، تتركها لانقلابات الزمن، ونكران البشر، وأوجاع الفقد، دون كلمة اعتذار. تُسامحك، وتسامحك وتقبل لك كل عذر وعذر. تراك جديرًا ببنوَّتها وبانحدارك من نسل «بركهارت» الطيب. تصطدم بمواجع الفقر وذهاب السلطة وفقْد الأحبة، فلا تطاردك برسائل العودة ولا تلوم ابتعادك، وإنما تُشجعك على مزيدٍ من الإخلاص لما تحلم به وما تعمل عليه. تراها كثيرًا في منامك كما كانت دومًا حانية وذكية وراضية. تبتسم لك فتجيبها ببسمات مماثلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة الغبار

«أنت مطلوب للمثول أمام حضرة باشا مصر المعظم». يصل إليك مبعوث الرجل الكبير داعيًا إياك إلى تجهيز راحلتك ليصطحبك إلى «الطائف»؛ حيث تنعم بلطف وهناء العيش في جوار «محمد علي»، ذلك الداهية الذي حَيَّر الألبابَ مَكرُه، وأبهرت النفوسَ فِطْنتُه.

يبدو العبد المصاحب صامتًا بما يليق بعبدٍ في خدمة والٍ جبارٍ مثل «الباشا»، معروف عنه أنه لا يكترث لروح أو يحمل قلبه ذرة شفقة. سُمرتُه الجافة تُرهبك وتوحي لك بخشونة متغلغلة في الأوصال.

تُعد كل شيء، وتنمو برأسك سنابل الفضول لاستكناه عقل الداهية الأكبر. تؤمن بأن معظم الطغاة والقتلة يظنون أنهم أشد مكرًا من خصومهم، لكنهم ليسوا سوى منعدمي الأخلاق، غائبي الضمير. لو كان «باشا مصر» يحمل رأس ثعلب وقلب أسد وروح قط، كما يقولون، لما لجأ إلى الغدر بـ«عمر مكرم» و«شاهين بك» و«لطيف باشا» و«أحمد لاظ» و«الشريف غالب»، وكل مَنِ وضع أصابعه في كفه، وقرأ فاتحة الكتاب على الوفاء وصدق العهد. يُغالبك كُتَّاب التاريخ من بعد موتك ليبرروا للرجل شنائعه بدعوى أن العصر عصر غدر، وأن مَن لا يَغدِر يُغدَر به. تتشبث بما ترى وتُصر على ما تعتقده حيًّا وميتًا، وتقرر أن أيَّ شيء في الوجود لا يساوي فساد الخلق. ما الملك؟ ما الصولجان؟ ما النفوذ الوسيع؟ ما الحرس والخدم والعبيد والجواري والبهلوانات؟ ما الذهب والفضة والكنوز إن فسدت لدى الإنسان روحه؟

تتذكر وضاعات البشر في كل مكان، تلامس ذاكرتك حكايات الطاعمين على جميع الموائد في سويسرا وألمانيا وإنجلترا. تُفكر فيما حدث لأسرتك؛ لأنهم أبوا التزلف والسجود للفرنسيين، وتفتخر أنهم فضَّلوا الفقر والهجرة على أيِّ انحناءٍ لصاحب قوة، وزرعوا فيك الكرامة والاعتزاز بالنفس.

تبدآن رحلة الغبار بزادٍ قليلٍ، وماءٍ كافٍ، تنتابك أوجاع متباعدة ووهن عامٌّ، لا تلبث أن تستبعده. تسأل مبعوث «الباشا»، ذا الجسد الفارع والبشرة السوداء، إن كان يعرف مكان «إبراهيم أغا»، فلا يُجيبك. ترفع صوتك ظنًّا أنه لم يسمعك، فيهز رأسه بنفي المعرفة. تسأله إن كان «الأمير طوسون» موجودًا في «الطائف» مع والده، فيعلو صوته وكأنه يزجرك عن تكرار الأسئلة: «لا أعرف». تُخبره أن الطريق موحش، والشمس حارقة، فلا يرُد. تزداد مللًا وتُفكر فيما يريده منك «الباشا». تسأل إن كان يُريد الفتك بك، مثلما فعل مع كثيرين، ثُم تتذكر أنك لم تفعل له ما يُغيظه أو يغضبه، لكنك تتذكر أن كثيرين لقوا حتفهم ولم يؤذوه، فمجرد الشك أو الخوف من عدو مستقبلي يُبرر إقدامه على القتل، ثُم تظن أن معرفته بكونك أوروبيًّا، وفهمه طبيعة علاقتك بإنجلترا، ربما يُحصنانك. تقول لنفسك: إن هؤلاء الأتراك ومَن هم على شاكلتهم لا يأبهون كثيرًا لأرواح بعضهم البعض، لكنهم يفكرون ألف مرة عندما يتعلق الأمر برجال أوروبا.

يدور برأسك ما قد يحدث لـ«نجلاء» لو علمت بموتك، ربما انتابتها صدمة الفراق فسقطت مغشيًّا عليها، وربما اعتصر قلبها الحُزن فخرست، أو سكن جسدها الرقيق، سكنتها الوجيعة ولسعتها حُمى الفراق، فطلبت الموت راحةً وبحثًا عن رفيقٍ فارقها بغتة ودون تحضير أو تمهيد، ربما كانت أكثر جَلَدًا؛ لأنها عاشت تجارب شبيهة، فحزنت أيامًا وأيامًا ثُم تمالكت ذاتها واعتادت الحياة، وبحثت عن زوج رابع تلوذ بحماه، وتأكل معه، ربما بقيت لديها ذكرى رفيق طيب عاملها بالحسنى، ولم يستغلها أو يُسئ إليها. تسأل نفسك إن كانت حبلى، وإن كان سيخرج للكون «بركهارت» آخر يجوب الأرض بحثًا عن علم وتعارف بشعوب وقبائل تبدو غريبة. تتذكر مذاق قُبلة الوداع، ثُم تشعر بلذاذته في رُضَابك، فتبتسم ابتسامة رضا.

تبدو لك لحظات الوداع مريرة، عندما غادرت «لايبزج» تاركًا مُهجة القلب الصافية تواجه تقلبات الزمن وأفاعيله وحدها، بعد أن اعتبرها أبوها بغيًّا. تُفكر في وجه «مارغريتا» كيف شحب وذبل وغادرته البهجة إلى الأبد بعد أن سافرت بحثًا عن مجدك ومجد عائلتك المُهدَر. ترنو إلى عينيها لتقرأ فيهما عتابًا ملائكيًّا عذبًا، لتسأل إن كنت ستراهما مرة أخرى لتعتذر أم لا.. يلوح لك وجه معلمك «يوهان بلومنباخ» بجديته وصرامته وهو يودعك موصيًا بأن المعرفة تستحق أن نعيش ونموت لها.. هل كان يقصد ما يقول، أم كان يُحفز خلايا الشباب لديك لتنطلق إلى أمل شخصي له لم يجد الشجاعة والمقدرة على تحقيقه؟ ترى «مستر لوي»، قنصل «مالطة»، بسمته الهادئ، وأفكاره الانتهازية، وتحذيره المتكرر بألا تثق بأحد، ثُم يطالعك وجه «حميد» الشامي، بإخلاصه وأمانته وحسه الإنساني، فتودع فيه رفيقًا مُسليًا. تمر برأسك عشرات الوجوه ذات الملامح المستغربة لتبصر الخير والشر وكليهما معًا.

تستقبلكما أشجار نبق متجاورات بعد ساعات من السعي في صحراء قاحلة لترسم ظلالًا من التنعُّم، وفرصة للراحة، تُخرج ورقًا لترسم أشكال الصخور الملساء غريبة الشكل التي تُحيط بالمكان، وتلاحظ اختلافها عن صخور «النوبة»، ثُم تتذكر صخور «الشام» الناعمة ذات الحوافّ المدببة لتتبس كما يردد أهل هذه البلاد كلما أعجبهم مشهدٌ طبيعيٌّ كلمتَي «سبحان الله»! ما خُلق هذا الكون باطلًا، وما التنوع والتعدد إلا دليل يُبصره العقلاء على قدرة الخالق. تُفكر أن إرادة الله ترعاك في مسعاك، تُحصنك ضد غدر البشر وشُكوك المتوجسين، تحملك نحو ما تُريد سعيًا إلى العلم وللفهم، لست جاسوسًا كما زعموا في زمنك ومن بعد زمنك، إنما أنت طالب علم.

تُوقظك فتاة صغيرة، وتُخبرك أن أمها تسألكما الدعاء وتُهدي لكما سطل حليب، وثلاث حفنات من اللوز والزبيب. تُبصر في وجهها طفولة بريئة ورضًا وسكونًا يؤكد لك أن شرور الأرض لا تُفزع مَن يتملّى هذا الوجه الطيب. يقول لك المرافق الذي لا تعرف اسمه إنكما على مشارف قرية «جنيلة»، وأهلها معروفون بالكرم الشديد على الرغم من فقرهم المدقع. أخيرًا تكلَّم المبعوث الصامت. تنظر في عينيه وتسأله عمَّا بقي من الوقت، فيجيبك: «سنصل ليلة رمضان الأولى». ثُم يهمُّ بسؤالك عن شيء، لكنه يتراجع مرة أخرى. تقول له:

«لديك سؤال؟».

«لا شيء».

«يُحزنني أن يخاف رجل من أن يسأل سؤالًا يطرق باب رأسه».

يهز رأسه ونظرات الريبة تتجول في وجهك، ثُم يقول بعد تفكير:

«نعم. معك حق».

«ما سؤالك؟».

يرسم بإصبعه الغليظ خطًّا على الرمل، ويقول بعد أن يجعل من سبابته ووُسْطاه رجلين يسيران على الخط:

«الطريق من جدة إلى الطائف معروف، ويفترض أن يمر بمكَّة، لكن الأوامر التي تلقيتها هي أن أتجنَّب أن أدخل بك إلى مكَّة، وأن أعبر من خلفها، وهو طريق أطول كثيرًا وأكثر جهدًا. وهذا أمر غريب بالنسبة لي!».

تسأله:

«وماذا يعني ذلك؟».

يفكر لحظات، قبل أن يُبادر قائلًا:

«هناك أمر من اثنين».

يصمت قليلًا كمن يُحضِّر كلامًا يختار كلماته بعناية، ثُم يواصل قائلًا:

«إما أن يكون هناك خطر وشيك في مكَّة يرغب الباشا في تجنيبك إياه، وهذا يقلقني جدًّا، خاصةً أنني من أهل مكَّة، وإما أنك كافر وهو يعلم بذلك، ولا يسمح لأيِّ كافر بدخول أم القرى، وهذا أيضًا يقلقني».

صمت دهرًا ونطق سُمًّا.

الشك، الشك، الشك.. وراءك في كل طريق، لعائن تحاصرك من كل مكان، يتكرر شعورك بالغيظ، بالخوف، بالوهن، تُفكر أن ذلك العبد يحاول إخافتك، يتعمَّد ذلك. ربما درَّبوه على الفعل، ولا شك أنه يقصد ما يقول. الاختيار الثاني هو الأرجح، فـ«الباشا» يريد أن يُخبرك أنك لست أهلًا للدخول إلى مكَّة، وكل رجال «الباشا» يحملون تصوُّره. ما دام الرجل رآك كافرًا فأنت كذلك، وما دام قد حسبك في زمرة الجواسيس فليكن.

لا تلتفت لأحدٍ، وأكمل طريقك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زائـر مباغت

يعبر زمانه إليك، يوقظك من غفوتك، ويتمشَّى معك بعيدًا عن مُرشدك. تتفرَّس في وجهه فتُبصر خبثًا منزرعًا مُنذ سنين، وتلتقي عينيه فتشعر بأسرابٍ من الطيور الرقيقة والجارحة تتشابك فيما بينها، فلا تعرف إن كانت مقاصده طيبة أم شريرة. يسألك إن كُنت مستعدًّا للقاء داهية العصر، الذي يَخدع ولا يُخدع، ويَغدر ولا يُغدر به، ويتباهى بموت القلب وتعطل الأخلاق. يُخبرك ذو العينين العسليتين، الذي يكتب حكايتك، أنه يكره «الباشا»، لله وفي الله، ويمقته، ويستسخفه، ويحزن أن يسميه كُتَّابٌ ومفكرون وعباقرة في أزمنة بعد موتك «باعث نهضة مصر الحديثة». يقول لك «مصطفى عبيد» في مكرٍ:

«أما تخشى أن ينصب لك الباشا فخًّا؟ أما تخاف أن يذبحك غيلةً ويُنكر وجودك؟».

تتفكَّر لحظات ولحظات، وتسري رعشات خفيفة في أوصالك، تُبصر يد المشاعلي، وهي تهبط فوق عنقك بسيف ثقيل صَدِئ، أو حبلًا غليظًا يلفه رجل قوي البنية حول عنقك فيعتصره عصرًا، لكنك تستجمع شظايا شجاعة مُستترة في لحمك، وترد:

«يا هذا، لا أجد حتى الآن سببًا لدى الباشا للغدر بي، لم ألتقِ خصومه من المماليك أو غيرهم لأسرَّ إليهم بأمرٍ، أو أدبر معهم شرًّا، لَمْ أحرضْ عليه الناس في المحروسة أو أدعهم إلى الثورة على المظالم، لم أكتب كلمة سوء أو كراهية تجاهه، ولم أُمَثِّلْ له أيَّ خطر على عرشه».

يُجيبك كاتب المستقبل قائلًا:

«ومن قال لك إن الباشا لا يَغدر إلا بمَن يُمَثل خطرًا عليه؟ ربما يفعلها مع مَن يتشكك فيهم فقط؛ فهو من مدرسة قطع الشك بالقتل، بالتصفية، بتأمين ذاته».

ينظر إليك نظرات تحذير ليسألك:

«هل تعرف ما فعله مع الشريف غالب؟».

يتولى الإجابة، وكأنه عليم ببواطن الأمور فيقول:

«ظل يُبجله ويطريه ويرسل له خطابات ملؤها المحبة والإجلال، وكلما دعاه يأبى القدوم متذرعًا بتوعك هنا أو أزمة هناك، حتى ذهب هو إليه بنفسه ومعه المصحف، ودعاه إلى القسم عليه بألا يغدر أحدهما بالآخر، وأن يتحالفا معًا ضد ابن سعود، وقال له مستعطفًا: لا تقتلني أرجوك، فما جئت هذه البلاد إلا لأنصرك. ثُم دعاه إلى مأدبة لديه، وأطعمه بيده، وخرج الشريف، بعد وجبة دسمة، ليجد حراسه محاطين بجنود الباشا من كل جانب، وفوق أعناقهم سيوف مسلولة، ثم جاء الأمير طوسون ورجاله وقبضوا عليه ليُسلسل في الأصفاد ويُرسل إلى القاهرة».

تبتسم بعدم اكتراث يليق ببركهارتي شجاع، وتقول له:

«سمعت شيئًا عن ذلك».

ثم تسأله:

«لكن كيف عرفت ذلك وأنت من زمان آخر؟».

يمصمص شفتيه ويجيبك:

«قرأته في كُتب التاريخ».

تسأله وكلك ثقة:

«وما يدريك إن كان ما قرأته صحيحًا؟».

يصمت وكأنه يفكر، فتباغته بنظرة تحدٍّ، تُفتت حججه، لتواصل قائلًا:

«ما قرأته يا سيد مصطفى حكايات رواها أناس لا تعرف يقينًا إن كانوا صادقين أم كاذبين، ربما قبض الباشا على الشريف غالب لأنه اكتشف غدرًا مُبطَّنًا له، مثلما حدث مع المماليك، ومع كثيرين ممَّن حوله، ربما كان مُكلَّفًا من السلطان العثماني بالقبض عليه بأيِّ شكلٍ، وربما وربما وربما... نحن في عصر غدرٍ وخِسّة، وكل مَن هم حولك سفلة السفلة، لا أخلاق لدى أحدهم، أنت تحكم على الرجل بمقياس عصرك لا بمقاييس عصرنا»!

يستكين وكأنه مَلَّ الكلام، لكنه يكرر تحذيره ويقول:

«لا عليك، لم أقدم لأتناقش معك في أخلاق السياسة وسياسة الأخلاق. أنا أعرف أنك قلق مثلي من هذا الرجل، وأعلم أنك

لا تحبه ولن تحبه. لا تنسَ أنني من زمنٍ تالٍ، وقرأت كل ما كتبته وستكتبه. كل الحكاية أنني قدمت لأحذرك، خُذ حذرك من الرجل. بالطبع لا أريد أن أخبرك أنه يتوجَّسك، لكن حاوِل بكل الطرق أن تُبدد مخاوفه، لتُكمل طريقك».

«سأفعل».

ترد وأنت تهز رأسك علامة الموافقة.

تستمع إلى سعلة منفلتة من مرشدك الناعس كثورٍ مُتعبٍ، تُلقي بنظرة سريعة تجاه جسده الفارع المكوم في وضع جنيني جانبي لًا يوحي بأيِّ براءة، لتلحظ بَدْء استيقاظه. تعود إلى محدثك، فلا تجده، كأنما تسرَّب بين ذرات الغبار، تتذكر تحذيره؛ فتُخرج سكينًا لامعًا تدسه في جيب سري بسروالك الفضفاض، تنوي الفعل إن شممت رائحة غدر، ستقتل مرافقك إن أبدى أيَّ نيات سوداء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استراحة مسافر

تستقبلك «الطائف» بنسيمها الرائق وخضرتها المبهجة، كإحدى جنان عدن التي يحلُم بها أهل الصحراء. تلتقط أنفاسك بعد عناء طريق مِلْؤه الشك والقلق، وصمت مرافق أسود الوجه والقلب، يرمقك بنظرات لا تخلو من غِلٍّ غريبٍ. يُسلمك حارس الفرائس إلى جندي تُركي مهيب، يقودك نحو بيت جميل يطل على حديقة غنية بشجيرات التين، وتشبيكات العنب ذات الحبات الكبيرة. تستغرب أن ينمو هذا العنب في «الطائف»، التي لا يكاد يخلو فيها بيت من نباتات متسلقة كزينة خضراء تدور حوله حاضنة في مشهد رباني رقيق. تجد «يحيى أفندي»، بسَمْته الوقور وملامحه الطيبة، في انتظارك فتتنفس الصعداء، يسبقك الرجل من «جدة» ليُعد لقاءك بالكبير، يبشٌ في وجهك كصاحبٍ ويمنحك ابتسامات خافتة لا تستشف ما وراءها، يدعوك الرجل في أدب جم إلى الاستراحة يومًا أو اثنين حتى تمر الليالي الأولى لشهر رمضان، لتلتقي «الباشا» بعد أن يزول عنه كدر الجوع والامتناع عن نسائه ودخانه، ويعتاد الصيام. تسأله، مُبديًا غضبك، عمَّا دعا ولي نعمته إلى أن يحرمك من دخول مكَّة في طريقك، وتسأله إن كان ما زال متشككًا في إسلامك، فيدعوك إلى أن تهدأ وألا تُلقي بالًا لما يختبرك به «الباشا» العظيم من أمور يريد بها أن يُبدد نمائم ودسائس ربما تحوم حولك. يبدو «يحيى أفندي» رجلًا مرنًا ودودًا وهو يفتح لك باب البيت لتجد أطباقًا من التفاح والعنب وحبات التين والتمر تُشكِّل تلالًا جميلة تتماثل في الارتفاع، وتتباين في اللون والمذاق، يُشير إليك في تبسم قائلًا:

«بالطبع يُمكنك الأكل، فأنت قادم من سفر، وإفطارك جائز، وفي الغد سيعد لك الخادم إفطارًا شهيًّا وربما أفطر معك، وبعد يومين أو ثلاثة سنزور الباشا».

تشكره، وتسأله إن كانت الأموال التي قدَّمت له صكًّا بها قد صُرِفت في «المحروسة» لعائلته أم لا، فيُجيبك بأنه لا يعلم يقينًا، لكنه يُدرك أنها ستُصْرَف.

يجلس معك قليلًا ليُسرَّ لك بأن الأحوال في «الحجاز» ليست على ما يُرام، وأن المعارك مع الوهابيين لم تُحْسَم تمامًا، وقلب «الباشا» مُعلق بـ«القاهرة»، ويخشى من أيِّ بادرة غدر من السلطان التركي؛ لذا فإنه لا يتوقع أن يطول المقام بهم في بلاد الصحراء. تُسر له بُخبث أن معلوماتك عكس ذلك؛ إذ عرفت في الطريق أن «الباشا» استقدم زوجته الأثيرة «أمينة هانم»، وأن ذلك دليل على أن مقامه سيطول، لكنه يهز رأسه معترضًا ليقول: «إن الهانم جاءت لتحج فقط».

ثُم، كأنه تذكر أمرًا، يُضيف: «وبالطبع للاطمئنان على ابنها الأثير الأمير طوسون».

فيما بعدُ سيجمعك القدر بتلك السيدة العظيمة التي تفيض ملامحها حنانًا ورقَّةً، وستسألك في صدقٍ إن كُنت اشتقت لموطنك الأول أم لا، وستسرُّ إليك بأنها تَحلم بمروج طفولتها، وأنه على الرغم من أنها لم تكُن تتوقع يومًا أن تُصبح ملكة أو سلطانة، فإنها تتمنى يومًا أو بعض يوم من سنوات براءتها الأولى كطفلة تختبئ خلف الأشجار عند قدوم عربة الضيوف.

يُخبرك الطبيب المبتسم أنه يشتاق إلى عناق زوجته، ومحاورة أبنائه الثلاثة الذين يكبرون وهو بعيد. يقول لك إنه كلما سافر وعاد يجد ابنه قد طال شِبرًا، لكن في المرة الأخيرة، فاقه الابن الأكبر طولًا؛ فلم يعُد قادرًا على تمييز إن كان ما زال يمتد طوله أم لا!

تتذكر «نجلاء» وقبلتها الأخيرة؛ فتشعر بالشوق نهرًا يتدفق فوق صحراء جافة خشنة تبتلع مياهه في تعطش، وتمر بخاطرك لذات فخذين ناعمتين احتضنتا لحمك، قبل بضعة أشهر.

تلمح شعيرات بيضاء تغرس مواجع الزمن في رأس مُحدثك تُدلل على قدرٍ معقولٍ من الحكمة، فتُقرر فتح نوافذ عقلك وأبواب روحك أمامه لتسأله في هدوء يليق بفارس شب بأرض الفرسان، وخرج من نسل «بركهارت» إن كان يعرف على وجه اليقين ما يريده «الباشا» منك، وإن كان ثَمَّةَ كمين في انتظارك، بل تسأله في صراحة عارية إن كان يتوقع أن تُقتل تشككًا في ولائك... فيُقاطعك مُبتسمًا:

«قطعًا لا».

ويشرح لك بهدوء يليق بدبلوماسي مُحنَّك أن «الباشا» ليس كما يصوِّره البعض، وإنما هو رجل عظيم، شهم، وله قلب كبير مُتسع، وأن بعض رجاله هم مَن يتسمون بالعنف والغدر، لكنه ليس مثلهم، وإنما هو يضطر إلى استخدامهم في بعض الأحيان؛ لأنه لا مناص من ذلك.

ثُم يقول: «وبالمناسبة، فالرجل يعرف عنك كُل شيء، ويُقدِّرك، ويطلب منا تذليل كل صعاب أمامك، ويعرف أنك مكتشِف ورحَّالة، ويهمه أن يُساعدك لتكتب عمَّا أنجزه للبلاد من خيرات».

«فقط؟».

تسأل مُبتسمًا، فيرد:

«ربما يود أيضًا أن تساعده في تحسين علاقاته مع الإنجليز الذين يُكِنُّ لهم كل احترام ومودة».

تستغرب حديثه وتتذكر زائرك المفاجئ الذي قَدِمَ لك من المستقبل ليُحذرك من «الباشا» وغدره، ولا تعلم إن كان مُحقًّا أم لا، ثُم تمر برأسك حكايات وحكايات التقطها حدسك من «مالطة» و«الشام» و«المحروسة» و«السودان»، وتتخيل يوم الغدر بالمماليك، وما سمعته عنها؛ فتقول لـ«يحيى أفندي» وكأنك تُعارضه:

«ما حدث في المذبحة الكبرى فوق الوصف والتصور و...».

يُسكتك بإشارة من كفه قبل أن يقول سريعًا:

«أعرف ما ستقوله. مقتلة عظيمة غادرة فيها بشائع الإنسان وكل قسوته، لكن أنا شاهد على هذا اليوم، وما أحب قوله بصدق وليس معنا الآن الباشا ولا أحد من رجاله: إن المماليك هم مَن بدؤوا المؤامرة، ورسموا خطوط الدم، بل وتآمر بعضهم

على بعض. لقد كانوا ينوون قتل الباشا بين رجاله، وأعدوا لذلك العدة وكَرَوْا بعض الجند، وكانت الإشارة التي اتفقوا عليها أن يمد يده إلى الطعام، لكن هناك أميرًا منهم أطلع الباشا والكتخدا على التفاصيل كاملة؛ فتغدى بهم قبل أن يتعشوا به، كما يقول المَثَل».

تفتح فمك اندهاشًا وتسأل:

«أمير منهم؟! مَن؟».

يسكت «يحيى أفندي» هُنيهة، قبل أن يُسر لك بصوتٍ خفيضٍ:

«الناجي من المذبحة».

«أمين بك؟».

«أجل.. هل تعتقد أن هذا الرجل خارق ليقفز بفرسه وحيدًا من فوق القلعة، ويغافل الجُند فيتركوه ليخرج من القاهرة، ثم يمر بمديريات مِصْر وعساكرها مرور الكرام حتى يصل إلى الشام، ثُم لا يُلاحقه أحد، ويختفي عن الجميع؟».

«ولكن...».

تتذكَّر «حميد» الشامي ورحلته المُضنية من أجل جائزة الإيقاع بالبك الفارِّ، وما صاحبها من حماس وإصرار في البداية، ثُم ما تلا ذلك من خفوت، وحديث بعيد عن المنطق بأن الرجل منحه نصف الجائزة ليتركه بسلام.

حتى «حميد» يكذب عليك! ومَن أيضًا؟ تصيح في داخلك:

ما الوهم؟ وما الحقيقة؟ ربما لن تدركها سوى بعد رحيلك.

بدا «يحيى أفندي» رائقًا ومُسليًا وهو يشرح:

«إن أمين بك هو دليلي على أن الباشا لا يَغدر إلا بمَن ينوي الغدر فعلًا به، لقد كشف أمين بك عن غدر المماليك، وأمر محمد علي والكتخدا جميع الرجال بتجنُّب إطلاق النار على الرجل، والسماح له بالهروب دون أذى، ثم السماح له بالسكن في سلام وراحة بال بعد اعتزاله السياسة. لقد حج الرجل العام الماضي، وكنت إلى جواره أرعاه، وبالمناسبة فقد أقام في هذا البيت».

هُنا. تحاول أن تقرأ عينيه، تدلف إلى داخل رأسه، تُفتِّش عمَّا يدور فيه. تتشمم رائحة الكلام اختبارًا، ولا تشعر بشيءٍ جازم باتٍّ. فأنت بركهارتي أصيل، تعرف ألاعيب الساسة، تحفظهم. يكذبون، يكذبون. تعلَم أن كل بلاط يضم مسؤولين لطفاء مهمتهم تجميل المليك، تحسين سيرته، محو القبائح، وإعادة رسمه. تصويره بأنه أفضل مَن في الوجود، وتحميل مَن حوله جميع خطايا الزمن، كأنه ملاكهم وأطيبهم وأنبلهم. تسأل نفسك، إن كان صادقًا فكيف يُفشي لك أسرارًا كهذه؟! ثُم تجيب بأن الأمر جائز؛ لأن هناك منطقًا في كلامه، وربما انقراض المماليك جعل ظهور «أمين بك» أو اختفاءه بلا معنى.

تسأل الأفندي المُتفتح عن «إبراهيم أغا»، فيحكي لك جانبًا من بطولاته وملاحمه، ويُنبئك بأنه شخص شجاع مهيب الطلعة، صلب العزيمة، ويقول لك:

«إن هؤلاء ليسوا مثلنا. إنه لا يمل ولا يكل ولا يشعر بضيق أو تذمُّر هُنا، ومُذ وُلِّيَ حاكمًا على المدينة المنورة فهو سعيدٌ وراضٍ».

تسخر من الأيام.. «توماس كيث»، الأسكتلندي الخشن، صار حاكمًا على مدينة نصرة «النبي محمد» في مواجهة كفار قريش! «توماس كيث» الذي صار «إبراهيم أغا»، الجندي الذي لا يخاف، هو المسؤول عن حماية نخيل يثرب! تتذكره وتنوي زيارته، عديلك الذي اقترب منك فبعدت، فأهداك وردة جميلة أزهرت سعيك، وأبهجت غُربتك. تنفر كثيرًا من سيرته وحكايات القتل والكر والفر، لكنك تحتاج إليه، خاصةً أنه من الخلصاء المُقربين من مالك الجنان المصرية، ربما أكثر كثيرًا من «يحيى أفندي».

يُحدثك «يحيى أفندي» وكأنك صديق قديم درستما الطب معًا، يُفضي لك بأنه لا يحب شخوصًا مثل «إبراهيم أغا»؛ لأنه يعتقد أن حياته دم في دم، وأن شخصًا مثله لا بُدَّ مقتول، وأن أسرته منكوبة من بعده.

تستغرب صراحته، لكنك تحسبها فضفضة وحيد يشعر تجاهك بالأمان والألفة.

تطلب من الرجل، وهو يهم بوداعك، أن يُساعدك في أمرٍ مهمٍّ. تلفت انتباهه بكلمة «مهم» فيُشير بسبابته إلى عينه اليُمنى، فتُخبره بأنك ما قدمت إلى الحجاز إلا لتحجَّ بيت الله الحرام، وتزور قبر «النبي مُحمد».

يُتمتم قائلًا:

«صلى الله عليه وسلم».

فتُكرر أنت:

«صلى الله عليه وسلم».

فيبتسم الرجل ويسألك في برود:

«حقًّا؟».

تهز رأسك، فيقول:

«إذًا ستنال مرادك؛ فالله مُطلع على القلوب».

ويُغادر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقـاء لا يُنسـى

يُرهقك الشهر الفضيل بإمساكاته، تُغالب صداعًا قاسيًا يصحو كلما غابت القهوة الصباحية ودُخان النارجيلة. تقضي النهار مستلقيًا كقط مُحتضر. يزورك «يحيى أفندي» ذو الوجه البشوش، ليفطر معك. تُخبرك ملابسه الفضفاضة الوقور وعِمَّته الداكنة الملفوفة بعناية كجوال من الفاكهة فوق رأسه أن موعد لقاء «الباشا» حَلَّ. تسأله بنظرات ذكية يقرؤها سريعًا، وهو يشير إلى الخادم ليُعد طعام الإفطار، ثُم يقول لك:

«نعم، سنلتقي مولانا الليلة بعد صلاة العشاء».

تستجمع شجاعتك لتسأل عمَّا يُفترض أن تلبسه، فيقول لك ببساطة مصطنعة:

«البس ما تشاء، الباشا أبسط ممَّا تتخيَّل، لا يحب البروتوكولات كثيرًا، خاصةً أنه في أرض حرب».

ويضيف:

«الباشا يعرفك ويقدرك، وهو يسعد للغاية بمحاوراته مع أصحاب العقول والأفهام وأهل العلم».

يوضع الطعام فوق منضدة صغيرة تكاد تكفي شخصين غريبين دفع بهما القدر إلى أن يلتقيا ليأكلا معًا في محبة مصطنعة، تمتد أصابع جليسك لتلتقط قطعة لحم توحي رائحتها بمذاق شهي، ويُقدم لك نصائحه قائلًا:

«اسمع يا أخي الحبيب، سأنصحك بما يجب عند لقاء مولانا الباشا: لا تُصافح أحدًا قبله، واحرص ألَّا يغادر نظرك الأرض حتى يدعوك إلى الجلوس، وإذا اقتربت منه فعليك أن تنحني وتسحب كفه اليُمنى لتُقبِّلها. هذه آداب يجب احترامها، وإذا تحدث إليك لا تقاطعه. سيكون بينكما تُرجمان فلا تنظر إليه، واحرص أن تواجه الباشا وأنت تتكلم، ولا تستأذن في الانصراف إلا لو أشار إليك. ستجد جلساء آخرين ربما يوجهون لك بعض الكلام، لا تلتفت إليهم».

يُقلقك حديثه، فتخمد شهيتك المُنفتحة للطعام، وتكتفي بمرق ساخن وبعض كسرات من الخبز، بينما يأكل مُحدثك بنهم شديدٍ، قبل أن يقوم ككرة ثقيلة ليدعوك إلى الصلاة. تُصلي ولا تُصلي كما ذكرً «النبي» في أحد أحاديثه، فعقلك وجوارحك وكل ما لديك مشدود بلقاء «الباشا» المرتقب. يلحظ «يحيى أفندي» قلقك بعد الصلاة فيُشجعك قائلًا:

«كُن جديرًا ببركهارتي أصيل».

تُنكر العبارة وتحسب أنك تهذي، وتشرب دورقًا من المياه مُعَوِّضًا ظمأ يوم كامل، قبل أن تستأذن لتعد نفسك، وترتب ثيابك.

تنسى الطريق، تمضي كساقٍ ثانيةٍ لـ«يحيى أفندي»، بعد أن تقلكما عربة فخمة نحو قلعة الشريف، حيث يقيم باشا مصر، تعمل بنصيحة ناصحك، فلا ترى شيئًا حتى تصل إلى قاعة الحكم، تراهم على الأرض جالسين في نصف دائرة.. وجوه حازمة قاسية رسم الزمن أخاديد عنفوانه فيها، وبينهم وجه أبيض سمين، مُبتسمٌ ابتسامةَ رضا، يفيض بالحمرة، يكاد يختبئ تحت لحية كثة صفراءُ لونها تسُرُّ الناظرين. يقول الوجه دون مواربة: أنا «محمد علي»، حاكم الجنان، ولي النعم، داهية العصر. يرميك بنظرة سريعة من بعيد لا تكاد تفهم مغزاها، قبل أن يهمس حلقة الوصل في أذنك بأن «الباشا» يجلس مع قادته وفيهم «حسن الأرناؤوط»، قائده الفذ، وإلى جواره الرجل الشجاع «أحمد بونابرته». تحاول تمييزهما فتعجز، وتتباطأ خُطاك حتى تلمح كف «الباشا» ترتفع في وضع أفقي، يفهم منه الحاضرون أمرًا بالانصراف.

تسبقك رائحة الخوف إلى مجلس «الباشا»، فتشعر أن عقلك كتاب مفتوح في حضرته، يغادر المجتمعون متقهقرين إلى الخلف بظهورهم، بينما يبقى رجل وقور بملامح شامية ولحية خفيفة، وإلى جواره شاب حليق اللحية تفهم من جلسته عن يمينٍ «الباشا» أنه ترجمانه الخاص. ينحني «يحيى أفندي» ليلتقط كف «الباشا»، مقبلًا، فتقلده دون كلمة، لتلمح ابتسامة رضا فوق وجه الرجل الكبير. يشير إليك بالجلوس فتجلس مرتديًا لباس الخرس، كما نصحك «يحيى أفندي»، لكن «الباشا» يتحدث بصوتٍ رقيقٍ بعبارة يُترجمها لك الترجمان بأنه يُحب أن يسمع منك.

تسأل ما الذي عليك قوله، فيجيب: كل ما تريد قوله. تستجمع شجاعتك وتسأله عمَّا دعاه إلى أن يحرمك من دخول مكَّة على الرغم من أنك مسلم توحِّد الله، وترغب في حج بيته الحرام وزيارة قبر «النبي محمد». يبتسم في هدوء ويُشير إلى جليسه الوقور ويقدمه لك قائلًا:

«مولانا القاضي صادق أفندي، قاضي مكة».

يبدو الرجل كتركي ذي أصول شامية، وتمنحه ثقته بنفسه مهابة ظاهرة، وكأنه نِدٌّ للباشا نفسه. تنظر إلى «يحيى أفندي» فتراه صامتًا كتمثال بلا أيِّ مشاعر.

يستكمل «الباشا» قائلًا:

«هذا الرجل هو الذي سيقودك إلى مكَّة، قاضيها الطيب المحبوب.. ستقضي معه يومين ليعرف إن كنت مسلمًا بالفعل أم لا، وسيحكم إن كان من الصواب أن تدخل إليها، أم تعود إلى المحروسة، أو تسافر إلى غيرها إن شئت».

وبدا صوته أقرب إلى الهمس وهو يُضيف:

«بالمناسبة.. أنا لا يعنيني إن كنت مسلمًا حقًّا أم لا، لكن يعنيني أن تبلغ إنجلترا أنني أَكِنُّ لهم كل حب وسلام».

ترسم ابتسامة كاذبة فوق شفتيك قبل أن تنبس:

«ما أنا إلا رحَّالة أبحث عن البلدان والوديان، وأكتب عن الأمم والشعوب».

يمُط الرجل شفتين رقيقتين قبل أن يقول:

«أليس من الحُمق أن تقضي أيامك في الأسفار والأخطار؟».

تجيبه بثباتٍ قائلًا:

«إن الأعمار محددة بقضاء الله وقدره، ونحن لا نخطو خطوة إلا بقضائه سبحانه وتعالى، والأسفار تلذ لي بما يقع عليه نظري من المشاهد الجديدة، وبما أستفيده من أحوال الناس على اختلاف أجناسهم، ولا أبالي بما ألاقيه من التعب في هذا السبيل».

«عظيم».

تستكمل قولك:

«إن حياة الإنسان مقدَّرة سلفًا، وكلنا نرضخ لقدرنا، وأنا أستمتع باستكشاف أراضٍ جديدة وغير معروفة، وأن أصبح مطَّلعًا على أعراق الإنسان المختلفة».

يشير إلى إحدى النساء لتصب لك قدحًا من القهوة، ثم يسألك:

«وكيف كانت رحلتك إلى بلاد النوبة؟».

تجيبه:

«ممتعة».

يصمت قليلًا ويعلو وجهه ضيق بسيط قبل أن يسأل:

«وهل قابلت أيًّا من المماليك في الرحلة؟».

تهز رأسك نافيًا.

فيسارع بالقول إنه حمى مِصْر من خرابٍ يطول، وإنه حوّل البلاد إلى جنة مبهجة في سنوات قليلة، ثُم يقول وكأنه يرى في مخيلته مشهدًا مغايرًا لمجلسنا:

«أنا على استعداد لفعل أيِّ شيء وكل شيء من أجل مصر، أنا أغار عليها من كل شخص، ولو كانت لديَّ عشرة آلاف روح لضحيتُ بها جميعًا من أجلها، سيذكر التاريخ ما فعلته فيها ولها».

يبدو الرجل أمامك مريضًا بمحبتها، تلك البلاد الغريبة التي تستفزك تناقضاتها. تسأل ذاتك سريعًا إن كان صادقًا، فتلمح عينيه تجيبان بتلقائية وكأنهما تسمعان سؤالك بالإيجاب؛ فهي دُرة القلب، حبيبة الروح، منحته أكثر ممَّا منحه الزوجة والأبناء والأصدقاء: الخلود؛ أن تحكم مِصْر فأنت خالد، وإن قالوا عنك ما شاؤوا.

يسألك الرجل: ما رأي الناس في صعيد مصر في «إبراهيم باشا»؟ تُجيبه بصراحة تلسع وجه «يحيى أفندي» الصامت: «يكرهونه». يبتسم «محمد علي» ويُقهقه قليلًا وهو يقول: «كُنت أعرف ذلك، أنت رجل صادق، لا بُدَّ من أن يفعلوا».

يتحدَّث قليلًا عن «نابليون»، وكأنه يعرف أنك تكرهه. يقول لك: إنه يستحق ما آلت إليه أحواله. يجني المرء ثمار ما زرع كما يقول. تخطر برأسك فكرة سابقة طالما

خربشت خلايا دماغك، مفادها أن «محمد علي» هو رجل «نابليون» في مِصْر، غرسه غرسًا، وشجَّعه وهيأ له وخَطَّط، ويعني سقوطه أنه تحرر من صاحب الأفضال عليه.

يُحدثك بعينيه قبل لسانه وكأنه يقول لك: «أنا سيد المكر، وملك الحيل، لا حدود لطموحي، ولا رادع لتقدمي، أومن بنفسي قبل إيماني بأيِّ عقيدة، وأثق بكوني أدهى مَن يسير على اثنتين، مَن يُعاديني ميت وإن ظنَّ أن لديه منعة، ومَن يلامس خلايا الشك عندي مُنتهٍ، ولو اعتقد أنَّ له خاطرًا، لا خواطر لأحدٍ».

يسألك إن كُنت تعتقد أن الإنجليز لديهم نيات للاستيلاء على مِصْر، فتهز رأسك نافيًا، فيقول إن أيامه في الحجاز باتت معدودة، وإنه حقق انتصارًا لم يكُن السلطان العثماني نفسه قادرًا على تحقيقه وحيدًا، وسيعود قريبًا إلى حبيبته، ثم يسأل عن القوة التي تظن، كرجل خبير بالمدن والأسفار، أنها كافية للدفاع عن مِصْر، فتضرب له رقمًا خياليًّا وتقول: «خمسة وعشرون ألفًا». فيبتسم ويقول: «لديَّ الآن ثلاثون ألف جندي، وسأضاعفهم قريبًا».

تشعر أنه يُحمِّلك رسالة، بل رسائل ورسائل، يطلب منك صراحة طمأنة أصدقائك بشأنه، لا يريد صراعًا مع الإمبراطورية الكبرى، يُخبرك خبرًا جديدًا مفاده أن إنجلترا اختارت عالِمَ آثارٍ عظيمًا اسمه «صولت» قنصلًا لها في القاهرة، وأنه يستبشر به. يُشير إلى «يحيى أفندي» بإصبعه ويأمره قائلًا:

«وفِّر للسيد إبراهيم ما يحتاج إليه من مؤن وأموال».

ثُم يلتفت إلى «صادق أفندي» قائلًا:

«أنت مسؤول عن التأكُّد من إسلام الرجل، ولك الخيار في أن تأذن له بالحج وزيارة قبر النبي إن رأيته مستحقًّا لذلك».

ويمد الرجل كفه لتقبِّلها مُنصرفًا، فتقوم مرتاحًا أنَّ همًّا ثقيلًا تفتَّت فوق صدرك، وتُغادر وبين ضلوعك نية ألا تلتقيه مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضيافـة كريمـة

يبدو اختبار «صادق أفندي» بسيطًا كما توقعت، يسألك عن شروط صحة الصلاة، وعن ميراث الأم من ابنها المتزوج، وعن عدة المُطلقة والأرملة، ثُم يطلب منك إمامة المصلين في المسجد الكبير بالمدينة الرائقة.

تحرص على قراءة سورة يس كاملة بترتيل جيد ونطق سليم، تُفكر لو أن «سارة روهنر» أو «جوزيف بانكس» أو أصدقاء الطفولة في «بازل» سمعوا صوتك لما صدقوا. كيف تشرَّبْتَ اللغة العربية بهذا الإتقان؟ كيف توحدت مع ذاتك الجديدة فصرت عربيًّا أصيلًا، ومسلمًا وَرِعًا وقورًا؟

يُرضيك «صادق أفندي» بعلمه وحكمته ورِقَّته غير المعتادة من الأتراك، ينبئك أنه وُلِدَ في «القسطنطينية» لعائلة ذات أصولَ دمشقية، وحفظ القرآن ودرس الفقه والسيرة والحديث، قبل أن يختاره السلطان قاضيًا على مكَّة عقب استعادتها من أيدي الوهابيين. تسأله عن عقيدتهم، فيُخبرك أن حربهم مع السلطان أمر دنيوي بحت، وأنه لا يأخذ عليهم في الدين سوى بعض الغلو.

يبدو الرجل كريمًا وهو يُطعمك أشهى الأطعمة، مستضيفًا إياك لعدة ليالٍ يستثمرها في سؤالك عن الكتب التي طالعت، والحكايات التي جمعت. يخبرك الرجل أن «الباشا» يشك في أصابع قدميه، وأن موظفيه من الفرنسيين أوغروا صدره عليك، وحكوا له عن «علي العباسي» الذي كان جاسوسًا وتفاخر بخداعه للمسلمين في سياحته بالحجاز. تشع السماحة من عيني الرجل وهو يقول لك إنه يمقت أهل السياسة والبلاط، وإنه يُفضل مثلك الابتعاد عنهم.

يُسر لك في ثقة غريبة عن رأيه فيهم قائلًا: «ماتت قلوبهم يوم تسلطنوا، ولا يؤمن أحدهم باليوم الآخر».

تستدعيك مكَّة في المنام، ترى بيت الله الحرام مكعبًا عاليًا مكسوًّا بكساء حريري أسود اللون، تُبصر «مارغريتا» في سمت بريء ووجه رائق حليبي تدعوك إلى الدخول. تقول لك في ثقة: «اخلع نعليك وتحرر». تسألها في حيرة: «مِمَّ؟»، تجيبك: «من كل شيء». تشعر برائحة استقرار وطمأنينة وهي تقود خُطاك، ثُم لا تلبث أن تستيقظ على صوت أذان المغرب، يستئذنك «صادق أفندي» في القيام للإفطار والصلاة. يقول لك إنه جهَّز راحلتين للسفر إلى مكَّة صبيحة الغد، وينظر إليك مبتسمًا وهو يقول: «ستطوف بالبيت الحرام، فليتقبل منك الله».

تبتسم وتشعر أن إرادة الله ترسم خُطاك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسـامـة قاتـل

ترى في منامك «الباشا» وسط رجاله بعد أن غادرته مدبرًا وهو يقول لهم بغيظٍ: «جهول مَن يحسب الملوك يغفرون». يسأله أحد رجاله مبتسمًا إن كان عليه أن يُنهي أيَّ قلق، فيغمز له بطرف عين قائلًا: «ليس الآن».

ويتابع: «هناك أمور أكثر أهمية من هذا البركهارت، هو جاسوس ساذج يتصور أننا حمقى، دعه يكتب ويُبصر، ولكل أجلٍ كتاب».

لم يقتل «الباشا الكبير» بيديه السمينتين أيَّ إنسان، لم تُطلق غَدَّارته النار على كائن حي، ولم تغرس يمناه خنجره الملتوي كهلال أول يوم رمضان في لحم بشر، لم يخنق أحدًا أبدًا بأصابعه القوية الصلبة، لكنه كان قاتلًا بامتياز، يُميت بنظرة عينٍ، بلفتةٍ، بإشارةٍ مستترةٍ.

يؤمن، في قرارة نفسه، بأن الناس إما قتلة وإما مقتولون، لا وسط أبدًا. فمن لا يَقتُل يُقتَل، وكُل مَن يسير على قدميه قاتل ولو ادعى البراءة. نسل «قابيل» يتوالى. قاتل قتل قاتلًا، ليس شرطًا بسيفه أو بندقيته، وإنما بكل وسيلة قتل أخرى. ربما بكلمة، بهمسة، بكذبة، بوشاية، بتمنٍّ، بدعاء.

يضحك «محمد علي باشا» حتى صفرة أسنانه. سيقضمك بها يومًا ما. تُبصر خيط الدم فوق لسان عذب اعتاد الكذب واللف والكر. ابتسامة وجهه تُطاردك أينما حللت، تذكرك دومًا بأن السلطان لا يرحم، ولا يشفق؛ السلطة هي أداة قتل دائم لا تتوقف أبدًا.

تتذكَّر مشهد الفزع الأكبر يوم دخلت مكَّة بصحبة «صادق أفندي»، لم تضحك السماء كما انتظرت، ولم يحط حمام الحرم فوق كتفيك، ناشرًا أجنحته كدعوة سلام وطمأنينة، لم تلفح وجهك هبات النسيم المُغيثة لتعب الرحلة. وقفت أسوار المدينة العالية ترتعش في سكونٍ خوفًا من بقايا هياكل بشرية غُرست غرسًا بأسياخ ممدودة كنخل مُثمر بلحًا في منتصفها. بدا بعض اللحم مهترئًا ومتعفنًا فوق الأسياخ المثبتة، كصفوفٍ من البشر الراكعين أمام قائد الأعداء المنتصر. تلك الجثث العارية خوزقت كَعِبرةٍ لكل وهَّابي ضالّ يكفر بالله العظيم، ثم بالسلطان العثماني والباشا الكبير. تُبصر الجُثث مقطوفة الأعضاء الذكرية كأن الآمر بذلك أراد أن يُبلغ الجميع أنه لم يقتطف أرواحهم فقط، وإنما اقتطف رجولتهم أيضًا.

يتحاشى رفيقك الراكب الصامت دومًا النظر إلى أعلى، تفكر في حيرة كيف دُق الخازوق دقًّا في دُبر كل ضحية، فصعد رويدًا ببطءٍ ممزقًا الأمعاء والمعدة وجارحًا البنكرياس، ومجاورًا الرئتين، وصامدًا حتى الحنجرة، ليخترقها اختراقًا، فيذيق المرء عذابًا قاهرًا عدة ليالٍ يسأل الله فيها الموت كل دقيقة! ترنو إلى رأس منُكس فوق رأس الخازوق وكأنه يُقبله رجاءً كي يُسرع بالموت طلبًا لراحة لا تأتي. تسأل «صادق أفندي»: «ماذا فعلوا؟»، فيُجيبك هامسًا: «أعداؤه».

ثُم يضيف: «ربما هم من أسرى الوهابيين الذين استأمنوه قبل أيام».

ويسألك بعدم اكتراث: «ألم تشاهد خوزقة من قبل؟».

فتهز رأسك نافيًا وتُتمتم:

«قرأت عنها كثيرًا وسمعت بها، لكنها المرة الأولى التي أشاهد بقايا جُثث فوق الخازوق».

تلمح ابتسامة «الباشا» الباهتة فوق أسوار المدينة المقدسة، وتسمع صوته يُحدث أحد خواصه قائلًا: «سيكون تحت عينيك ليل نهار، كل حركة له ستتبعها، كل لفتة، كل كلمة يدوِّنها سترصدها، نعلك خلف نعله، أفهم أن غايته هي الكعبة، أن يراها ويكتب عنها وربما يرسمها، له ذلك، لكن إن لم يغادر في سلام؛ فستقتله بيدك شر قتلة».

لِمَ؟ لا تعرف. لو قُدر لك مواجهته يومًا ما في العالم الآخر، ستسأله في فضول عن سر «شر قتلة»، ما يضيره أن يقتل ضحاياه بهدوء وسلام؟ ما يُزعجه أن يمنح أعداءه موتًا رحيمًا، أن يُخرجهم من سباق الصراع بهدوءٍ وشرفٍ ودون عذابٍ يطول؟

ستطلب منه تفسيرًا لتعليق سبعين رجلًا عرايا فوق خوازيق من الحديد تقطر أرواحهم قطرةً قطرة، على أسوار مدينة يُفترض أنها أقدس أرض الله، وفيها بيته الحرام. ستسأله لِمَ يقتل مَن يؤمنهم؟ لِم؟ لِم؟

يا الله! كم هو عظيم أن يلتقي الناس مرة ثانية في الدار الآخرة، القاتل والقتيل معًا بلا ترجمان. كم هو عادل أن تُرد الحقوق إلى أصحابها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيـت اللـه

تعتمر كمسلم، تذهب إلى آخر مكان في الوجود كُنت تتوقَّع زيارته صغيرًا، بيت الآخرين، قُدس الأقداس لدى ملايين البشر الذين درستهم مستغربًا وبحثتهم مستقرئًا ولم تحُز ما تأمله بعد تجوال ودراسات وقراءات لا حصر لها.

يأتي الناس إلى هذا المكان للتطهر، للتقرب من الله، لسؤاله حاجاتهم، لطلبهم الجنة الخالدة في يوم العدل الأكبر، من كُل فج يتدفقون كنمل صباحي ينجذب إلى قطعة سكر سقطت سهوًا على الأرض، يأتون سعيًا إلى المغفرة من ذنوب يعاقرونها كل يوم على الرغم من علمهم بسوئها، موقنين بأن الله يغفر كل شيء لبني البشر ما سألوه ذلك. تطلب ما يطلبون وتزيد؛ فالمعرفة بالنسبة إليك جنة الجنات، وإن أبى «الباشا» ورجاله وخصيانه وقتلته السريون.

تُبصر الكعبة فترسمها رسمًا لا يُمحى أبدًا من الذاكرة. تقول لـ«مستر بانكس»، في خطابٍ طويلٍ، إنك رأيتها فشعرت أنك جاوزت بذلك ما خططت له الجمعية الجغرافية، وحققت ما لم يحلم به أحد. تصفها وصفًا دقيقًا، تنقل ما رأيت وما سمعت وما عرفت لأناسٍ لا يعرفون شيئًا عن هذه الأرض وناسها ودينهم وكعبتهم.

تكتب لـ«جوزيف بانكس» أن البيت الحرام مبنى مستطيل يتوسط ميدانًا مستطيلًا مكشوفًا للسماء، تُسيجه صفوف رباعية من الأعمدة الممسكة ببعضها عبر أقواس مدببة، وتحمل كل أربعة منها قبة صغيرة مكسوة بالجص، ومطلية باللون الأبيض. تُخبره أن هناك مصابيح كثيرة من القناطر الموصولة بين الأعمدة لتُضفي بهجة وجمالًا يغازلان كل عين. تقول أيضًا: إن بين كل ثلاثة أعمدة واحدًا ذا ثماني زوايا وأضلاع، ويبلغ سمكه أربع أقدام. تُبصر في إحدى الجهات أعمدة من الجرانيت الرمادي الضارب إلى الحمرة، وهو يذكِّرك بأعمدة جرانيتية رأيت مثلها في «إخميم»، وتعتقد أنها مجلوبة منها، ويبدو نشازًا أن ترى تيجان الأعمدة متباينة الشكل واللون والحجم، وهو مشهد مُشوَّه يدل على أنها مجلوبة من مبانٍ قديمة.

تكتب عن نقوش قليلة تبصرها، لكن معظمها مطموس، لا تستبين منها سوى اسم «محمد» وخلفائه الأربعة: «أبي بكر»، و«عمر»، و«عثمان»، و«علي».

ترى بين الأعمدة سبعة طرق معبدة، وهي بعرضٍ كافٍ لتضم خمسة رجال يسير بعضهم بجوار بعض، وبين هذه الممرات المغطاة بالحصى أو الرمل ينبت العشب المروي من جرار مرصوصة على الأرض تحمل ماء زمزم.

ستكتب كذلك أن الكعبة بناء ضخم يبلغ طوله ثماني عشرة خطوة، ويمتد عرضه أربع عشرة خطوة، ولها باب مغلف بالفضة، ومزخرف ببعض الزخارف الذهبية، وتفوح حولها روائحُ المسكِ وخشبِ الألوة ذي العطر النفَّاذ. وتغطي الكعبة كسوة سوداء نُسِجت عليها أدعية مختلفة، وتُجدَّد كل عام، وتُصنع في مِصْر. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة تُنزع الكسوة عن الكعبة لمدة خمسة عشر يومًا،

ويستمر ذلك حتى العاشر من ذي الحجة، وهو يوم عودة الحجاج من عرفات إلى وادي مِنى؛ حيث تُوضع الكسوة الجديدة.

وستلاحظ بقرب الباب ما يسمَّى «الحجر الأسود»، وهو حجر بيضاوي، غير منتظم، ويتكون من حجارة صغيرة ملتصقة معًا وكأنه كسر بضربة عنيفة ثُم أعيد جمعه مرة أخرى. إن كثيرين لا يعرفون أن هذا الحجر سرقه القرامطة لنحو خمسة وعشرين عامًا، وأن الخليفة المجنون «الحاكم بأمر الله» بعث رجلًا لتكسيره، لكن الناس اكتشفوا أمره وذبحوه.

وثَمَّةَ حجر آخر في الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة يرتفع خمس أقدام، وقد وُضِعَ بشكل عمودي، ويدور حوله الناس، لكنهم لا يلثمونه مثلما يفعلون مع «الحجر الأسود».

وستجد في الجانب الشمالي من الكعبة حفرة عريضة محددة بالرخام، تُدعى هذه البقعة «المعجن»، ويعتقد البعض أن الصلاة فيها مثابة، وهناك نقش كوفي عليها، لكن كان من الصعب نسخه. ويميز الجهة الغربية ميزاب من الحجارة تتجمع فيه مياه الأمطار لتمر دون سوء، وفي الوسط بلاطتان خضراوان يُعتقد أنهما محل دفن «النبي إسماعيل» وأمه «هاجر»، ومن السُّنة للحاج أن يصلي ركعتين عندهما.

وتُدَوِّن في حكايتك أن «بئر زمزم» تبدو بمثابة معجزة علمية محيرة؛ فالمياه لا تنضب أبدًا، وتشعر بثقل الماء في الجرار، وبعذوبة مذاقه، ومنذ الفجر وحتى منتصف الليل تكتظ غرفة البئر بالزوار المحتشدين لملء جرارهم. وكانت البئر فيما مضى تخص «الشريف غالب»، وكان يتقاضى أموالًا مقابل الماء، إلا أن «سعود» عندما استولى على المدينة أباح الماء لكل الناس دون مقابل، فلمَّا استعادها الأتراك لم يجرؤ أحد أن يطلب أموالًا نظير الماء، واليوم لا توجد عائلة في المدينة لا تملأ جرارها كل يوم من زمزم.

تظن ظنًّا أن مكَّة هبة زمزم؛ لأنه لا توجد مياه عذبة لهذه المدينة الصحراوية سواها، كما لا يوجد في أيٍّ من البلدان المجاورة مثيل لها. وهكذا لم تعُد تستغرب اعتقاد الناس أن ماء زمزم يُطهرهم من الآثام.

يلفت انتباهك «مقام إبراهيم»، الواقع أمام أحد الأبواب الكبيرة، وهو أقرب بناء للكعبة، عبارة عن مبنى صغير مرفوع فوق ستة أعمدة، يحيط بأربعةٍ منها حاجزٌ حديدي جميل ينتهي بقبة هرمية، وبجانبه يقع منبر الوعظ، المبني من الرخام الأبيض الأنيق، ومنه تُتلى الخطبة الوعظية التي تأمر الناس بالتقوى. ويحكي البعض أن «سعود» عندما احتل المدينة أمر بإلغاء الدعاء للسلطان والشريف ضمن الخطبة، غير أن عودة المدينة بعد ذلك للأتراك أعادت العادة التركية.

تكتب لـ«بانكس» عن كل شيء، كل شيء: حمام الكعبة، وسلالمها، وأبوابها، وزخارفها، ومعمارها، وعادات الناس وحركاتهم. تكتب كثيرًا، لكنك تُخفي خاطرًا غريبًا طاف بك، وزرع فيك مشاعر عجيبة.

لا تكتب له بأن رعشات عميقة تدب في أوصالك بغزارة لا تنقطع، تقتل خوفًا كان يمد خيوطه بين ضلوعك، وتفيض روحك بطمأنينة الاستقرار. تنشد الرضا بكل شيء: الكشف والقرب والسلام. تسجد في خشوع حقيقي للمرة الأولى مُستعذبًا قول الإمام: «أقرب ما يكون المرء من ربه وهو ساجد». تتذكر «سارة روهنر»، فتدعو لها خالق الأكوان؛ عرفانًا بجميل تربية صحيحة، وتعليم عظيم، وغرس لقيم الآباء والكرامة وعلو الهمة. يخفق قلبك لذكرى «مارغريتا»، وما عانته دونك وما انتهى بها الحال، وتسأل إن كان ذلك مُرضيًا لها، ومُريحًا لروحها، وتتمنى لها الخير كله. ترى «حميد» هانئًا سعيدًا في سعيه وخلفه يلهث طفل جميل لا بد من أنه ورث الجمال من أمه «ليلى»، فتسأل الله له السعادة والرضا. تُبصر الطيبين وتتذكرهم فتدعو لهم واحدًا واحدًا، قبل أن تسأل الله الهُدى والرضا والعلم والحكمة ونيل الأماني. تستغرب لسعة دمعتين دافئتين تشقان طريقهما فوق خديك بعفوية لذيذة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تيــه تابـع

تبدو أزقة مكَّة كئيبة في الليل، تخلو الشوارع من العابرين، كما تخلو من مصابيح الإضاءة. يتسرب للقلب رذاذ الخوف والقلق كلما ترنو العين للطرقات الصامتة عبر كوة البيت البسيط المجاور لبقايا قبر أبي طالب. يُخبرك صاحب المقهى الأقرب أن الوهابيين خربوا ذلك القبر عندما كانت المدينة المقدسة في حوزتهم قبل سنوات، وهدموا جدارًا كان محط نقوش لعابرين كُثر تصوروا أن قبر عم الرسول مكان مبارك، على الرغم من أن كُتب السيرة تقول: إنه مات مشركًا. لم يترك الوهابيون مقامًا لصالحٍ أو وليٍّ لم تضربه معاولهم؛ إيمانًا منهم أن أيَّ تصور بوجود أحد له وساطة بالله هو نوع من الشرك العظيم.

تُعاين عدوان الحركة الدينية الجديدة على الموتى، تزور بقايا مولد «السيدة فاطمة»، وهو مُجرد حفرة بين حجرين، في بقايا منزل قيل: إنه بيت «السيدة خديجة». يقول لك حكاة الأساطير: إن الملاك «جبريل» كان يهبط على «النبي» في هذا المكان، ليقرأ عليه القرآن. تحاول تخيُّل المشهد فتعجز عن التصور في ظل تداخل الحقيقة بالخيال، وتشابك الشك باليقين في رأسك. توقن بأنك ستعرف يومًا إن كان «محمدٌ» نبيًّا مُرسلًا، أم صاحب فراسة ولباقة وذكاء سياسي رسم به أعظم الإمبراطوريات. بالطبع تعرف الآن.

تتشمم رائحة تابع، يسير خلفك ببطء وحذر، تُدرك بيقين أنه عين الباشا التي تتصور أنها لا تنام، ولا تأمن لأحدٍ. تزور مولد «أبي بكر الصديق»، ذلك الصحابي الجليل الذي ساند دعوة الإسلام واحتضنها منذ اليوم الأول، تراها كباقي الموالد، مجرد حفرة صغيرة وجدار مُنهدم نصفه، إما بمعول الزمن، وإما بمعاول الوهابيين الصلبة. تقترب منك خُطى التابع أكثر وأكثر وأنت في شِعْب «علي»؛ حيث يوجد مولد «علي»، ذلك الجدار الأملس الذي نقش عليه أنصار الصحابي المُقرب من «النبي» أشعار مديح كانت كفيلة بذبح أصحابها إن رآها المتعصبون. سلم مولد «علي» من التخريب زمن الوهابيين؛ لأن لآل بيت النبي بركات لا تنقطع، كما يقول كثيرٌ من الناس.

ثمة قبر مبروك آخر، يزوره كثير من الناس، على الرغم من أن صاحبته لم تمت مسلِمة، وهو قبر «آمنة بنت وهب»، والدة «النبي». يحكي البعض أن الوهابيين حطَّموا جدرانه ولم يتركوا منه سوى بلاطة واحدة من الرخام نزعوا منها اسم السيدة المحبوبة. يقول لك «صادق أفندي»: إن الناس تؤمن بأن أم «النبي»، التي ماتت قبل بعثته، لها بركات؛ لأنها أنجبت خير مَن يسير على قدمين، وتسأله عن حُكم الدين فيها، فيرُد: «إن الله عند حسن ظن عبيده يا شيخ إبراهيم».

تُنهِك تابعَك في لفٍّ ولفٍّ، تُضيء له علومًا ومعارف كلما سار خلفك نحو مزار أو مشهد، تُعرفه بأماكن لم تخطر له على بالٍ، فهنا «جبل أبو قبيس»، أول جبل خُلِق على الأرض، وهنا مكان شق القمر، وهناك «جبل النور»، و«جبل ثور».. وهذا «مقام عمر».

يكشف بصَّاص «الباشا» عن نفسه بغباءٍ منقطع النظير، يسير متلفتًا كلص هارب، ويرتدي عباءة مزخرفة وقلنسوة حمراء مثل أهل البلد، لكنها مُتسخة، بينما هم يحرصون على العناية الشديدة بنظافتهم، وتشي سِحْنته به؛ فالمكيون لهم سِحَن بُنية ضاربة تميل إلى الصفرة، وأجسادهم أقرب إلى البدانة، ويرسمون وشومًا على أصداغهم، بينما ذلك الوجه المُعلن عن نفسه يفيض بحُمرة حاشية «الباشا»، وفوق كل هذا فهو ينتعل حذاءً رسميًّا، لا صندلًا خفيفًا مصنوعًا في «اليمن» مثل أبناء «مكَّة».

يتوه عنك في نهار مُزدحم بشِعْب بني عامر؛ حيث تنتعش التجارة، وتعلو أصوات الباعة وزبائنهم في مفاوضات لا تنتهي. تنظر إليه من بعيدٍ، كصياد أوقع بفريسته، ثُم تمضي خلفه لتتبعه أنت. يحمرّ وجهه ويتلفت بحثًا عنك، وترتعش خطاه وهو يسير بلا هدف على حافة الطريق. تضحك في داخلك عندما يقف كثيرًا أمام محل مُسكرات، تُدرك بخبرة الترحال أن ذلك المحل يُفضي من داخله إلى بيت بغاء؛ إذ تبصر نساء ملتفحات بعباءات من الحرير الهندي الأسود، فوق بنطال فضفاض أزرق مطرز من أسفل بخيوط فضية، وتغطي وجوههن براقع زرقاء، يدخلن سريعًا إلى المحل. تعرف من تساؤلات سابقة أن شِعْب بني عامر هو محل بيوت الهوى في المدينة المقدسة. لا شيء ممنوع أو محظور في هذه البلاد المدهشة، حتى إن مثل هذه البيوت نجت من كشوفات الفضيلة زمن الوهابيين! تعرف أن معظم هؤلاء النسوة حبشيات يعملن لصالح بعض التجار والأعيان، وهُن أكثر جرأة وفسوقًا من بنات الهوى في «مِصْر» و«الشام» و«مالطة». ليس لديهن أدنى حياء، يصرُخن بجموح، ويزأرن كلبؤات جائعات تعلو زبائنها.

يجلس حارسك الأمين، ربما يُفكر في خليلة تُخمد نيران الشهوة في بلاد لم يخترها ولم يتمنَّ قدومها، لا تُفكر مثله على الرغم من طول هجرانك للنساء؛ فالشهوة ناعسة تحت أغطية السعي إلى المعرفة، تُدرك أن لذة الكشف لا تقاوم، أن تعرف أجمل من أيّ شيء.

يسألك كاتبُ المستقبل عن المفاضلة بين لذة الكشف وغيرها من اللذات. يقول لك: ما رأيك في ملامسة الشفاه، لَثْم الجِيد الساخن، افتراش الأثداء المستديرة، الغياب في لُهاث النشوة؟ كيف تتلذَّذ بطعامٍ شهي؟ كيف تشتاق إليه وتنتظره وتتمعَّن في تذوقه؟ ما لذة القرب من السلطة: التحكُّم في الأنام، لفت الأنظار؟

ماذا ترى أيها الرحَّالة المُكِبّ على أوراقك؟

تقول له دون صوت: الكشف، الكشف؛ فهو لذة اللذات، ومنتهى الغايات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثـراء المقبـرة

لا يكتب الكاتب منذ فترة، أسابيع طويلة يغيب عنك، فتُكرر ما قلته للمرأة العجوز: «كل غايب حجته معاه». تتساءل فيما بينك وبين ذاتك عن تلك الحجة، ما الذي دفعه إلى الانقطاع طوال هذه المُدة؟ يدَّعي الكتابة ومحبتها وإدمانها، فكيف يمر يوم دون أن يلامس بروحه حكايتك؟

تزوره في منامه، فيُنبئك أنه مُنشغل بضربات الجائحة على مَن حوله، لتطال رفيقته. تغمره الكآبة ويعتريه الأسى فيذبل وجهًا وروحًا. يتوجع معها كلما ندَّت عنها آهة ضيق في التنفس، أو آلام في الحلق. يخاف مثلها من عدو لا يعرفه، يتحور ويناور كثعلب شديد المكر، لا يُمكن التنبؤ بحركته القادمة. يسأل الله لها العافية والعبور من كآبة وباء فتَّاك قتل مئات الآلاف في العالم الجديد والقديم دون تفرقة. يحاول الإمساك ببقايا الشجاعة في كينونته، لكنه كثيرًا ما ينهار قلقًا وتوجسًا من خواطر الشيطان. يستسلم أحيانًا ويواجه أحيانًا أخرى ويتقلب بين خيالات الحُزن والريبة، ويطارد أشباح التشاؤم مستمسكًا ببعض الصبر وطول البال. تتعافى رفيقة عمره قليلًا، فيعتذر لك عن غيابه، لكنه يُطمئنك بأنه لم يصرف نظرًا عن كتابك، ولم يخرجك من رأسه. يقول إنه يُفكر فيك كثيرًا، وفيما فعلت وبحثت وخاطرت وسافرت وشاهدت وكتبت. يُكرر لك ما قاله من قبل لأحد أصدقائه؛ إنه يشعر بدافع غريب يدفعه نحوك.

يسألك خائفًا من صيغة السؤال ومن توقعات الإجابة: ما الموت؟ ما شعوره في الحلق؟ ما آخر نظرة للعين، وآخر خاطرة في اللب، وآخر لحظة إحساس؟ ما آخر رائحة تستنشقها خياشيم الأنف؟

يكتب كثيرًا عن الموت، ولا يعرف إن كان ما يكتبه صحيحًا أم محض خيال. يقول يومًا في إحدى مقالاته: إن الموت لحظة حقيقة دامغة، خطوة بين عالمين أحدهما صاخب والآخر ساكن، حبل ممدود بين مشاعر الظن واليقين، انطفاء عقل وتحرر روح، إجازة أعضاء وتقاعد حواس، رحلة دون تخطيط مسبق أو إشارات طريق، خرس مفاجئ وعمى مباغت ونوم يطول. الموت ضيف غير متوقَّع، زائر لا يستأذن، قادم حتمي لا مهرب منه. من مات أيقن، علم، أنارته المعارف، وبلغ إجابات عن أسئلة حار فيها طوال عمره. من مات فهم، تحقق، تبددت الأسرار حوله وبلغ الضفة الأخرى للبصيرة.

يكرر كاتبك المستقبلي قراءة ما كتبه الكاتب الألماني «رونالد شولتز» في كتاب حمل عنوان «هكذا نموت» من تصوره الموت أنه الشعور بعدم وصول الدم إلى القدمين والأصابع، ثُم تبرد الأطراف، وتتلاشى الحواس رويدًا رويدًا، ثم يبدأ محيط الرؤية في التباعد، وتشعر بالوجوه القريبة للأهل بعيدة، وتبدأ في سلسلة الوداعات، فتودع الأشخاص، ثم الأماكن، ثم تودع نفسك.

يستعيد الكاتب عنوانًا لكاتب أمريكي آخر، اسمه «تود هنري»، بعنوان «مت فارغًا»، ينصح فيه الناس بأن يحققوا كل ما يدور في خَلَدهم ليموتوا فارغين، يحث

الكاتب مَن يقرؤون على أن ينفذوا ما لديهم من أفكار دون تأجيل. يقول ناصحًا: إن كان لديك علم أو فهم فامنحه لغيرك، إن كنت تحمل خيرًا انشره، إن كان عندك مال فائض فانفع به آخرين، افعل من العمل أفضله، أعطِ أجمل ما لديك، أبدع وتفنن وأتقن كل شيء. ينصح «تود هنري» الناس نصيحة غالية؛ إذ يقول: «لا تذهب إلى المقبرة إلا فارغًا»، ويحكي أنه حضر ذات يوم اجتماعًا بإحدى الشركات العالمية وسمع أحد المديرين يسأل: ما أغنى أرض في العالم؟ فأجاب كثيرون: بلاد الخليج العائمة في النفط. وقال آخرون: أفريقيا الغاصة بالألماس. وذكر آخرون مدينة نيويورك المزدحمة بشركات المال.. لكنَّ المدير النابه استبعد الإجابات كلها، وقال: إن أغنى أرض هي المقبرة! والسبب هو أن مليارات البشر ذهبوا إليها وفي داخلهم مليارات الأفكار النافعة وأعمال الخير المؤجلة التي دُفِنت معهم.

يبتسم لك كاتبك المستقبلي ابتسامة أمل، ويُكرر لك أنه لن يدفن حكايتك في المقبرة، سيدونها وسينشرها للناس، وسيتجاوز خبطات الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدمتـان

تصحو على صدمة مُزلزلة، تبدأ بِطَرْقٍ مُتسارعٍ على باب البيت الصغير الذي خصصه لك القاضي، ليُطالعك وجه «يحيى أفندي» محمرًّا وهو يقول لك بوجهٍ حزينٍ: «البقاء لله».

تطرد بقايا نُعاس يسكن مُخك، ويتسرب لوجهك، وتكاد لا تعي شيئًا، حتى تستوعب أن الطارق هو الطبيب الخاص بـ«الأمير طوسون».

تستعيد كلمتيه، وتحاول أن تستذكر إن كان لك أحد يعرفه الرجل، ثُم تقول بعدم اكتراث: «ما الأمر؟».

يدخُل الرجل ذو الشعر الأبيض والوجه الملائكي بخطوات وئيدة، مُتمتمًا بكلمات خفيضة كأنه ينحتها على صخر صوَّان: «لله ما أعطى ولله ما أخذ». تفكر قليلًا وتُسافر روحك إلى القاهرة، فتتذكر أن لك زوجة جميلة تُضفي بعض اللطف على مهمتك، وتكاد تنطق اسمها قبل أن يسبقك بأسى مُفتعل، وهو يهز رأسه قائلًا:

«نعم، السيدة حرمكم المصون.. رحمها الله».

تسمع الكلمة فتلسع حوافَّ القلب ككرباج أفريقي غُمس في الزيت الساخن، وتشعر أن الرحمة المطلوبة أولى أن تُسأل للفاقد لا الفقيد. يرحمها الرب، نعم، لكن يرحمنا نحن أيضًا؛ فما زلنا ننبض بالحياة، وما زال الحُزن سكينًا باردًا ينحر رقاب فاقدي الأحبة. تستعيد وجهها باستدارته القمرية، وبياضه الحليبي، وصفائه التام كطفلة بريئة تخطو خطواتها الأولى بعفوية. تنظر إلى مُحدثك وتصمت، ولا تكاد تراه قبل أن يعيد عقلك ترتيب أحداث حياتك في سرعة مُذهلة. تُقابل بشرًا وتُغادر أماكن وتترك بصمات ويُفارقك أحبة وتبقى الذكرى وجعًا مكورًا بين الضلوع. تتذكر جرأتها، وحنانها، ومرحها، وإقبالها على الحياة، واستبشارها بالغد، وأنوثتها الموقظة، وكل شيء فيها تُحبه وتفضله وتراه أثرًا طيبًا في مشوار سعيك.

تقعد مهدودًا كبناء مُهيأ للسقوط، تشعُر بهزال مُسن صعد أهرام مصر في نهار صيفي، تشهد ليلًا خياليًّا يأتيك في الصباح الباكر، تُغلَق أمام عينيك أبوابٌ عِدَّة كُنت تظُن أنها مُنفتحة للأبد، تشعُر بقُرب الموت كظل يتبع خُطاك. تنسى مُهمتك الأولى، فيمَ كُنت تُخطط؟ ما هدفك؟ لِم جئت إلى هنا؟ ولِم ارتحلت جنوبًا وشرقًا؟ ولِم غيّرت هيئتك، وملابسك، واسمك، وعادات حياتك؟ تجهل مَن أنت، ما دورك في الحياة، وما تريد منها. ما يدعوك أن تُحب وتكره، هل بالفعل تُحب وتكره؟

تقول لـ«نجلاء» ذات العينين الصاحيتين: «مهلًا، فلم أمنحك ما تستحقين من حُب وفرح بعد ضربات حُزن مُتتالية كتبتها عليكِ الحياة في هذه البلاد». تُخبرها بصمت يليق بحبيبين افترقا في عالمين منفصلين أنك كُنت تراها ملاكًا طيبًا يفيض رقة، وأنثى مُذهلة يُغْني ذكرها عن نساء الكون. تغوص في عينيها بحثًا عن لحظات طمأنينة وسلام، فتحتضنك رموشها كوليدٍ يخاف المجهول.

يتحدث زائرك الصادم بصوتٍ خفيضٍ يدّعي الحسرة، تحاول أن تستبين ما يقول، لكنك تشعر بحجرٍ ثقيلٍ فوق رأسك. تستعر جبهتك نيرانًا لتشهد جهنم الدُّنيا تكوي قلبك، مُصيبتك ليست مصيبته، وعليك تحملها وتقبلها وحدك. مصيبتك تدوس أنامل روحك، تفترس بقايا ذكرياتك، وتصدر عليك حكمًا أبديًّا بالوحدة. وحيد أنت إلى أن تلاقي الغائبين، وكم من غائبين في حياة رحَّالة ترفض قدمه الثبات في موطئ بعينه! تستجمع قدرتك على الصمود لتسمع كلمات «يحيى أفندي» الذي لا تعرف إن كان ملاكًا زائفًا، أم شيطانًا مُستترًا.

يقول لك والحزن ثالثكما:

«ماتت السيدة نجلاء في قصر شقيقتها بشبرا الشهر الماضي، بعد أن داهم الوباء نصف المحروسة. نقل الخبر لنا أحد رجال الأمير إبراهيم أغا، لنصلي عليها وعلى أهل البيت الراحلين صلاة الغائب. لقد تفشَّى الطاعون بالبلاد وقتل خلقًا كثيرين، ولم يلحق الدفتردار أن يُقيم كرنتينة، ولم يقدر في ظل غياب الباشا على التصرُّف وحده. الأنباء مُحزنة، والجنازات تتكرر كل يوم، ودُفن كثير من الناس دون غُسلٍ؛ خوفًا من العدوى».

تنهمر دمعة ساخنة فوق وجهك لتُطفئ أوجاعًا لا حدود لها. تسأله:

«كيف أصابها الطاعون وهي لا تخرج أبدًا؟».

يهز رأسه، ويقول:

«قدر الله يا أخي. يُصاب الحَذِر، وينجو من لا يؤويهم سكن!».

ويتابع حاكيًا:

«أبلغ الحرس أن الوباء داهم بيت الأمير كله، الذي كانت حرمكم تقيم في أحد أجنحته، ولم تنجُ من الموت سوى الجارية السوداء نور. حكى لنا القادمون من المحروسة أن المصاب يصحو يومًا بأوجاعٍ في بطنه، ولا تمر ساعات حتى ينتابه قيء وحمى، وفي آخر الليل يلفظ أنفاسه. كانت الشوطة هذه المرة سريعة».

يُتمتم وكأنه يُنهي الخبر الأكثر حُزنًا:

«المرحومة كانت حاملًا في ابنك.. صَبَّرك الله».

تدور بك الدُّنيا ثلاث دورات، وترى كاتب المُستقبل يدوس على آلته العجيبة مُنتقيًا كلماته ليرسم أوجاعًا يتصور أنها ضرورية لشد انتباه القارئ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غيـاب مؤقت

ستدور في الحانات كقطٍّ جائع للحظة غياب، ستُنكر أنك في البلد الأمين، وستُجرجر أقدام تابعك الساذج نحو بئر الملذات، لتشرب أنواعًا من الخمور المجلوبة عبر السفن الهندية إلى الحجاز.

يحضر الحاذقون مشروب «الراكي» في براميل، ويباع لطالبيه الكثير بعد أن يمزجه صناع المزاج بالسكر والقرفة، ليشربه الشاربون تحت اسم النبيذ الطيب، ويدَّعي البعض حِلَّهُ، وأنت منهم، لكن ليس بسبب تكوينه غير الواضح، ولكن لأنه ضروري لتجاوز صدمات العمر.

تستبعد نصيحة «يحيى أفندي» بأن تعتكف في الكعبة وتدعو الله لرفيقتك، وتُفضل ما تربيت عليه في «بازل» و«لندن»، من أن السُّكْر ضرورة لعبور ضربات الزمن.

تنام كقديس، فترى الزوجة الطيبة تجلس أمام مرآة مستديرة، بلحمها العاري الشهي، وهي تضحك في تدلل واضح، ثُم تغمز بنصف عين، وتقول لك: «يا حبيبي لا تحزن.. سنلتقي سريعًا».

تسألها عن ابنكما فتُجيب: «إنه يلعب مع أقرانه».

تُكرر لك بابتسامة صافية: «يشبهك يا إبراهيم».

وتواصل: «أريده مثلك طيب القلب، رقيق الحال، يحب النساء ويحترم ضعفهن، يُقدِّر العلم ويقرأ كثيرًا، ويطلب الرزق في السفر والترحال».

تقول لك أيضًا: «لا أريده أميرًا لجندٍ، فارسًا، مقاتلًا، ولو كان شجاعًا، عنيفًا، قويًّا، وباردًا كزوج أختي».

تُقبلك قُرب عينك اليُسرى، وتمضي لتختفي رويدًا رويدًا في الظلام.

ترفض الصحو، وتستعذب الغياب، فتلمح «مارغريتا» ترفل في فستان أحمر مُنفتح الجانبين، يبين جذعي نخل غمرهما الحليب، يقوم عليهما جسد فارع طيب يدب نشاطًا وحيوية، تقترب من وجهك وتُقَبِّل أرنبة أنفك في إغراءٍ ساحرٍ لا يليق براهبةٍ. تنظر إلى عينيك اللامعتين بفضة الدمع، وتمد أصابع نحيلة لتمسح ندى الحُزن سائلة: «ما يُبكيكَ؟». تُمسك برأسك وتهزه وترد: «لا أجدني».

تشكو الوحشة، القلق، الشك، الغموض، الخوف، تُسر إليها بأنك تائه أكثر من ذلك الأبله الذي يتبعك فيُضلك ويضل طريقه. تبتسم وتقول: «أنت هنا حيث اخترت، أنت تملك الاختيار وتفعله، تُقرر ما تريد. تُحدده، تُشير إليه، وتكون ما شئت».

تلوح «سارة روهنر» بأناقتها المُبهرة، تقف بحكمة أمامك مُنتظرة انسحاب «مارغريتا»، ثم تقترب ببطء وتهتف فيك: «كُن جديرًا بمجد العائلة. قاوم، واعبر، وحُزْ ما تروم». تسمع قهقهة الجد «جيدوني» العالية، وهو يصيح: «ستكون».

يختلط الصوت بصوت عربي خشن، يسألك: «أيها الأخ الغريب، يا ضيف المدينة المقدسة، يا رجل.. ألن تُغادر؟». تُدرك رويدًا رويدًا أنك في شِعب بني عامر، وأن نصف مَن حولك تسكرهم البوظة، ونصفهم الآخر يغرقون مثلك في «الراكي». تسمع جليسًا بجوارك يتحدث إليك بصوت سكير، ويقول لك مُفتخرًا: «لقد جاءتني تسعى، فزت بها في الليل بعد طول تمنُّع».. تستعيد شعورك بالمكان والزمان وتسأله: «مَن؟»، يقول لك: «جارية البئر الحبشية.. فتنتني ثلاث سنوات ولم تجبني، وفي البارحة أتتني مستسلمة»، يُشير إليك الساقي بيده بأن الرجل يهذي؛ فكثيرون في هذه البلاد يتحدثون عن علاقات غرامية لا تحدث، ويختلقون وقائع فحولة أسطورية.

تُغادر مُترنحًا كمئذنة أذابتها السيول، وتسلُك طريقًا مُظلمًا يكاد يخلو من بشر، لتُبصر السماء صامتة كأصنام هذه المدينة الجاهلية قبل اثني عشر قرنًا، وتُغمض عينيك فلا ترى شيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سقيم مكـة

تنتابك الحُمى أيامًا، تشعر في البداية بخَدَر في أطرافك، ثُم تشتعل الحرائق في جبهتك وتسعل سعالًا يُمزِّق أوصال الرئتين، تعاف الطعام والشراب، وتتلوَّى أمعاؤك من فرط أوجاع لم تعرفها من قبل.

تُبصر الموتَ كائنًا خرافيًّا، يطير بجناحيه ويحط فوق بيتك، ليُشعل غليون انتظار لسحب روحك والسفر بها إلى الضفاف الأخرى. تسأله في جرأة: «ما تربح يا أخي باقتناص الناس؟»، فيجيب: «لا شيء.. أنا عبد المأمور. لا أنظر إلى الربح والخسارة».

تُبصر بين الخيال والواقع وجوه «يحيى أفندي» و«صادق أفندي» والبصَّاص الذي يتبعك يزورونك كثيرًا ويتشاورون حولك، تسمع بأذنيك كلمات «يحيى أفندي» لأحد الحراس، بأن خبر هلاك السيدة «نجلاء» أنهى عليه بأسرع ممَّا توقعوا.

يُقدم لك الخادم طعامًا مسلوقًا، وتستعين بأقراص علاج للحمَّى كُنت تُخبئها بين أوراقك، وتتذكر كلمات سابقة قالها لك «مسيو باركر» نصها: «لا تأمن لأحدٍ».

تغسل وجهك بالخل مرتين في اليوم وتأكل قليلًا، وتشرب كثيرًا، وتحاول أن تحث خلاياك على المقاومة، تقرر بينك وبين نفسك أنك لن تموت في مكَّة، لن تخالف أحلامك السابقة بنعشك يتهادى في مدينة مزدحمة وسط سِحَن طيبة، وصوت خفيض يردد: «لا إله إلا الله.. الحاج إبراهيم بركهارت في رحاب الله».

تتعافى قليلًا فتكتب لـ«بانكس» مقالًا حول تلك المدينة المختلفة، تقول له إنك جُبت الشوارع والأزقة بحثًا عن مكتبة واحدة فلم تجد، لا ناسخين للكتب مثل القاهرة ودمشق، ولا مدرسة لتعليم الناس، ولا أيّ حديث عن العلم، تسأل يومًا أحد ندلاء المقاهي إن كان يعرف أين يوجد «سوق عكاظ» التي كانت تموج بشعراء العرب قبل الإسلام، ليُعلن كل منهم معجزته أمام تيه الناس، فيهز رأسه أنَّ شيئًا كهذا لا وجود له. يحكي لك أحد الشباب أنه كان هناك محل وحيد لبيع الكتب والمخطوطات، وأن الوهابيين عندما دخلوا المدينة قبل سنوات أخذوها جميعًا معهم.

يزورك «يحيى أفندي» بعد أن تسترد جانبًا من عافيتك، تشعر أنه مأمور بك، مثل تابعك الذي يظهر حينًا ويختفي أحيانًا. يقول لك: إن الحجاز سيدخل في زمن الوباء، وإن هناك خلقًا كثيرين أصابتهم الحمى قبل موسم الحج، وإنه ليس من الحكمة أن تبقى حتى الحج. يقول لك بابتسامة ماكرة: «إنك اعتمرت، وهذا يكفي، وأيُّ معتمر يعود من الحجاز يفوز بلقب حاج».

يُقنعك رأيه، خاصةً أنه يُمكن انتظار قافلة الحجاج الأفارقة في «المحروسة». ترى أن صحتك لا تحتمل الانتظار في ظل زحام الأمراض الغريبة، والشكوك المحتشدة. تقتنع بأنه لم يتبقَّ لك في مخططات المعرفة سوى زيارة لقبر «النبي محمد» في «المدينة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تخطيط مُحكَم

يُعيد الروائي تشبيك الأحداث وغزلها، يتفرَّس صورتك كثيرًا، ويتصوَّر أنك مُخادِع كبير تعرَّض لخداع أكبر، يرى أن كثيرًا ممَّا مر بك محل شك، وأنه لا يُمكن تسليم الأحداث لقانون المصادفات وحده. يتخيَّل أن «باشا مصر» وأعيُنه ترصدك مُنذ حطت رحالك في «مدينة حلب»، وأن جهاز البصَّاصين المُتقن الذي يقوده ذو الكرش الكبير المُسمى «الكتخدا»، وضع خارطة طريق للتعامل معك، فستكون مفيدًا كجسر، وستفتح مجالًا لإيصال رسائل مُهمة، وإن خرجت عن السياق وغردت وحيدًا، فستُستنزف وتُستدرج لعذابات غريبة لن تحتملها. يزرعون في طريقك «حميد»، الشاب اللطيف، الذي يعرض عليك حكاية مكررة عن سعيه إلى كسب المال ليتزوَّج محبوبته، ويمضي معك كظلك لتُفاجَأ أنه يعرف عنك أكثر ممَّا تتصور. يراك حتى تصل إلى المملكة المفقودة، فتنتهي مُهمته لتدخل مِصْر تحت ولاية أعيُن أخرى. يُباغتك «إبراهيم أغا» بعرض زواج يسير سلس لإحدى جواريه، ويختلق لها قصة ساذجة بأنها شقيقة زوجته، وترملت مرتين في بضعة أعوام، لتُصبح جميع حركاتك وسكناتك، وحتى كتاباتك، تحت منظار جهاز استخبارات «الكتخدا» بيسر. تُفلت منهم بسفرك إلى «النوبة» و«السودان» فيزرعون معك العبد «آدم» ليُصاحبك حتى «دنقلا»، وتعود، وهكذا تظل طوال الوقت مُسيَّرًا لا مُختارًا. تُغير خططك كل يوم حسبما يوجهون بوصلتهم. وهنا يستنطقك «يحيى أفندي» كصديق ملائكي سقط عليك سهوًا في زمن ازدحم بالمخادعين، وبلاد احتشدت بمتعددي الوجوه. لا تبتلع حكاية الموت المُفاجئ لـ«نجلاء» بالطاعون، وبالطبع حكاية حملها بابنٍ لك يُغادر قبل أن يدخل الحياة. في الأغلب فقد انتهت المهمة الموكولة لـ«نجلاء» مثلما انتهت من قبل مهمة «حميد»، وستعود للظهور بشخصية أخرى في مهمة تالية.

يتسرَّب إليك الشك في حكاية «توماس كيث»، المعروف بـ«إبراهيم أغا»؛ إذ يُمكن أن تكون الحكاية مُصطنعة بالكامل؛ فليس من المعقول أن يتحول أسير أسكتلندي من جيش الأعداء في أقل من ثلاث سنوات أو أربع إلى رجل من الخلصاء أصحاب الثقة التي تدفع به إلى المجموعة السرية المسؤولة عن تنفيذ مقتلة المماليك. يُمكن أن يكون الرجل من أصل أوروبي، لكن حكاية حملة «فريزر» التي يُرددها ويعرفها القناصل الأجانب عصية على التصديق.

تنظر إلى كاتب حكايتك، لتجده يُفكر في سر انقلابهم عليك وقرص أذنيك. يرى الكاتب أن اطلاع الأعيُن على ما كتبته عن «الباشا» في رسائلك أصابهم بالحنق؛ إذ المفترض أن تكتب ما يُخلد ذِكْر الرجل، تتحدث عن ذكائه، وقوته، وبنائه إمبراطورية عظيمة، وإعداده جيشًا عرمرمًا قادرًا على فرض كلمته في المنطقة، لكنك خالفت توقعاتهم وانغمست في حكي أوجاع الإنسان، واستكشاف كُنْه البشر.

ما الذي يُحزنك كل هذا الحزن؟ لِمَ تكترث بأناس لا تعلم كيف وُضِعوا في طريقك؟ وما يدريك مع من تتعامل وتصاحب وتتحاور؟ تُسرَق خططك وتُختطف أفكارك،

وتوضع أمامك أكوام حجارة لتعطيل مسيرتك. تَدرك الآن أنك فريستهم، لكن ذلك لن يطول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهيد المدينة

تفتك بك المآسي، تُشاهد في رحلة جماعية من «مكَّة» إلى «المدينة» أغرب تل تراه في حياتك. تُنكر ما تراه حتى تسمع حاجًّا مالاويًّا يُصاحبك وهو يحوقل. تُعيد النظر لتتبيَّن عشرات الجماجم المرصوصة في تناغم دقيق لتكوِّنَ هرمًا عاليًا يستقبل المارّ بقرية خليص. يغض معظم مرافقي الرحلة الطرف، لكن رفيقك المُقرب يبصق، ثم يستغفر الله ويُتمتم: «يعود الإسلام غريبًا كما بدأ غريبًا». تسأله عمَّا يعني، فيُخبرك أن مَن يفعل ذلك بمسلمين ليس بشرًا. تسأله: «من أيِّ البلاد أنت؟».

فيجيبك: «سومطرة».

«أليس لديكم حروب وقتلى وصراعات على الحكم؟».

يهز رأسه نافيًا، ويقول:

«الناس في بلادي طيبون».

ويشرح عمَّا يُمكن أن يدفع أيَّ بشر إلى قتل آخر، مُكررًا أن كل شيء زائل: المال والإمارات والسلطان، ومهما طالت أوقات السعادة فهي منقضية؛ فالحياة الحقيقية ليست هنا، في هذه الدنيا الصاخبة بضجيجها ولُهاث أبنائها سعيًا وراء كل شيء: المال، والنساء، والسلطان، والشهرة، والمكانة.

يقول لك الرجل الذي لا تعرف اسمه، والشمس شاهدة على تحاوركما:

«جاء الإسلام ليُخلص الناس من العبودية، ليس بمعناها المعتاد، وإنما العبودية لكل شيء. ستجد البعض عبيدًا للمال، وآخرين عبيدًا للشهرة، وهناك عبيدًا للسلطان، وهناك عبيدًا لشهواتهم، وكل هؤلاء يجهلون ما يريده الخالق منهم. التحرُّر، التحرُّر من كل ما فوق الأرض، والانسحاق التامّ في عبودية وحيدة، هي العبودية لله وحده».

ينظر إلى بيوت من الطين تقابلنا بعد هُنيهة ويقول:

«انظر إلى هؤلاء الفقراء البسطاء الذين تلفح أجسادهم هذه الشمس اللاهبة، هم سعداء بما هم فيه، يبيعون الذرة والشعير ويفرحون بمكاسب ضئيلة لا تكاد تكفي سد أرماقهم. ما الفارق بينهم وبين أمير أو شريف أو تاجر من الأعيان؟ في الحقيقة: لا شيء. سيموت الجميع وسنرجع إلى الله، وهناك فقط تكمن السعادة الحقيقية أو الشقاء الحقيقي».

يتدخل في الحوار فجأة رجل زنجي، يتحدث العربية بصعوبة شديدة، ينبت فجأة سائلًا كأننا رجال دين:

«ماذا عليَّ أن أفعل لأرى النبي محمدًا في المنام؟ نصحني أحد الحجاج أن أصلي طوال الليل حتى أتعب وأنام، وفعلت ولم أره!».

يُجيبه رفيق الدرب سائلًا:

«لماذا تريد أن تراه؟».

يُجيب السائل:

«لأطلب منه أن يعتني بابنتي المتوفاة منذ شهور حتى أذهب إليها».

يبتسم الرفيق ويقول بلهجة الحكيم:

«اطلب من الله، هي في معيته، وهو أرحم بابنتك منك».

يبتسم السائل كمَن اكتشف خبيئة، ويقول:

«إن أخي رأى النبي، وأخبره بشائر خير حدثت تباعًا».

يؤمن كثيرون بأن ظهور «النبي محمد» في الحلم حقيقة، وأن كل ما يقوله من بُشرى أو تحذير أمر من الله، لكن أصحاب الاعتقاد الوهابي يرون غير ذلك؛ إذ يقولون: إن النبي ميت، ولا تجوز محادثته، أو طلب شيء منه.

تُقابلك خيام البدو على مشارف المدينة، تحكي لك أساطير عِدة عن مهالك ومشاهد موجعة، استبيحت فيها «مدينة الرسول» التي ناصرته وأيَّدت دعوته.

يبدو الحُزن مقيمًا دائمًا مُذ رحل «النبي» إلى ربه ليُدفن سريعًا، وصراعات الساعين إلى الحكم تستعر في مجافاة لكل قيم الإسلام الأولى. يستوطن الفقر وجوه النسوة المارات في عباءات داكنة، فكما تعلمت صغيرًا أن وجه المرأة أهم كتاب يقرؤه الرحالة فور أن يطأ أرضًا جديدة.

تدخل «المدينة» على حين غفلةٍ من أهلها قرب المساء، لتسمع الخبر المفاجئ: استُشهد «إبراهيم أغا» في قتالٍ مريرٍ مع الوهابيين الكفار. تستفهم أكثر فيحكي لك ناقلو الأخبار أن «الأمير طوسون» وصل إلى المدينة قبل أيام، وأقام في القصر الكبير الذي أقامه «الأمير إبراهيم أغا»، وفي الليلة الأولى تعرَّض لهجوم مباغتٍ في الليل من ثلاثة ملثمين يحملون خناجر مسمومة وأنهم أصابوه، لكن «إبراهيم أغا» استيقظ فجأة ليجد حراسه مذبوحين، ويُقاتل وحيدًا دفاعًا عن سيده، ليقطع رقبتي اثنين منهم، ويفلت الثالث بعد ضربات عنيفة بترت يديه، قبل أن يُصيبه بجرح غائر في جنبه، ليلفظ أنفاسه خلال دقائق معدودات.

سيقول لك قائل آخر ادعى أنه شهد الواقعة: إن «إبراهيم أغا» وقف أمام «الأمير طوسون»، ليجعل من جسده درعًا أمام ضربات القتلة الثلاثة، وإن أحدهم كان يصيح في وجهَي الاثنين بثأره للبطل الوهابي «عليان الضبيبي»، الذي أعدمه رجال «الباشا» بعد أن أمَّنوه، كان «إبراهيم أغا» يُمسك بيُمناه سيفًا، وبيسراه سيفًا آخر يضرب بكلٍ منهما بالتتابع، بشجاعةٍ مُذهلةٍ وإخلاصٍ عظيم، حتى تمكن من تأمين الأمير الذي دخل إحدى الحجرات وأغلق بابها. بعد توقفَ الصخب، كانت جُثتا الوهابيين مُمددتين بملابس مُبللة بالدماء، بينما كان «إبراهيم أغا» قابضًا على سيفيه، وهو يُردد الشهادتين، ويبتسم في وجه سيده أنه نجح في تأمينه.

ويقول لك «جيوفاني باتيستا بلزوني»، فيما بعدُ، إنه سمع حكاية أخرى من أحد خواص «محمد علي»، مفادها أن المهاجمين الثلاثة كانوا يقصدون «إبراهيم أغا» نفسه، وأن «الأمير طوسون» هو الذي استيقظ، وحمل عليهم بسيفه حتى قهرهم، لكن الموت كان أسرع إلى رجله الشجاع الذي بوغت. وأيًّا ما كان حقيقة ما حدث، فقد كانت النهاية كما توقعت حمراء، ولم تذكر مصادر التاريخ العربية شيئًا عن

«توماس كيث» وشجاعته، أما الاسم الذي صمد وظل محفورًا في الكتب فهو «الأمير إبراهيم أغا»، أمير «المدينة المنورة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقـراص النـجاة

يقول لك كاتب المستقبل: إن بصَّاصًا محترفًا يسير خلفك، يُخبرك أن أمرًا نهائيًّا صدر بقتلك. تسأله دون لقاءٍ عن السبب، فيُجيبك بحنكة الباحث قائلًا:

«قطع الشك باليقين».

ويضيف:

«ما يدفع هؤلاء أن يستوثقوا إن كنت جاسوسًا أم باحثًا، ما يجعلهم يُكررون السؤال المهم إن كنت مسلمًا أم غير ذلك، بمَ يفيدهم ذلك؟ الأكثر ضمانًا وأمانًا أن يعتبروا كل التهم الملقاة عليك صحيحة ويتصرفوا بناءً على ذلك».

يسألك كاتب سيرتك الغامض:

«ألم تحقق مهمتك؟ ألم تفُز بحلمك وحلم كل باحث أوروبي؟ ألم تزُر المسجد النبوي الشريف؟ ألم ترسمه بأبوابه الأربعة: الرحمة، والسلام، والجبر، والنساء؟ ألم تقف على قبر النبي؟ ألم تتيقَّن أن ما حكاه بعض المخرفين في أوروبا من أن قبره معلق في السماء محض خبل؟

ألم تكتب عن الزوار من كل فج عميق وهم يُحادثون النبي وكأنه حي؟ ألم تسرح بخيالك في دعوة الرجل وقِيَمه وحياته وما تركه من مشاعل معرفة للقادمين من بعده؟ ألم تزُر حي العنبرية، حيث ما يسمونه بقايا منزله؟ ألم تُفكر كيف كان الرجل يملك الدين والحكم معًا بمحبة الجميع ورضاهم، وأن من جاؤوا بعده حاولوا فخابت مساعيهم؛ لأنه وحده كان النبي؟ ألم تعبر شوارع المدينة وتجُب أزقتها وتجالس مَن لا تعرف على مقاهيها وتفتش دواخلها وترصد خباياها؟ ألم تتعرَّف على عادات البشر وتصوراتهم عن السلطة والحب والحياة؟ ألم تسائل بشرًا كثيرين عن تجارتهم، وأعمالهم، ورحلاتهم، وآثار السابقين؟ ألم تكتب، تكتب، تكتب كل شيء يا لويس، يا إبراهيم وتسكر بلذات الكشف الخالدة؟ ما الذي يُخيفك أيها العنيد من بصَّاصٍ مأمورٍ يحمل خنجرًا معقوفًا، غاص في السم بضع ليالٍ؟ ما الذي يُرهبك إن طعنك بِغِلٍّ في سوق مزدحمة أو زقاقٍ خالٍ؟ ما الذي يُحزنك إن مدَّ لك جسرًا سريعًا نحو العالم الآخر، إن أركبك دابة الموت، فانتهى وجودك على الأرض؟ ما الذي يُضيرك إن مت الآن بعيدًا عن بركهارت، وسارة، ومارغريتا، وبانكس، وبلومنباخ؟ لا شيء يُخيف ما دمت قد صنعت أمجادك؛ فاستسلم بثقة، وكُن شجاعًا كما عهدتك».

تستيقظ من نومٍ عميقٍ، طال ساعات وساعات، ليبدو لك الوجع ذئبًا يعوي بين أحشائك. تشعر بخَدَر خفيف يتسلق جمجمتك، وآلام تتصاعد تهدُّ أوصالك. تُبصر غرفة الخان حولك بسيطة بلا أيِّ أثاث سوى ملاءة من الصوف، وخزانة خشبية تآكلت قوائمها. تتذكَّر أن رجلًا زارك في الليل ودعاك إلى قصر «الأمير طوسون» صباحًا للضرورة. تحاول القيام، لكنك تشعر بأثقال تشدك للمكوث والتمدد، تمد يدك إلى جيب سري في حزامك لتسحب واحدًا من أقراصك السحرية وتبتلعه دون ماء.

تفكر في صديق أحلامك الذي يأتيك من عوالم بعيدة سائلًا، ومحذرًا، وناصحًا. ترن بمسامعك كلمات رجل مُسِن قارب المائة يجلس أمام باب «النبي» وهو يقول لك:

«سيعود عيسى قبل نهاية الكون ليدعو إلى الصلاح، وسيموت ويُدفن هنا إلى جوار النبي محمد».

تُسجل عيناك همة عشرات الزنوج الخصيان حول «المسجد النبوي» ينظفونه، ويحرسون تيجانًا وسلاسل ذهبية مرصوصة إلى جوار القبر بعث بها الملوك والسلاطين. تعرف من أحدهم أن الوهابيين عندما دخلوا المدينة قبل أعوام أخذوا كل الكنوز الموضوعة حول القبر وكان من بينها نجمة مرصعة بالألماس قدَّمتها إحدى سلطانات العثمانيين، وبيعت في «الدرعية» وأنفقت على الناس.

تقف مشدودًا أمام القبر العظيم المعزول بحاجز حديدي مطلي بزخارف مُتقنة، تحمل لون البرونز الأصفر، والمكتوب عليه: «لا إله إلا الله الحق المبين». تُفكر في هؤلاء الخصيان المأمورين بحراسة القبر، ما الذي يحملهم أن يأخذوا من الحجاج أموالًا ليسمحوا لهم بالدخول ومناجاة «النبي»؟ يُخبرك أحدهم أن «النبي» مدفون في عمق كبير ومغطى عليه ببلاطات من الحديد المصهور. تتذكر حكاية قرأتها في أحد الكتب العربية لا تُجزم بصحتها أن أحد الملوك الإفرنج أرسل جاسوسين عربيين مدربين لسرقة جسد «النبي»، وقد تزيَّا كل منهما بزي التجار، وسكنا في أحد البيوت المجاورة للمسجد بضعة أشهر، وظلا يحفران ممرًّا تحت الأرض للوصول إلى جسد «النبي»، وكان هناك سلطان صالح يُسمى «نور الدين»، زاره «النبي» في المنام وأخبره بعمل الجاسوسين وأراه وجهيهما، فذهب «نور الدين» إلى المدينة ووزَّع الأموال على الناس، وتفرَّس في وجوههم فلم يرَ الرجلين، ثم سأل أعيُنه عن أيِّ تجار لم يحضروا تقسيم عطاياه، فأخبروه أن هناك رجلين شديدي الصلاح تغيَّبا لمرض أحدهما، فقبض عليهما ليجدهما المطلوبَيْنِ بالفعل، واعترفا بفعلتهما، فأعْدِمَا على الفور.

تقاوم وجعًا يتحرك في ثنايا جهازك الهضمي، وتفكر إن كان بصَّاصك قد دَسَّ لك سُمًّا في الطعام، وتراجع ما دخل جوفك مذ وصلت «المدينة»، من بضع تمرات منحك إياها رفيق الرحلة، وفنجان قهوة من أحد تجار الكتب، وكأس شربات في رحاب المسجد، وقليل من البسكويت الذي تحمله في رحالك. تسأل إن كان قد تسلل إلى غرفتك أحد ما وغمس بسكويتك في السم! ثُم تعاود طرد مخاوفك، وتحاول النهوض رويدًا رويدًا لتلبية طلب الأمير ابن «الباشا الكبير».

تسمع من الناس في الأسواق كلامًا يشي بأنهم يحبون «الأمير طوسون» ويفضِّلونه على كل رجال «الباشا» الذين مروا بهم، يتصورونه رقيقًا وطيبًا وعادلًا، ويحكون أنه ذهب يومًا إلى قاضي المدينة المحبوب لورعه، وقبَّل كفيه أمام الناس. يتصورون أن ذلك دليل تقوى، ولا يعلمون أن مدرسة «محمد علي» للدهاء تدفع طلابها إلى أفعال مستبعدة، ولهم في دروس «الباشا» نفسه أسوة؛ إذ كان ينادي «عمر مكرم» أمام الناس بوالدي المبجل، وكان يقف كلما زاره، ويحني رأسه أمامه، حتى تملّك ودان له الأمر فأبعده عن الديار سنين عددًا.

ترتدي سروالًا خفيفًا يناسب حرارة الطقس، وتكحل عينيك لمحو آثار الهزال والمرض، وتُحسن لف عمامتك، وتتعطر، ثُم تبتلع قرصًا آخر من دوائك وتركب مداسك، وتهبط درجات قليلة تفصلك عن إسطبل الدواب لتؤجر حصانًا يليق بزيارة قصر الأمير.

تبدو الحوانيت مرصوصة بانتظام مبهر يؤكد أن التجارة هي المهنة الأهم لسكان «المدينة» الذين تتلون سِحَنهم باختلاف جذورهم؛ إذ إن كثيرين منهم قدموا من «مِصْر» و«الشام» و«الحبشة» واستقروا هنا. هناك أتراك واضحون لا تُخطئهم عينُ خبير بعباءاتهم الطويلة وأناقتهم اللافتة، ورابطة الخنجر المعقوف حول خصورهم. يحكي لك صاحب الخان أن رجال «المدينة» أشداء، قاوموا الوهابيين عند هجومهم بضراوة أشد من أهل مكّة، ربما لشعورهم بالبأس لكونهم مجاورين لـ«النبي» في مدينة نصرت دعوته، وربما لاطمئنانهم أن موتى «المدينة» يفوزون برحمة الله في الآخرة؛ ما يدخلهم الجنة بسعادتها السرمدية.

تصل إلى قصر الإمارة لتجد «يحيى أفندي» بوجهه المشرق واقفًا أمام الباب في انتظارك، يُعانقك بود مصطنع، ويُمسك بيدك إلى الداخل وهو يقول لك: «إن الهانم الكبيرة تطلبك».

تستغرب قليلًا، لكن لم يعُد هناك غريبٌ في هذه البلاد.

يواصل مُحدثك الذي لا تعرف إن كان طبيبًا أم وصيفًا أم واحدًا من العَسَس:

«لقد أصابت الحُمى أهل الحجاز، وهناك أوبئة خطيرة وغريبة تحصد كثيرًا من البشر، وأمينة هانم قدمت من المحروسة للحج، وزارت الباشا والأمير طوسون، وستغادر غدًا إلى المحروسة، وترغب أن تطمئن على ابنها».

تقف فجأة كنوعٍ من الاعتراض وتقول لـ«يحيى أفندي»:

«وما دوري أنا في هذا الأمر؟! أنا لست طبيبًا، وأنت تعرف أنني قاربت على الموت في مكّة».

يتلعثم الرجل ويرسم ابتسامة مودة ويجيب:

«يا سيد إبراهيم، أنت صديقنا، والباشا سمح لك بالتنقُّل في ديار الحجاز، ومن قبلُ في بلاد النوبة، ورعاك ومنع عنك أشرارًا كادوا يفتكون بك، وكل ما هنالك هو أنني أرغب أن تقدِّم للسيدة بعض أقراص دوائك السحري المجلوب من أوروبا».

تندهش؛ إذ وصلوا إلى جيوبك السرية، فيواصل:

«أمينة هانم سيدة طيبة، وفاعلة خير، وسُمْعتها تسبقها في كل مكان، تُحسن إلى الفقراء، وتُكرم العلماء والنابغين، وابنها الأمير طوسون مثلها تمامًا، وطمأنتها عليه تفتح لك أبواب كل خير».

يقترب من أذنك أكثر ويُردد:

«امتنان أمينة هانم لك سيكون بمثابة عهد أمان، لن يلاحقك أحد، ولن يفكر إنسان أن يمسك بسوء».

تبتسم، وتمُد كفك في جيب حزامك لتعد بأصابعك سبع حبات دواء ما زالت معك، تلتقط منها ستًّا وتخرجها للهواء وتشير إلى مرافقك قائلًا:

«هذا كل ما بقي معي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هديـة مقبـولـة

تبدو «أمينة هانم» كواحدة من نساء ألف ليلة وليلة، يفيض الجمال كنيل صيفي يرش سحره على الرائين، بوجهٍ صبوحٍ رائقٍ، يغوص في الحليب، وعينين خضراوين مُنيرتين كمشكاتين في قصر إمبراطوري، وفم صغيرٍ دقيقٍ لا يكاد يُرى. تميل السيدة المُمددة باضطجاع بين هيئة النوم والجلوسً إلى الأمتلاء، وتُغطي شعرها بغطاء حريري مزركش بألوان الطيف، بينما ترتدي فستانًا أزرق له كُمَّان واسعان، وتزدان ذراعاها بُحلي ذهبية مرصعة بلؤلؤات جذابة.

تُحدثك بفرنسية سليمة عمَّا أعجبك في بلاد الصحراء، فتجيب: «كل شيء»، وتسألك عن شوقك إلى أوروبا، فتهز رأسك مُسَلِّمًا بأنه عظيم. تقول لك إنها تشتاق هي الأخرى إلى بلادها الساحرة وأهلها الطيبين، وتتمنى للزمن أن يعود ولو فقدت عرشها.

تُحدث نفسك بأن الأزمنة تتحرك للأمام فقط، وحتى هذا الزائر الذي يحاورك من المستقبل لا يتحرك الزمن لديه إلى الوراء، وإنما هو يتخيل ذلك تخيلًا.

تقول لك السيدة الجميلة بابتسامة صافية: «فليتقبل الله زيارة بيته الحرام وزيارة قبر رسوله، ويمنحك القوة والقدرة أن تُكمل سعيك إلى المعرفة»، تُخبرك أنها تقرأ كثيرًا، وتُبحر في شتى العلوم والمعارف، وتُحب حكايات الملوك الأقدمين، وقصص الرحلات المثيرة، تسألك باهتمام:

«ما أكثر ما تعرضت له من خطر في رحلاتك؟».

تُفكر لحظات ثم تُخبرها بتعرُّضك للضرب والسرقة في الشام قبل سنوات، بعد أن عرف مَن حولك أنك غريب.

تقول لها أيضًا إنك كُنت تحت رحمة أناس لا تعرفهم فكروا في قتلك في رحلتك إلى «جدة» لا لشيء سوى لأنك حملت توصية شخصٍ يكرهونه.

تُخبرها أنك كدتَ تنزلق يومًا في «النوبة» من فوق صخرة تُفضي إلى شَلَّال عميق مزدحم بالتماسيح.

تعرف أن النساء يعشقن الحكايات، تختلق لها حكاية من رحلة «روبنسون كروزو»، مفادها أن تجارَ عبيدٍ حاصروا سفينة تُقلك مع بعض الناس، وسبوا كل من فيها وباعوهم رقيقًا إلا أنت؛ لأنك اختبأت في جوال البصل بمخزن السفينة!

تضحك السيدة بصوتٍ عالٍ، ولا تعرف إن كانت تضحك من فرط الرضا، أم سخريةً من حكايتك الخيالية، ثُم تتذكر أنها قارئة جيدة، وتفكر أن حكاية «روبنسون كروزو» لا بد قد مرت بها.

تشكرك بأدب جم على هديتك التي لفَّها «يحيى أفندي» في قصاصة حرير، ووضعها في علبة نُحاسية لامعة وقدمها باعتبارها الدواء الأوروبي السحري الذي

يُعالج كل شيء. تسمع الكلمات وتشعر بأوجاع عدة تغازل أمعاءك، وتنحني أمام المرأة لتُعد رحالك إلى القاهرة.

تقرر بينك وبين نفسك أنك في حاجة إلى استراحة سواح لالتقاط الأنفاس قبل التخطيط لرحلة «النيجر»، وليس أفضل من القاهرة من محل استجمام واستجماع للطاقات المشتتة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

الحكّاء

سيناء

تقضي أيامًا في سيناء، تحدِّث الرمل والحصى والنجوم الزاهية، وتسعد بصُحبة بدويٍّ شهم كثير الشبه بـ«حميد» في نظراته، وبعيد الشبه عنه في صمته وعدم إزعاجك بالأسئلة.

تُعيد رسم الطرق والبنايات الباقية من عصور مضت، وتكتب دراسة صغيرة عن قبائل سيناء وعاداتهم كثيرة الشبه بعادات أهل الجزيرة العربية.

تألف الحديث بالبدوية، وتشعر بالاطمئنان للتعامل كعربي أصيل لا تخاف مجهولًا. يُقابلك يومًا جندي فاسد مأمور بمراقبة القادمين عبر سيناء ليطلب منك أموالك وبندقيتك، ونصف ما تحمل من زاد، تنظر إلى رفيقك فتقرأ في عينيه قدرًا من التسليم، لكنك ترفع رأسك كطاووس جميل يتباهى بفتنته أمام أسراب من الطيور البرية، وتنظر إليه آمرًا وأنت تقول:

«اهبط من فرسك وقل اسمك».

ينظر إلى ثيابك، لكن الشكوك تحوم حول رأسه كذبابة متطفلة فيُكرر:

«باسم الباشا، سلمني بندقيتك ومتاعك لأفتشه وأعرف مرادك».

ترد بحدة تعرف أثرها:

«قلت لك اهبط من فرسك وأخبرني من تكون».

ترفع صوتك كمئذنة مُكررًا:

«أنا مبعوث مولاتي السيدة الكبيرة لأكتب لها ما أراه من آثار، وأرسم لها الطرق والجبال في سيناء».

تُخرج من حقيبتك لفافة جلدية منحتك إياها السيدة «أمينة هانم» وعليها خاتمها، وتفضها كمن يقرأ خطاب تنصيب، لينقلب الجندي الفاسد إلى فأرٍ ذليلٍ، ترتعش أوصاله ويترجَّل عن فرسه مُستعطفًا ويُردد اسمه «سليم»، ويعملُ ضمن رجال العَسَس المسؤولين عن الحدود، يستعطفك الرجل الذليل ألَّا تُخبر «الباشا»، ويكاد يسجد على الأرض أمامك عارضًا أيَّ شيء وكل شيء، ومستغيثًا بك بحق «النبي مُحمد».

يُدرك رفيقك البدوي ما تمثله من شأنٍ ويمنحك احترامًا أكثر ليعبر بك جبل الطور وهو صامت. تزوران وادي فيرار، وتمر بحمام موسى، ثُم تصل إلى عيون موسى ليُخبرك الرجل أن هذه الأرض هي التي شهدت تجلي الله على نبيه «موسى» ليكلمه. تتذكر أنك سمعت كثيرًا لقب «كليم الله» مضافًا إلى اسم النبي عند ذكره لدى العرب.

تزور الإسكندرية وأحياءها القديمة وتنبهر ببقايا آثارها الرومانية، وتمر على مُدن غريبة يتميز أهلها عن سكان القاهرة بالهِمَّة والنشاط. يُخبرك السيد «ميست» المقيم

بالإسكندرية أن هناك قنصلًا جديدًا سيصل إلى «القاهرة» اسمه «هنري صولت»، لتتذكر توصية «باشا مصر» ورغبته في تعيين هذا الرجل لتحسين العلاقة مع الإنجليز.

تكتري بيتًا في «المغربلين»، تؤثثه أثاثًا يليق بحاج ميسور الحال، وتشتري عبدًا خصيًّا لحراستك. يتجاور البيت مع حمَّام جميلٍ راقٍ، يُسمى «حمَّام إينال»؛ حيث تستمتع بالذهاب إليه، لتُسلم جسدك للمكبِّساتي «مرزوق» ليدلكه باعثًا فيك نشاطًا وحيويةً وإقبالًا على الحياة والعمل بأعصابٍ هادئةٍ.

يسألك «عبد الرحمن الجبرتي» في جلسة قهوة عمَّا تعرفه عن مقتل «إبراهيم أغا». تروي له الحكايات التي سمعتها، ويقول لك يومًا:

«إنني أشك في كل هذا.. إبراهيم أغا، في الأغلب، قُتل بأمرٍ من الأمير نفسه».

يُفضي إليك المؤرخ المصري بخبر وفاة أمير المماليك الفارِّ في السودان، الذي كان شيخًا للبلد قبل دخول الفرنسيين، واسمه «إبراهيم بك الكبير». يقول لك: إن الحكاية وصلته من أكثر من راوٍ، وإن «الباشا» وافق على طلب أرملة الأمير استجلاب جثمانه ودفنه في قرافة «المحروسة». تسأله عن رأيه في الرجل، فيقول لك: إنه كان ورعًا، شهمًا، لكنه كان يسكت على شرور باقي الأمراء، ويغض الطرف عن مظالمهم؛ طلبًا للاستقرار.

تحكي للرجل عن أسفارك وما سمعت من حكايات عن الوهابيين والصحراء وحروب «الباشا»، فتلاحظ أنه يدوِّن ما يسمعه، فتسأله عن ذلك، فيُخبرك أن القادمين من بعدُ يجب أن يعرفوا.

تسأله في تعجُّبٍ:

«هل تعتقد أن ما تكتبه سيبقى؟».

يهز رأسه بيقينٍ ويقول:

«إن كان نافعًا فسيبقى وسيصل إلى الناس».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مـحـاورة

يزورك صاحبك الروائي في المنام كما اعتاد، ويحادثك بعينين تفيضان بالحسد، سائلًا، مندهشًا كيف صنعت هذا المجد في ثلاثة وثلاثين عامًا فقط، بينما عبر هو منتصف أربعيناته دون مجدٍ مُماثل!

يسألك وهو يعي أن العمر قصير والنهايات قادمة كفيضان حتمي عن إحساسك بما يكتبه وأنت في الضفة الأخرى، يسألك وهو يعلم أنك لن تجيبه عن كُنه الآخرة، وحدود العلم، وغايات الكون.. يُلح عليك كطفلٍ صغيرٍ يبحث عن إجابات لما يدور حوله ولا يعيه أو يفهمه.

يُفكر الروائي صامتًا: كيف جابهت موتك؟ كيف أتتك لحظة المغادرة؟ كيف كان مذاق النَّفَس الأخير؟ كيف أحسست بموتك؟ وهل هو موجع مثلما قرأ في سِفر لرجل دين قروسطي يُدعى «ابن قيم الجوزية»؟ هل مذاقه كضربة سيف خاطف يهبط على العنق؟ هل الموت هو ذروة الألم وقمة الخوف؟ وهل تنسحب الروح من الجسد كإغفاءةٍ سريعةٍ، أم كسقوطٍ مُدوٍّ من علٍ، فوق صخر صلد؟ هل يقابِل الميتُ بالفعل مبعوثًا للرب يقطف روحه؟ وما صورته؟ وما هيئته؟ هل هو قبيح ومُخيف ومُنفّر، أم هو جميل وهادئ ورقيق؟ وما الحوار الذي يدور بين المحتضَر وملَك الموت؟ هل يستأذنك أم يأمرك؟ هل يُهون عليك أم يزيدك هلعًا؟

يسألك، يسألك وهو لا يدري أن لكل إنسان موته الخاص، ولكل كائن خط سير ونقطة نهاية مرسومة بعناية مسبقًا. يظن كما يظن كل مَن هم فوق الأرض، لكنه لا يُبارح ظنه نحو اليقين؛ لأن ذلك لا يحدث إلا عند شهقة النهاية.

تُدرك أن مُهمة الروائي أن يطرح الأسئلة، وأن حرفة الكتابة تستدعي ـ حتى تُحقق جاذبيتها ـ رسم علامات الاستفهام. تبتسم وأنت تُقرر ما هو مُقرر سلفًا، أنك لن تُجيب.

يستفسر منك الرجل عمَّا دفعك إلى العودة إلى المحروسة. يقول لك: إنك كُنت تُدرك خطر السير إلى جوار «الباشا»، فالرجل يمقتك، وفي قرارة نفسه يتمنى لك الموت دون ضجيج؛ لأنه لا يُمكن أن يأمن لشخص هوايته الكشف، وديدنه رفع الأستار. يُكرر لك الروائي ما سبق أن قاله مرارًا بأن وجودك خطرٌ على مشروعه، وبأن صبره عليك نابع من مُهادنةٍ مرحليةٍ للتاج البريطاني الذي يعتقد أنك عميل له.

تُخاطب الروائي الآن خطابًا افتراضيًّا لتخبره أنك فكرت وأنت في الحجاز في كل طريقٍ آخر يصل بك إلى «تمبكتو»، لكنَّ إحساسًا غامضًا كان يجذبك جذبًا نحو «المحروسة».

كانت روائح البخور والمعسلات والقهوة تُداعب خلايا أنفك، بدت طلَّات النساءِ باسماتٍ من فتحات المشربيات تتماثل أمام ناظريك، وترددت أصوات الصبية وهم يتضاحكون ويلعبون في الأزقة الضيقة على مسامعك، وحتى صوت الأذان انطلق هادرًا من أعلى المآذن الباسمة ليهز كيانك هزًّا.

تقول له إن طريقك كان مرسومًا سلفًا، يجذبك جاذب لا تنتظره، يُغير مساراتك حدث لا تتوقعه، يدفعك يمينًا أو يسارًا، يُحركك شعور غامض لا تعرف كُنهه. صحيح يُغريك لُطف المصريين وخبثهم، يلفت انتباهك هزلهم وبؤسهم، يستفزك صبرهم ورضاهم، وتفكر في دراسات وبحوث كثيرة حول شخصياتهم، لكن ذلك وحده لا يجذب شخصًا كي يذهب إلى مكانٍ يوقن أن به حتفه. ثَمَّةَ أمور أخرى لا تُمنطق ولا تُكتب؛ لأنها ممتزجة بأحاسيس داخلية غير مفسرة.

يسألك الكاتب عن نص يقول إنه منسوب لك. يقرأ عليك قولك:

«تتجلى ديمقراطية الإسلام التي أثارت إعجابي في تساوي الحقوق بين الملك، صاحب السلطان، والفقير المتسول داخل جدران المسجد؛ فهم يسجدون جميعًا لله، ليست هناك مقاعد تُستأجر، ولا أماكن تُحجز لفئةٍ دون أخرى، كما أن الاعتدال والتوسط في كل شيء دعامتان أساسيتان في الإسلام، استحوذتا على كل إعجابي وتقديري، فضلًا عن أن المسلم لا يؤمن بوسيطٍ بينه وبين ربه، بل يتجه رأسًا إلى الله، خالق الخلق، وواهب الحياة».

ينخر النسيان ذاكرتك فلا تتذكر متى كتبت ذلك، أو إن كنت كتبته بالفعل أم لا.

يعاود زائرك قراءة نصوصك لتسمع صوته يتحدث بلسانك:

«دعك من أصحاب المذاهب الغريبة، والشطحات العجيبة؛ فالأعم والأغلب من الناس يرون الله إلهًا واحدًا، عادلًا، مُنصفًا، ومُنزَّهًا عن أيِّ تصورات قاصرة».

يُخبرك، وهو المطلع، أن مستشرقًا أمريكيًّا جاء من بعدك اسمه «دابليو. م. تومسون»، لم يلف ويخالط البشر مثلك ليكتب كتابًا اسمه «الأرض والكتاب» يقول فيه: «ويدهشني أن أجد سادة عقلاء ومثقفين بدرجة عالية من المدافعين والمادحين للبدو؛ فبركهارت كان علَّامةً ومؤلفًا صريحًا غير مُعَقَّد، ومع ذلك أسرته شخصية هؤلاء العرب المتوحشين وعاداتهم».

ويقول هذا المستشرق عن العرب أيضًا: «هم أمة من الكذابين الشاملين واللصوص وقُطَّاع الطرق، وفيهم كل الشرور التي يجب أن ترتبط دائمًا بحياةٍ خشنةٍ كهذه، كما أنهم جبناء وخسيسون، ووفقًا لشخصيتهم ككل فإنهم يمارسون الطغيان على النساء اللاتي هن إماؤهم، في الحقيقة، وعليهن أن يقمن بجميع أعمال الكدح القاسية الوضيعة الملازمة لطراز حياتهم؛ فالرجال يتسكعون بكسلٍ في أرجاء الخيمة، ويدخنون ويشربون القهوة، ويمارسون ألعابًا تشبه النرد، ولديهم أنواعٍ كثيرة منها. إنهم قذرون بشكل مريع ورائحة أفواههم كريهة وغير متعلمين إطلاقًا ومتكبرون للغاية. فضائلهم ذاتها رذائل، أو أنها مشوبة بأنانية بغيض. وهكذا الأمر بالنسبة لفضيلتهم الوحيدة التي يتفاخرون بها، ألا وهي الكَرَم. إنها مجرد تنظيم اجتماعي، ودون وجود شيء من هذا النوع لا تستطيع هذه الجماعات من قراصنة البر أن تواصل مهنتها البغيض».

توجعك سخافات المتغطرسين، وتوقن أن الشر نفسه يكمُنُ في أولئك الذين يزدرون البشر لألوانهم أو أعراقهم أو عقائدهم. تتذكر ما رأيت وتعرف أن الناس، كل

الناس، ألوان، وأن هناك طيبين وأوفياء مثلما يوجد قتلة وأنذال. تَدرك أن القبح سرب طيور جارحة يمر على جميع الأماكن ويحُط في معظمها، وأنه لا معنى لتصنيف البشر وفق سلوك القلة. تعرف أن استسهال القول والكتابة دون معايشة يمثِّل جرمًا لا يُغتفر، لكنه ديدن الغرباء المتعصبين الذين توجع أعيُنَهم شمسُ الحقيقة.

تُتمتم في ثقة قائلًا:

«دعهم يقولوا.. لا قول يمحو الحقائق».

يكرر عبارتك في سعادة:

«نعم، لا قول يمحو الحقائق».

وتصحو على طرق بابك ليُخبرك أحد العبيد بأن السيد «هنري صولت» ينتظر الاجتماع معك ظهرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«صولت» و «بلزوني»

يُبهرك «هنري صولت» لأول وهلة، يبدو كرجل أسرار لا رجل آثار، تومض عيناه ببريق عجيب كُلما تكلم، لتشعر أن حبلًا موصولًا بين لسانه وعقله يُحدد بدقة مغزى كُل كلمة وطريقة نُطقها، وما تُخلفه من إيحاءات. يبدو «صولت» وسيمًا أكثر ممَّا توقعت، ولديه قُدرة على لفت الأنظار، ومتى تحدَّث تتدفَّق معلوماته التاريخية والحيادية كدبلوماسي مُحترف يُدرك حدود مهماته. يبش الرجل في وجهك، ويُحدثك كما لو كنتما صديقين قديمين، ويبدو سخيًّا في مجاملاته عمَّا حققت وما تحقق، لا من أجل بريطانيا وحدها، وإنما من أجل الإنسانية كلها. يستقرئ الرجل دواخلك، ويُقرر أنك كشاف ماهر، سيخلدك العلم بما كتبت وما سجلت. يعرف ما فعلته في «البتراء» ويُقدره، ويُخبرك أنه سيدون قصة اكتشافك لها لتبقى دليلًا لجميع المغامرين ومُحبي الكشوفات من بعدك. تسأله إن كان يهددك أيُّ خطر في «المحروسة» بعد أن عُيِّن هو للتقريب بين «محمد على» والإنجليز، فيهز رأسه مُكررًا: «إنه لا ضمان لشيء في هذه البلاد.. الحذر هو ديننا».

تلمع عينا الرجل وأنت تُطلعه على رسومات خطتها يمينك للبنايات الباقية في سيناء، يُبدي اهتمامًا واضحًا بالأماكن البادية كأرض مقدسة هُناك، ذاكرًا أن المعرفة تستدعي تسجيل كل شيء.

تشعر أن الإمكانات المُتاحة لـ«صولت» أكبر كثيرًا من تلك التي كانت لسابقيه؛ ما يعني أن حجم المسؤوليات وطبيعة المهمات الملقاة على كتفيه أكبر. يلفت نظرك حجم الكُتب المنقولة، والتحف الموضوعة، والعبيد العاملون بحيوية ونشاط في جميع أرجاء المكان.

يقول لك الرجل: «إن هؤلاء الناس لديهم كنوز من المعارف مُهملة، وواجبنا تجاه العالم أن نحفظها ونحميها حتى لو استدعى الأمر نقلها إلى ديارنا».

يُسرُّ لك أنه يعرف أنك نقلت عشرات المخطوطات الإسلامية القديمة إلى أوروبا ليستفيد منها الباحثون والدارسون من بعدُ، مُقرًّا بابتسامة ذكية أن ذلك العمل العظيم سيدخل في ميزان حسناتك.

يعرف الرجل كل شيء، ويُمكنه الحديث عن أيِّ شيء، تسأله إن كان يعتقد أن «نجلاء» ماتت في الجائحة، أم أُخفيت عن عمدٍ، فيهز رأسه قائلًا: «بالطبع الثانية». ويضيف موضحًا لك: «لا توجد مصادفات في هذه البلاد، لم تظهر المرأة فجأة، ولم تتزوجها مصادفة، وكل شيء مُخطط وطبيعي».

تسأله إن كان يُمكن أن يُساعدك في البحث عنها، فينقلب وجهه حجرًا من أحجار الأهرامات ليرد في تلقائية: «ما الذي يدعوك إلى البحث عنها؟ ماتت أو لم تمت، هي فقرة هامشية في حكايتك، والوقت الذي ستُهدره في البحث عنها يُمكن أن توظفه لكشوفات جديدة ومنافع جمة».

توجعك الكلمات كآلام حُمى الحجاز التي اختطفتك أيامًا، وما زالت كتائبها تزورك بين الحين والآخر، وتسأل القنصل الجديد عن «إبراهيم أغا»، فيمنحك ردًّا مشابهًا للشيخ «الجبرتي»، ويستبعد أن يكون قد قُتل دفاعًا عن الأمير، ثُم ينظر إلى مكتبته مارًّا بناظريه على بعض المجلدات العربية المرصوصة ليقول: «إن لدينا ما هو أهم منه.. إبراهيم أغا ونجلاء والحجاز من الماضي، ونحن نريد المستقبل».

يفاجئك الرجل ذو الغليون العاجي الصغير بأن مهمتك تغيرت، لن تذهب إلى «النيجر»، مكانك هنا في «المحروسة»، لم تعد المهمة تستحق، ثَمَّةَ مُهمات أهم وأعظم. يقول لك في ود خالص: «نريد جهودك في نقل عددٍ من المعابد القديمة التي يُسميها الناس بيوت المساخيط إلى أوروبا، لا بُدَّ من أن نحافظ على تاريخ الحضارة المصرية القديمة؛ فنحن المسؤولون عنها، لا الفرنسيون، ويكفي ما فعله هؤلاء المتغطرسون بتماثيل الدلتا والصعيد».

يُعرِّفك «صولت» إلى أكثر شخص في العالم لطفًا وفكاهةً، واسمه «جيوفاني باتيستا بلزوني»، مُغامر إيطالي بدأ حياته بهلوانًا في الاحتفالات العامة بلندن، قبل أن يُقرر دخول الشرق كشخص محترف يسعى إلى بلاط السلاطين والحكام؛ بحثًا عن وظيفة تجلب له المال. يُخبرك أنه سيكون شريكك في مُهمتك الجديدة، بعد أن وقف أمام «الباشا» عارضًا عليه آلة ميكانيكية جديدة لسحب المياه، وحاز إعجابه ورضاه. تُبدي تشكُّكًا بنصف عين مُغمضة فيسارع للقول: إن هذا ما بان من «الباشا»، وعليه سنتحرك.

يبدو «بلزوني» طويلًا كمسلة قديمة، قويًّا كما يليق برجل عمل في السيرك عدة سنوات، لديه جاذبية خاصة للنساء تُفسر اقتران واحدة من أجمل النساء الأوروبيات به، وسفرها معه أينما ذهب. يمتلك الرجل الأربعيني ذو اللحية الكثة والثياب العربية والابتسامة العريضة ذاكرة دقيقة قادرة على تسجيل الكتابات والأرقام ووجوه الناس.

يقول لك في فخر: «ليس أفضل من النساء، لقد فعلت كل شيء من أجل سارة، أحببتها في لندن على الرغم من عدم قبول عائلتي أن أقترن بإنجليزية، وتزوجنا، وأقنعتني بالمجيء إلى مِصْر لخدمة بريطانيا العظمى ووافقت».

يُزيدك بعض فلسفته بأن النساء هن أقوى دافع لنا في الحياة كي نُبدع ونتطور ونُحقق أحلامنا.

تُحدثك «سارة» برقة تُعادل حب زوجها، وتُخبرك أن بلاد الشرق كلها كشوفات عظيمة. تقول لك في صراحة:

«إنك تشعر أن البلاد، بسكانها وبناياتها وأحوالها، تستدعيك لتراها، كُل شيء فيها جميل، حتى هذا الخطر الذي يُحدق بنا كثيرًا من جُهال يستريبون في أيِّ غريب، أو رجال بلاط يظنون أنهم أذكياء».

تقول إنها زارت الأهرامات، وراق لها بناؤها، وشعرت أن المكان كله مسحور، كما زارت قرى نائية في الصعيد تُعد عنها كتابًا. لقد خبرت معايش النساء وتحادثت

معهن وكن كلما رأينها يضحكن ربما استغرابًا لهذه المرأة التي تقف إلى جوار الرجال تُحدثهم وتحاورهم.

تقول لك في سكينة: «هذه بلاد عجيبة تستحق أن نعيش فيها».

تسايرها بابتسامةٍ غامضةٍ ثم تقول:

«ربما، ونموت فيها أيضًا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تـجريـس

يُبهرك مشهد التجريس؛ حيث يخرج المحكوم عليه من باب القلعة راكبًا على الحمار بالمقلوب، ويُدهن وجهه بالقار، وتُعلق أجراس وسلاسل في رقبته، ويطاف به في الطرقات والأزقة لفضحه، وطوال رحلة التجريس يكون المسكين عرضةً للسب والبصق والصفع على قفاه في بعض الأحيان. تشهد بعينيك تجريس «أحمد المعايرجي» قبل شنقه بتهمة الاختلاس من الضربخانة.

يقول لك الجبرتي: إن «المعايرجي» كان من خواص المصريين الذين أيَّدوا «محمد علي» في بداية حُكمه، وعُين كاتبًا للضربخانة، وكان مطلق اليد في تحصيل الإتاوات من التجار واليهود والنصارى، حتى بانت عليه آثار النعمة واقتنى عبيدًا وجواري، فوشى به الواشون إلى حضرة «الكتخدا» فأمر بضربه حتى يدل على موضع كنوزه ففعلوا، لكنه لم يعترف لثقته بأنهم قاتِلوه، إن قال أو لم يقل؛ فالشك في هذه البلاد يقين، والعمل إلى جوار الكبار كله أخطار.

تشم في كل جناية رائحة امرأة، وتتحقق من حدسك عندما تعرف أن الحُجة أقيمت على «المعايرجي» بسبب امرأة كان يهواها؛ فبعد القبض عليه بأيام كانت هناك امرأة لديها قطع ذهبية لامعة وغير مضروبة، ربطت عليها في صرة، ثُم تركتها على سبيل الأمانة لدى إحدى صديقاتها، غير أن زوج صديقتها عرف بالأمانة وأصر على فتحها، ليجد الدنانير غير المضروبة، فيسارع إلى إبلاغ «الكتخدا»؛ طلبًا للأمان، وتُدعى صاحبة الخبيئة، لتعترف بأنها تعشق «المعايرجي» وأنه أخفى لديها كنزه.

يبدو الجسد المكوم على ظهر حمار ملون، متورمًا من شدة الضرب، مُثقلًا بآلام فوق الاحتمال، موقنًا أن النهاية على وشك دقائق معدودات، وأن حبل المشنقة المربوط أعلى «باب زويلة» سيحمل جثته بعد قليل، يضرب عبد ضخم الجثة على دف كبير وهو يُكرر أن هذا سارق أموال المسلمين وسينال جزاءه.

يدفعك الفضول إلى أن تفكر فيما يدور في رأس المحكوم عليه بالموت قبل إعدامه، بِمَ يحلم؟ وما يتخيل؟ ومَن يمر بذاكرته؟ وكيف يتصور رحلة عبوره إلى الضفة الأخرى؟ تُشاهد قبل أيام شنق خمسين سارقًا دُفعة واحدة على أبواب القلعة بتهمة سرقة مقهى الباشا في شبرا. كان من اللافت أن بعض المشنوقين خوزقوا قبل شنقهم؛ إذ تلون الدماء أرجلهم من الخلف. يقول لك «الجبرتي»: إن المقهى الكبير استقبل مطلع الشهر شحنات من التبغ والبُن، لكنَّ أحدًا ما عرف بوصول الشحنة وسرقها في الليل، وأمر «الكتخدا» في الصباح بالبحث عن الفاعل دون جدوى، فأوعز إلى أعيُنه بكتابة أسماء بعض اللصوص المعروفين والقبض عليهم ومحاكمتهم ليكونوا عبرةً لمن يعتبر.

يتصوَّر المؤرخ المصري المُدقق أن المُتهمين أبرياء، وأن عقل «الكتخدا» صَوَّر إليه أن تحميل لصوص سابقين عملية سطو جديدة ـ عصيَّة على الكشف ـ أمر مقبول يقارب العدل.

تسمع حكايات وحكايات عن البرطسة والاختلاس والسرقات، وعقوبات قاسية لها، وكلها من نصيب المصريين، ولا يقترب أحد من الأتراك أو من جند «الباشا»، على الرغم من أن مخازيهم وطغيانهم لا حدود لها.

يزغلل عينيك مرأى بيوت عِلْيَة القوم ببهرجتها الغريبة. لو تعلمت الرسم لرسمت قصر «محمد الدفتردار»، زوج كريمة «الباشا»، بأعمدته وأقواسه الساحرة، وبحليات الشبابيك وتيجانها الفسيفسائية، لو تُتقن الوصف لأفضت في وصف بيت «أحمد بونابرته»، أو «حسن لاظ»، أو غيرهما من القادة العظماء. تبدو البنايات من الخارج لوحات فنية بديعة، تخفي داخلها دسائس ومؤامرات وجرائم لا تُغتفر في حق الناس جميعًا.

تحكي لك «سارة بلزوني»، في إحدى ولائمها الشهية التي كثيرًا ما تدعوك إليها باعتبارك أعزبَ وحيدًا، أن «إسماعيل كوجه»، مُدير شُبرا، مرض يومًا بنزلة برد شديدة، وخاف أن تكون نهايته، فطلب من زوجها دواءً أوروبيًّا شافيًا، فذهبت هي بنفسها لتُطبِّب الرجل في قصره، وظلت إلى جواره تمرضه وتداويه حتى برئ تمامًا، فقدم لها ساعة من الذهب الخالص اشتراها أحد رجاله من «سويسرا». تقول لك في سعادة غامرة: إن هدية بسيطة من هؤلاء يُمكن أن تُثري أسرة أوروبية طامحة.

تكتب لـ«جوزيف بانكس» مستغربًا اتساع الهوة بين مَن يحكُمون ومَن يُحكَمون، تُخبره أن هذه البلاد ملأى بالخير، وأن «محمد علي» يستحق عن جدارة لقب «مالك الجنان». تؤكد له أن تاجر الدخان الثعلب سيستمر في حُكم «مِصْر» لأكثر ممَّا يتخيل أحد؛ لأنه يُقيم دولته على أعمدة من الفاسدين الجشعين، الذين يغترفون الأموال دون وجه حق، ويسيطرون على العامة بشنق صغار اللصوص وتجريسهم كل يوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مــوت بطـيء

تُبصر الآن بعين المقيم في الجانب الآخر، مدركًا خفايا كل شيء، أنهم قرؤوا بعض رسائلك إلى «جوزيف بانكس». تعرف الآن أن «الباشا» ردَّد أكثر من مرة أن الولد الإنجليزي لن يرتدع، وأنه مدَّ لك حبال الفرص لتعبر عليها إلى رضاه، لكنك قطعت الحبال جميعًا. تومض عينا «الباشا الكبير» وهو يقول لـ«الكتخدا» المتكور أمامه كجوالِ تبغ: «أريد موتًا هادئًا».. يُكرر «الكتخدا» العبارة ذاتها أمام أحد قتلته السريين الذي يهز رأسه متفهمًا وراسمًا خطته بصبر أيوب ليمتد تنفيذها شهورًا.

يظهر بصَّاصك المكشوف في «حمَّام إينال» الذي تعتاد الذهاب إليه كل جمعة، وهو يمنح المكبساتي «مرزوق» حُقًّا صغيرًا به زيت غريب، جميل الرائحة، ويسر إليه بأن يُدلك به جسد «الحاج إبراهيم بركهارت»، كلما أتى لزيارة المكان.

تتراقص ذرات الزرنيخ المُصفَّى في خليط زيتي الكافور والزيتون سعيدة بفريستها القادمة. تسكر خلاياك بقليل الزرنيخ الذي يسرح ببطء بين مسام جلدك ليستوطن بها في سكون. يعرف الزرنيخ طريقه عبر شرايين دمك، يتجاوب مع سرعة الحركة وينجذب إلى نسيج الكبد ليتكوَّم عليه ليبدأ مهمته.

يُسليك المكبساتي «مرزوق» بالحديث في أثناء تدليكه ظهرك بالزيت المسموم.

يقول لك يومًا: «لماذا لا تتزوَّج يا حاج إبراهيم؟».

فتجيبه بتلقائية عوَّدَتك الإقامة بـ«المحروسة» عليها قائلًا:

«جربت حظي مرة ولم أوفَّق».

تُتابع وأصابع الرجل تُعيد ضبط عمودك الفقري:

«الله يرحمها. راحت في الوبا».

«الله يرحمها، ويعوضك عنها خيرًا».

ثم يُتمتم الرجل بمَثَلٍ شهيرٍ:

«دوا الدهر الصبر عليه».

ومن مثلك صبرًا؟ تنفث في داخلك مسترجعًا ابتسامة «نجلاء» وحنوها على الرغم من تشكُّكك في كونها مُكلَّفة بمراقبتك، وتُكرر التساؤل المُر إن كانت قد حملت منك بالفعل أم لا، هل ماتت فعلًا؟ كيف اختفت هي وشقيقتها وزوج شقيقتها في لحظات؟

يقول لك «مرزوق» مُبتسمًا كصديقٍ:

«النساء رزق».

تستغرب العبارة فيكرر:

«النساء كل شيء في البيت، ما دمت مقتدرًا فلا بد أن تَدفئ حِضنك بلحم طري وشهي يحفظك من شر الأسقام».

ينكتم نَفَسك هُنيهةً بفعل الأبخرة المتصاعدة، ويواصل المكبساتي محاضرته:

«أليس جميلًا أن تعود إلى البيت لتجد طعامًا شهيًّا مطهيًّا، عباءتك نظيفة، فراشك مُرتَّبًا؟ أليس رائعًا أن تمتد أيدٍ ناعمة لتُرتب أشياءك وتحفظ أسرارك؟ أما تمل من عدم الفضفضة مع أحدٍ؟».

«أنا أفضفض معك الآن».

يُكرر القاتل المأمور:

«النساء ضرورة».

تُجاريه فيما يقول، وتسأله:

«وهل لديك عروس؟».

يصمت قليلًا كمَن يُفكر، ثُم يقول لك بعد بُرهة:

«بالطبع لديَّ. ابنتي بكر في الرابعة عشرة، وهي فتاة طائعة، خفيضة الصوت، ربيتها على الأدب والرضا، وجميلة و...».

تُتمتم مقاطعًا:

«صغيرة يا مرزوق!».

يهز رأسه مُنكرًا ويُتمتم:

«ليست صغيرة، ما دامت تحيض فهي تصلح عروسًا.. هكذا يقول الشرع».

تكتم في سرك ما تود قوله له إنكم أيها المصريون تُلحقون كلمة الشرع بأهوائكم كختم سلطاني مطبوع على فرمانات «محمد علي». تسأل نفسك: ما الذي يُسعد أبًا يرمي بابنته لرجل لا يعرف عنه شيئًا سوى أنه سخي ولديه مال ومظهر جيد؟ وكيف لا يستشعر هؤلاء الرجال حرجًا في عرض بناتهم للزواج من غرباء؟

تسمع مُدلكك وهو يدفن الزرنيخ المذاب في الزيت بكتفيك قائلًا:

«إنه من الأفضل لأيِّ غريب في هذه البلاد أن يتزوج؛ لأن أهلها ينظرون بشزر لكل عازب».

تكتم ضحكة بصدرك، وتردد في سِرِّك:

«من قال لك ذلك أيها المتطفل؟ لو كُنت قائدًا بجيش الباشا، عينًا من أعيُنه، جربوعًا يعمل لدى الكتخدا، خادمًا لإبراهيم باشا، لما جرؤ أحد أن ينظر أصلًا نحوك! أنتم عبيد يا مرزوق، صامتون، راضون، ولا تنظرون شزرًا إلا إلى ضعفائكم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جنـازة كريهـة

يوقظك «جيوفاني باتيستا بلزوني» في الصباح الباكر على غير المعتاد، يبدو أمامك بلحيته الكثة وعمامته الملفوفة بعناية كشيخ حلبي يقيم في السوق الكبيرة، يستحثك لارتداء ملابسك والتعطُّر؛ فثَمَّة أمر جلل.

تسأله فيُخبرك أن شقيق «أمينة هانم» لحق بربه، وأن جنازته ستتحرك فور وصول الجثمان من الإسكندرية.

«هل سيحضرها الباشا؟».

يمد شفتيه قائلًا: «لا أعرف»، ثم يوضح: «إنه من المهم أن أحضر؛ فكل رجال الباشا هُناك، وأنت تعرف أنني أنتظر موافقة حضرة الدفتردار للتنقيب عن الآثار في الجنوب، ولو رآني في الجنازة سيكون ذلك مُقَدَّرًا».

تستغرب المغزى من حضور الجنازة، وترتدي ملابسك بتثاقل، لتشعر بحالة انعدام وزن، لا تلبث أن تفرَّ كخاطرٍ كاذبٍ.

يسد «بلزوني» فراغًا في حياتك، يقترب منك كما لو كان يقتفي أثرك، يتعلَّم منك، من حذرك، وفهمك للبلد والناس وأفكارهم، يفتح لك قلبه دومًا دون تحضيرات وكأنه يُقر سلفًا بأستاذيتك. ينتابك في بعض الأحيان شعور بأنه يُعدُّ ليحلَّ محلك، لكنك تستبعد الفكرة كلما تحدث بعفوية خالصة وكأنكما شقيقان.

يقول «بلزوني» عن الفقيد وأنتما تخرجان معًا:

«اسمه مصطفى بك دالي، وهو شقيق أمينة هانم، وكان أحد خلصاء الباشا، وقد ولَّاه كشوفية الشرقية، وكان له بأس شديد في تأديب بقايا المماليك وشراذم العربان».

تبرق عيناه وهو يقول:

«كان يصنع من ضحاياه تماثيل مُحنطة بعد أن يقتلهم، ويقولون: إنه أقام متحفًا لقتلاه من المجرمين والأعداء، وكان يخوزقهم ثم يصُب على أجسادهم قارًا وشمعًا مصهورًا ليتباهى بعرضها على زواره من الأجانب ورجال الباشا».

تهز رأسك بلا استغراب؛ فالقسوة والبشاعة صارتا معتادتين في الرجال المقربين من «الباشا».

يواصل «بلزوني» حكاياته التي جمعها عن الفقيد قائلًا:

«يقولون: إن مصطفى بك دالي كان قويًّا للغاية، وكان أَكُولًا نَهِمًا يأكل كل يوم تيسًا وحده، ثم يشرب دورقًا كبيرًا من اللبن ليبتلع به غداءه، وكانت له جوارٍ من كل لون، ولا يكتفي بواحدة في فراشه».

تسأله في شغف:

«كيف مات؟».

«ضاق صدره فجأة وسقط».

تهز رأسك قائلًا:

«كان لا بُدَّ من أن يحدث ذلك».

تنطلقان معًا لتلحقا الركب الخارج لاستقبال الرجل الميت على الرغم من سخونة الطقس، تركبان حمارين جديرين برحلة قصيرة إلى القرافة، لتعرفا في الطريق أن «الباشا» لن يحضر؛ إذ مات الرجل بالإسكندرية، وذهب «سليمان أغا السلحدار» لإحضار جثمانه ودفنه دون إخبار الهانم.

تعرف بالكارثة بعد بلوغك القرافة؛ إذ يتضح أن رجال الفقيد دفنوه في الإسكندرية قبل ثلاثة أيام، وأن «السلحدار» كان حريصًا على طاعة «الباشا» طاعة عمياء؛ فأمر باستخراج الرمة بعد دفنها، ووضعها في تابوت ونقلها إلى القاهرة لدفنها في مدافن «أمينة هانم».

يضُج الجمع الغفير بالضيق لروائح الجيفة الفواحة الغامرة للمكان، ويبدو الاشمئزاز ظاهرًا على كلاب ضالة تحوم حول المقابر، ويكتم طابور المنافقين الكارهين أنوفهم؛ استياءً من أقذر رائحة تقارب أنوفهم.

يقول لك المسكين «بلزوني» هامسًا: «سأختنق».

تهز رأسك مؤمِّنًا، لتستمع إلى صوت أحد المُشيعين يحادث جاره قائلًا: «لقد أغمي على الحفارين، وهرب أحدهم»، وتُلاحظ همهمات تسري بين الجموع، وترى «الكتخدا» و«الدفتردار» يغادران سريعًا تاركين المُهمة الصعبة لجالب الرمة.

تكاد تتقيأ وتشعر بدوار يدفعك إلى الاستناد إلى ذراع «بلزوني»، وتنسحب بخفة مع المُنسحبين، لتجد إلى جوارك ذراعًا ثقيلة تعرفها تحط على كتفك، قبل أن يقول لك صاحبها في صوت خفيض: «شكر الله سعيك». تبتسم لـ«يحيى أفندي» الذي يمد خطواته في طريق المغادرة وتُقدم له رفيقك «بلزوني»، فيهز رأسه بأنه يعرفه، فقد سبق أن اصطحبه قبل أسابيع للقاء «الباشا»، ويقول لك في اهتمامٍ ظاهرٍ:

«من الضروري أن تساعده في مهمته الصعبة، لقد سمح له الباشا بنقل رأس الصنم الكبير الذي وجدوه في الصعيد إلى إنجلترا، وأمر أن تكون إلى جواره؛ لأنك تعرف دروب الصعيد وبناياتها».

ترى المهامَّ تَتَّحِد، والطرق تتشابك، وتسعد أن يتفق «الباشا» و«هنري صولت» و«بلزوني» على تيسير هجرة الفرعون النائم إلى بلادٍ تعرف قَدْره.

تعاود ركوب حمارك قبل أن يقترب منك «بلزوني» ويهمس في أذنك:

«لا تُخبر سارة بما رأيت وما شممت، لا أريدها أن تشعر بالقرف مني.. أرجوك».

تهز رأسك ولا تقول ما يدور بسرك: «أعرف يا بلزوني. إنها كل شيء لك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسـائـل

يرأف الروائي بحالك، يشعر بقرب نهايتك، يحمل شفقة لا روائية تجاهك، يُطبطب عليك، يمسح عبرات قلبك، يُعيد ألق الحياة إلى وجهك وروحك. يكتب في روايته ما يلي:

يستدعيك «هنري صولت» على عجل، يُخبرك أن لديه مجموعة رسائل مُجمعة لك من الجمعية الجغرافية على مدى الشهور الثلاثة الماضية. رسالة من شقيقتك «آن»، تفُضُّها على عجل لتقرأ أشواقًا حارة، وطمأنة معتادة لأحوال الأشقاء الذين لم تعرف أيهم عن قرب حتى غادرت، وإشارة إلى اعتلال مفاجئ لصحة الوالدة، تقول لك: إن «سارة روهنر» تُقبِّلك بشدة، تلعق ملوحة ماء منحدر على خديها كلما سمعت اسمك، تبرق عيناها كأنك تجلس أمامها، تدعو لك بسعادة وتتحدث عنك بفخرٍ أمام أحفادها، مكررةً لهم أن اسم «بركهارت» سيُردَّد في أنحاء أوروبا بعد حين.

تقرأ رسالة من «مسيو باركر»، القنصل بالشام، يسأل عن صحتك وأحوالك، ويقر لك بأنه قرأ مجموع رسائلك عن الشام وحكاية اكتشاف «البتراء»، وأن الجمعية الجغرافية بصدد طباعتها في مجلد ضخم؛ تخليدًا لهذا العمل العظيم، يُخبرك أيضًا أن رفيق رحلتك «حميد»، يُهدي إليك السلام، وأنه أنشأ مقهى كبيرًا في سوق الحميدية بدمشق، ويدعوك إلى زيارته.

تفض رسالة أخرى تحمل ختمًا صليبيًّا مميزًا لتقرأ فيها خطًّا ركيكًا تعرف كاتبه جيدًا يحمل عبارة واحدة تقول: «حبيبي لويس.. شوقي فوق الوصف، سأزور محروستك قريبًا. مارغريتا». تشتعل نبضات قلبك كجيش مغولي يُحاصر مدينة مُحصنة، تفتك بك الذكرى، ويدفعك الشوق إلى أن تنظر بسعادة غامرة إلى عشرات الرسائل المماثلة المكومة أمامك لتفضها مرتبكًا، متسرعًا، مدفوعًا بالشوق، فتقرأ في واحدة: «تعلمت التمريض، أطبب أطفال الفقراء. مارغريتا»، وفي ثانية: «أنا أخدم الرب على طريقتي، أشارك في إرساليات علاج مرضى الأوبئة»، وفي ثالثة: «حُبي لك يزداد كل يوم، سأرسل لك كلَّ أحدٍ قُبلة شكر لذكرى طُبعت حلاوتها في فؤادي»، وفي رابعة: «أعرف أنك في رحلة مجدك تفعل ما حلمت به دومًا، وأنت سعيد بذلك، لكن لا تنسَ مارغريتك المُتيمة».

تُقلِّب الرسائل سريعًا لتجد في إحداها عبارة يرقص لها قلبك ويُمارس لعبة التحطيب الشعبية مع ذاته تقول: «سأصل إلى الإسكندرية قبل الربيع القادم. يُمكن أن تسأل في الكنيسة الكاثوليكية عن موعد قدوم إرسالية الوقاية من الطاعون. كلي أمل أن أراك ولو ساعة واحدة».

تخلع عباءة الخوف، وترفع قامة الإنسان، وتتذكر مقولة «جيدوني» العظيم إنه ليس أجمل من النساء، وما الحياة إلا امرأة تُحبك.

تقول لنفسك ولـ«مارغريتا»: «سأذهب»، وتُبلغ «بلزوني» بأن يُغادر وحيدًا إلى معابد أبي سمبل ليبدأ حفائره. تدفع له ثلاثة أكياس من الذهب باعتبارك ممولًا

لمهمته، وتَخبره أن يستأجر مَن يحتاج، ويرشو من يقف أمامه في سبيل إخراج ما يستطيع من كنوز تاريخية ونقلها إلى المتحف البريطاني. تقول له باعتباره صديقًا حقيقيًّا: «إن لديَّ موعدًا غراميًّا مؤجلًا مُنذ عشر سنوات، وإنه يستدعي السفر للإسكندرية». يندهش من قولك، لكنه يرضخ بعد أن تؤكد له أنك ستلحق به بعد أن يُنهي دراساته. توصيه وقلبك مُستمر في رقصاته المفرحة: «احمل كل شيء: تصاوير، وتماثيل، وأقلام، وتوابيت، ومومياوات، وبرديات.. إنهم لن يعترضوا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة معطلة

تُبصر بصَّاصك حزينًا، يسودُّ وجهه وترتعش أطرافه وهو يقف خلف راحلتك المُتأهبة للانطلاق نحو الإسكندرية. تشع عيناه نظرات عبوس، ويبدو متململًا من كونه مدفوعًا إلى ما يكره فعله، ويمل تكراره. تُفكر أن تُحادثه، تواجهه، تُخبره أنك كتاب مفتوح لم يغلق يومًا، وسيظل. تُسر له بأن شكوك «الباشا» و«الكتخدا» ورجال العَسَس في غير محلها، وأنك لم تأتِ إلا لتبحث عن المعرفة. تعترف له بأنك أقل من أن تُثير مخاوف رجال جبارين يُخوزقون ضحاياهم ويسومونهم سوء العذاب. تُريد أن تقول له إنك لا تكره هؤلاء الناس، الطيبين والأشرار، والمؤمنين بأن الله سيجمعهم يومًا ليرد الحقوق والمظالم. تدعوه ليرتاح قليلًا من اللف والدوران، خلف قدميك الخائضتين في عد الخطوات بلا كلل. تتمنى لو تصارحتما يومًا فأفضى لك بما يهمه وما يوجعه، وما يطمح إليه لتحكي له دون ضغط حكايتك الرائقة مُذ غادرت «بازل» حتى امتطيت راحلتك المستأجرة للسفر للإسكندرية. تُفكر سائلًا: هل له زوجة وأسرة وبيت؟ هل يُحب ويبش ويحنو على أحدٍ؟ تعذره لعبوديته لأكبر سلطة وخضوعه التام لما هو مأمور به، تصفح عنه إن رماك بنظرة ظن سيئ، أو تصور أنك عدو كافر.

يُصاحبك عبدك الحارس، عارفًا بترتيبات الرحلة ومعالم الطريق، يُمسك بيدك ليُساعدك في الصعود على ظهر الناقة، لكنَّ ألمًا مُفاجئًا يُهاجم أمعاءك، يتقافز داخلك شعورٌ قاسٍ بالاعتلال، تُحاول صرفه بتناول حبة دواء مُسكن من أدوية القنصل «هنري صولت». يشاركك العبد التفاتك نحو التابع المسكين، ثُم يُشيح بوجهه كمن يعرض خدماته، فتهز رأسك كأنك تقول له: لا شيء يستحق التصرف.

تنطلق المسيرة ببطء، وتتأهب لمراجعة خطابات «مارغريتا» مرة أخرى. تتذكر ضحكها وعبثها ومرحها الطفولي، تستعيد رقصاتها في خلواتكما، تسترد طعم القبلة الأولى، تسأل ما كان يحدث لو اخترت رفقتها، وسافرت معك؛ حيث شئت مثلما هو حادث بين «بلزوني» و«سارة»! تُعيد ترتيب أحداث حياتك وحياتها، فبدلًا من سفرك وحيدًا إلى «لندن»، كان يُمكن أن تصطحبها، وبدلًا من أن تترهبن هي وتهجر الحياة، كان يُمكن أن تتعلَّم الطب والتمريض من البداية، وتعمل في تخفيف الأوجاع. تسأل نفسك هل كان ممكنًا أن تُغامر بها لتصطحبك إلى «حلب» و«دمشق» و«عمان» و«البتراء»؟ هل كان مُمكنًا أن تهبط معك «المحروسة»، وتُسافر إلى «إسنا»، ثُم تُشاركك أخطار «النوبة» و«دنقلا» و«السودان»؟ تستبعد الإجابة، مؤمنًا بأن قدرك مرسوم مُسبقًا، وما أنت سوى مركب بلا شراع يدفعه الموج يمينًا ويسارًا لتتحقق إرادة الرب فيك.

تبتسم وأنت تُكرر الالتفات لتابعك لتتأكد أنه ما زال خلفك، يؤدِّي عمله بإخلاص تام، وحتى القاتل المأمور بإذابة الزرنيخ في خلاياك، الذي لم تعرفه بعدُ، يعمل عمله بإتقانٍ. ما بال العاملين في أعمال عامة لا يُتقنون مهنهم؟ ما بال أعمال الخير لا تؤدَّى كما ينبغي لها أن تؤدَّى؟

تواصلان السير معًا لتقتربا من قصر شبرا، حيث يُقيم «الباشا» أحيانًا، تلاحظ حالة هرج، وتكتشف استنفارًا عامًّا بين العساكر الذين وقفوا في صفوف متتالية أمام باب القصر، تغمز بعينك لعبدك الحارس، فيفهم إشارة التقصِّي. ينيخ راحلتك لتجلس على مقهى الباشا لشرب القهوة، ويغيب حارسك وقتًا طويلًا، ثُم يأتيك بالخبر اليقين:

«مات مولانا الأمير طوسون».

«مات؟».

لا تكاد تُصدق، فيؤكد كلامه.

«الوريث!». تهتف في أعماقك. لم تلتقه، لكن كلَّ من التقاه رآه أفضل أفراد العائلة الحاكمة. طوبى لـ«إبراهيم باشا»؛ فسيحل محله لتسقط بين يديه هذه المملكة الكُبرى.

يحكي لك عبدك الحارس ما استقاه:

«كان الأمير مُقيمًا برشيد ولم يأتِ إلى القاهرة سوى زيارة واحدة قبل أسابيع، اصطحب خلالها مجموعة من المُغنين العظماء، مثل: إبراهيم الوراق والحبابي وقشوه، واختار مسؤول الحرملك له عددًا وافرًا من الجواري الحسان لتعليمهن الرقص، ولم يلبث أن أصابته عدوى الطاعون من إحدى الجواري، ومرض لليلة واحدة، ثُم تُوفي إلى رحمة الله في السابع من ذي القعدة. وهناك صلى عليه خليل أفندي قوللي، حاكم رشيد، ووضعه في تابوت خشبي، وأمر بنقله على وجه السرعة عبر النهر إلى القاهرة. ولما وصل الخبر مع التابوت، لم يجرؤ أحد على إخبار الباشا، وبعد مشاورات عدة دخل عليه الكتخدا باكيًا، والباشا يسأله عمَّا حدث فلا يُجيب، حتى سجد أحد الخدم أمامه، وقال له وهو ينُهنه: مولانا الأمير في ذمة الله. يقولون: إن الباشا سقط على الأرض، ولاذ بالصمت لحظاتٍ، ثُم وقف سريعًا على قدميه وكتم دمعًا كاد ينهمر من عينيه، وأمر بألَّا يُخبروا والدته، التي كانت ترتدي السواد على شقيقها».

يُحزنك الخبر، وتُقرر تأجيل الرحلة إلى ما بعد الجنازة؛ فـ«الأمير طوسون»، كان في رأيك أفضل آل «محمد علي»، وأمه سيدة عطوف، والسير في جنازته واجب أعظم من السير في جنازة «مصطفى بك دالي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في جـوار الـحُـزن

تجاور الأحزان قسرًا، تُتابع جنازات تلو أخرى، تسمع حكايات موتى الفجأة فتعتبر. يموت «أحمد بونابرته» في غمرة عنفوانه، يسقط القائد المُهاب وسط حراسه وهو يسير معهم دون سابق إنذار، يُمسك صدره على حين غِرَّة، ويفقد النطق لحظات قبل أن يفقد الحياة كلها. يموت المكبساتي «مرزوق» داخل حمَّامه وهو يؤدِّي عمله، تزور الحمَّام يومًا فتلاحظ غيابه، فتسأل عنه ليصدمك الخبر. يموت «باركر» في دمشق، ويحمل البريد خبر وفاته وهو سهران مع أصدقائه يتحدث بشوق عن دياره وعائلته التي لم تحتمل البقاء في الشرق فعادت لتتركه في غربته.

يقول لك عبدك الحارس في الطريق إلى الإسكندرية: إن موت «الأمير طوسون»، كان بداية لشوطة جديدة بدأت الفتك بالناس. يضع الموت خططه لغزو البلاد، فيخاف الكل، ويقلق. يبدو كل إنسان مُلتصقًا بُدنياه حتى لو كانت كئيبة مُملة وغادرة.

تُقيم في الإسكندرية مُنتظرًا قدوم «مارغريتا»، تبدو عليلًا كما يُلاحظ عبدك الحارس الذي يُركز نظره في عينيك، كأنما يقرأ كتابين مفتوحين يضجان بالشكوى، ترتعش أوصالك بين الحين والآخر، وتصعد درج سُلَّم الخان الذي تقطنه فتشعر بنهجان مُتسارع، وآلام في الصدر، ويُرج قلبك رجًّا كُلما مددت الخُطى نحو كنيسٍ قديمٍ أو بائع مخطوطات.

تنتهي من كتابك عن النوبة، وتُرسل به إلى الجمعية الجغرافية، وتبدأ في ترجمة مخطوط المنامات لـ«ابن أبي الدُّنيا»، ومخطوط الشفا لـ«ابن سينا». تتنشلك القهوة كثيرًا من أوجاعك؛ فتُخفف صُداعًا مُزمنًا يطرق جوانب دماغك كل يوم كمبعوث سلطاني مأمور باستدعائك. تتوقف عن ابتلاع حبات الدواء السحري، بعد أن تشعر بنغزاتها كُلما بدأت رحلة سباحتها في بلعومك.

تحن إلى وجه «مارغريتا»، تجهل إن كان حنينك موجهًا إليها روحًا وجسدًا، أم هو مجرد حنين للماضي؟ تسأل نفسك: هل تغيرت؟ هل خالفت عاداتها؟ هل تبدلت طريقة تعبيرها عن الفرح والحزن؟ هل ذاب مرحها الطفولي؟ هل غادرتها بهجة العبث بكل شيء؟ هل سمنت قليلًا؟ هل وهنت؟ هل غادرت العذوبة وجهها الجميل؟ هل صارت ملامحها أكثر جدية؟ هل ما زالت شهية الشفتين كما كانت؟ هل يُمكن أن تُحرك فيك بقايا شهوة مستكينة؟

تُراجع رسائل حبيبة الماضي، تضمها إلى صدرك، تُقلِّبها بتمعُّن، تشتم رائحة خطها الصغير الركيك، تستعذب شكل الخطاب، تُلامس رقع الجلد، تستنشق عطرًا ما زلت تحفظه، تتخيل أن هذه الرسائل باتت في حِضنها زمنًا قبل أن تنطلق من أمينٍ لأمينٍ لتصل إليك، تُحصي الرسائل واحدة بعد أخرى، تجدها اثنتي عشرة رسالة، تتذكر أنك لم تقرأها جميعًا. تُعيد فتح الرسائل أمامك واحدة تلو أخرى، تلتمع الرسالة الأهم، وتُعيد تهجِّي كلماتها بولهٍ طاغٍ: «سأصل إلى الإسكندرية قبل الربيع القادم. يُمكن أن تسأل في الكنيسة الكاثوليكية عن موعد قدوم إرسالية الوقاية من

الطاعون. كلي أمل أن أراك ولو ساعة واحدة». تفتح ثانية لتقرأ: «أخدم الرب...»، ثم أخرى، وأخرى، وأخرى.. لتجد رسالةً ما لم تطالعها عيناك من قبلُ تقول: «عذرًا حبيبي، تبدَّل الأمل في لحظات. تراجع الدوق عن تمويل إرساليتنا للإسكندرية لورود أخبار عن تفشي الطاعون. أحبك بلا نهاية».

تصدمك الرسالة. كيف لم تقرأها؟ كيف عمي بصرك أيها المُتعالم؟ كيف خطفتك اللهفة فأنستك عنايتك المعهودة؟ تصرخ صموتًا، تغتاظ مُنكتمًا، وتضرب بأصابعك الهزيلة طاولة القراءة، تلعن الطاعون، والدوق، والزمن، وذلك البصَّاص الذي يُتابعك في كل مكانٍ كظلٍّ كريهٍ. تعاودك آلام المعدة والمريء والبنكرياس والأمعاء وكل عضو بجسدك الهزيل. ترى «باشا مصر» جالسًا وسط رجاله وهو يعتصر بيديه قلبك. ما جاء بك من بلادك؟ ما دفعك أن تُفارق؟ ما جعلك تترك محبوبتك وأهلك وناسك؟ ما غيَّر مسارات عُمرك؟

ترتجف، تجف شرايينك، تشحب، وتتثاقل عليك الأحزان كأحجار الأهرامات الثلاثة. تسأل عبدك الحارس أن يعدَّ عدة العودة، ثُم تُغرق رأسك في حوض مياه مُثلجة؛ طلبًا لصدمة البرد بجمجمة مُشتعلة. ترى بعين القادم سيدة وقورًا، ترتدي ثيابًا محتشمة، تبدو مألوفة لك، تقف أمام قبر صغير عليه بلاطة رخام يسكنها اسمك، يظهر وجهها تدريجيًّا لتجدها «مارغريتا» الحبيبة. تسمعها تُحدثك بصوتٍ هامسٍ وتقول: «اعذرني يا حبيبي، فقد تأخرت في القدوم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طلة مـودع

يكتب إليك «بلزوني» أن الغموض يكتنف ممالك الماضي، وأن اللعنات تحيط خبيئات السالفين، لتفتك أمراضٌ عجيبة بعمال حفر وحُمال حجارة وخفر مُسلحين كل يوم. يكتشف المبعوث آثارًا كثيرة وتماثيل كثيرة لـ«أبو الهول»، ومومياوات وملابس وأسلحة قديمة وعطورًا وحُليًّا من الذهب والفضة. يُخبرك أنه أنهى جميع الترتيبات الخاصة بنقل رأس تمثال ممنون بمركب نيلي يصل إلى «القاهرة» ومنها إلى «رشيد»؛ تمهيدًا لسفره إلى أوروبا.

يُسرُّ لك المُغامر اللطيف أن أجمل ما في الرحلة إلى الجنوب هو سرور محبوبته وهيامها بالصحاري والنيل والبسطاء الطيبين. يسعد «بلزوني» بكل ما يُسعد «سارة» التي تمتلك وجدانه، ويعيش سعادته بها.

يقول لك «بلزوني» إنه قابل في الطريق إلى «أسيوط» أفضل بشر قابلهم في حياته، وهم بدو أشداء شجعان ولديهم كرامة وعزيمة ولا ينافقون، أو يخضعون لصاحب سلطان مثل أهل القاهرة. يصف لك خيولهم في خطابه بأنها فاتنة وقوية، ولها سروج صغيرة وجميلة، وأنها مثل ركابها تسير في خيلاء وكبرياء. يحكي لك أن «حسن الكاشف» استقبله بلطفٍ، ووافق على كل مطالبه وتيسيراته فور رؤيته الخطاب الممهور بختم «الباشا»، وأنه صحبه إلى طريق الكباش؛ حيث رأى ما لا عين رأت ولا خطر برأس إنسان.

يزورك «هنري صولت» مرات ومرات، ويُبدي أسفًا على تدهور حالتك الصحية، يُعطي عبدك الحارس التعليمات والأقراص المهدئة، ويعرض عليك نقلك متى شئت إلى أوروبا. تهز رأسك مفترضًا أن آلام الحُمى التي تنتابك تخفت مع الوقت، وأن قدوم الصيف وسخونة الطقس كفيلان بتطهير جسدك من العلل والأضرار التي علقت به.

تحاول مغالبة الوهن المُتسرب إلى خلاياك بالسير في وسط المدينة، تُطالع وجوه التجار المتخابثين، وهم يجادلون، في مكابدةٍ حقيقيةٍ، ألسنةَ النسوة اللاتي يفاصلن في أسعار كل شيء. تتضوَّع روائح البخور والتوابل والقهوة في أزقة «المحروسة» كعلامة مُميزة، وتكاد الكلاب الضالة تعود تدريجيًّا إلى المدينة المُزدحمة بعد أن أعدم منها الفرنسيون فيما مضى مئات الآلاف. تُشاهد جنود «الباشا» يمرون بالأسواق في صلف وغطرسة يزيدان الرائين حنقًا ويملآنهم كراهية، ويجاهر بعض الجند بالتبول واقفين على نواصي الطرقات دون خجلٍ من المارة.

تشعر بألفة عجيبة عندما تسمع نكاتٍ وأمثالًا مصرية بذيئة، يُدهشك إصرار العامة على سَبِّ بعضهم بعضًا بالأم سبابًا فاحشًا، وتتذكَّر أن أهل الشام يسبون بعضهم بعضًا بالأخت، بدلًا من الأم.

تضبط عيناك بسهولةٍ وجوهَ اللصوص المنتشرين وسط الجموع، تعرفهم بسرعة من نظرات الريبة المتقافزة من أعيُنهم، كما تُحدد بفطنة النساء «الخواطي» من طريقة سيرهن في الحارات والعطف. تُصبح خبيرًا، ومُدربًا، وفاهمًا، وعارفًا بالمصريين وبأحوالهم ولفتاتهم وسكناتهم.

تزور الشيخ «عبد الرحمن الجبرتي» فيبدو لك مهمومًا حانقًا كعادته، ويُسر لك الرجل يومًا أنه كان يتمنى أن يعيش إلى يوم يرى فيه الناس، كل الناس، سعداء راضين مُنعَّمين بالعدل، وغاصين في الرضاً. تقول له ساخرًا: «أنت تتحدث عن بلاد ليست موجودة في الكون كله، ولا حتى في أوروبا أو غيرها». يبتسم لك بمرارة ويقول لك كما اعتاد دومًا: «سيدي إبراهيم الإنجليزي، ليتنا نقارب أوروبا يومًا ما».

تُصارحه بأن ما يراه من الأوروبيين ليس هو كل شيء لديهم، وإنما قشور الحضارة؛ فهناك في أقصى أنحاء أوروبا بحور ظلم، وبِرَك فساد، ومستنقعات انحلال. يبدو لك الرجل أسيرًا لشعورٍ طاغٍ بالغدر من «الباشا» ورجاله، وكراهية شديدة تجاه الأتراك، ويشيع هذا الشعور وتلك الكراهية لدى المصريين عامة، الذين فعلوا كل شيء من أجل تنصيب «محمد علي» حاكمًا عليهم؛ ظنًّا منهم أنه رجل عدل وكرم حتى ذاقوا في زمنه ما لم يختبروه أبدًا.

تعاود زيارة الحمَّام، لكنك تشعر بغربة بعيدًا عن ذلك المتطفل الذي اعتدتَ أن يُدلك جسدك بزيوته العطرة الطيبة. مات «مرزوق»، ولم تعرف إن كان قد نجح في تزويج ابنته ذات الأربع عشرة سنة بأيٍّ من الموسرين أم لا، تشعر أن كثيرًا من المسرات تفقد مذاقها الحلو. تتمثَّل يومًا عندما تلمح عند خروجك من الحمَّام امرأة فارعة الطول تُغطي نصف وجهها تسير في الجهة الأخرى، وترميك بشذرات نظر غريبة كُل حين. تتوقف قليلًا، لتُمعن النظر في وجهها فتلمح «نجلاء» بنظرة حنو بالغة القوة ترنو إليك. تهتف داخلك: هي. نعم هي «نجلاء» التي عاشت بين ذراعيك بضعة شهور وأسمعتك كلمة «حبيبي» مرارًا. تمد الخُطى نحوها، فتُسرع من خطواتها وتنحرف في زقاق جانبي، تتبعها مُسرعًا، فتختفي عن ناظريك كلوح ثلج ذائب في برميل مياه ساخنة. تتلفَّت يمينًا ويسارًا وتُنادي بصوتٍ يسمعه المارة باسمها، لكن لا أحد يُجيبك.

تشعر بعيني البصَّاص تتبعانك، تُسجلان أنفاسك التي تتسارع بشكل متسارع وتصعد بصدرك كفلَّاح يتسلَّق نخلًا يرغب في تلقيحه، يموء قلبك كقط بائس يبحث عن بقايا خُبز في ليلٍ باردٍ، تشعر بدوار غريب، أغرب ممَّا عرفت طوال حياتك، ويبدو لك التابع المأمور يُقلب بين كفيه سكينًا صغيرًا تلمع تعرجاته. تسأل نفسك: هل حان وقت التضحية؟ تُفكر مليًّا إن كانت مُضاجعة النصل الحادّ للحمك موجعة؟ تُكرر السؤال الأزلي: كيف هي شهقة النهاية؟ تدور بك الأسواق والحارات والحوانيت والناس العابرون، وتنقلب السماء على الأرض مرات ومرات. وترى وجه الجد «جيدوني» يبتسم لك في لطفٍ ورضا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راجعون

تموت.. تموت. يكتب الروائي سطوره الأخيرة في سيرتك، يجلس عبدك الحارس أمام جسدك الممدد بفراشك الوثير عاصرًا بقايا دمع تُنتجه مقلتاه، يفُض السيد «هنري صولت» كتاب وصيتك ليقرأ بصوتٍ عالٍ: «ادفنوني في مقابر النصر خارج سور المدينة القديمة. غسِّلوني وصلوا عليَّ كمسلم». يهز رأسه موافقًا، ويقول لشيخ المسجد الكبير الذي استدعاه قبل دقائق: «أرجوكَ، حقِّقْ طلبه».

يُتمتم الشيخ قائلًا: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

تسمعهم جميعًا، فتُتمتم معهم:

«إنا لله راجعون».

تلمح وجه «الباشا» مرتاحًا، والبصَّاص هانئًا، والقنصل حائرًا، والمؤرخ مهمومًا، والروائي مُستبشرًا.

تبتسم فيبتسمون جميعًا، وتستعد للقاء بهم.

تمت

القاهرة ـ نوفمبر ٢٠٢٠م

المراجع

اعتمدت الرواية على مؤلفات «لويس بركهارت» المترجمة إلى العربية، وهي:

- العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي – ترجمة: إبراهيم شعلان.

- رحلات إلى النوبة والسودان – ترجمة: فؤاد أندراوس.

- رحلات إلى شبه الجزيرة العربية – ترجمة: هتاف عبد الله.

- ملاحظات على البدو الوهابيين (الجزآن الأول والثاني) – ترجمة: صبري محمد حسن.

فضلًا عن: كتاب بلزوني في مصر – ترجمة: علاء الدين محمود عبد الرحمن.

وكتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجزء السابع)، لعبد الرحمن الجبرتي.

شكر خاص جدّا..

للقراء الأوائل الذين قرؤوا المخطوطة، فعلَّقوا ونصحوا واقترحوا.

الأساتذة الكرام (بترتيب الأبجدية):

أحمد القرملاوي

أحمد عبد المجيد

أشرف العشماوي

ناصر عراق

دمتم مبدعين وناصحين.

مصطفى عبيد

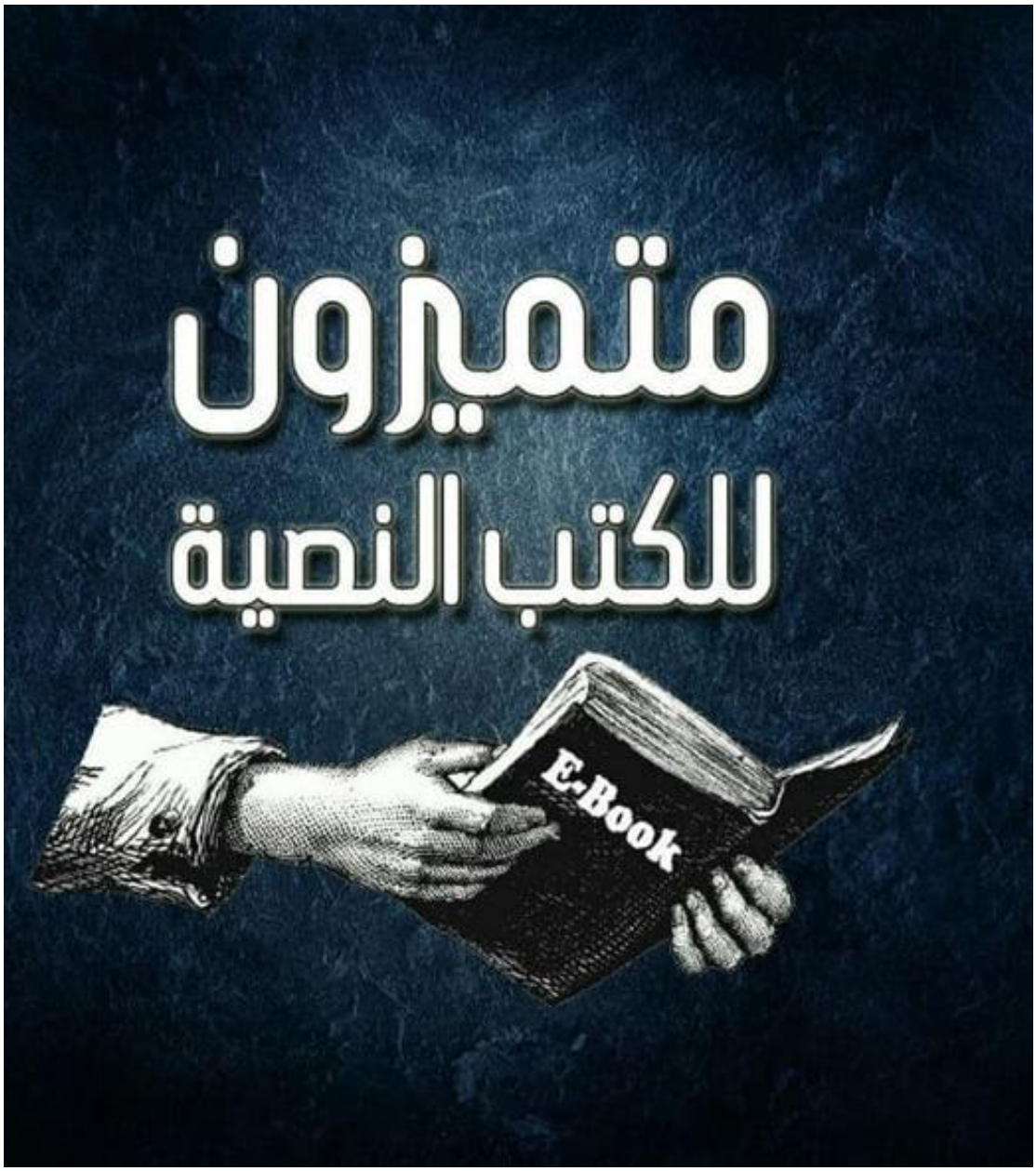
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الفصل الأول

المُتعلم

نوفمبري

«مارغريتا»

قُبـلـة

ضيف ثقيل

وداع سويسرا

للعشق زلات

تركي مُحمدي

سحر الشرق

خطاب توصية

لا خـوف لا تـردد

ثيـاب عربـيـة

الفصل الثاني

نقطة بدايـة

«روبنسون كروزو»

مالطــة

الحاج سيتزين
جواسيس الشرق
كأس كونياك
غلبة العرق
وصية مكررة
حياة النص
بداية الرحلة
محاورات «حميد»
قلعة بانياس
سيدنا الخضر
ضربة شمس
الفصل الثالث
المُكتشف
ألف ليلة وليلة
حفل ختان
توماس كيث
خوف الكاتب
مذبحة مِصْر
مدن الكرم
قرار «حميد»

النعجة الحامية
المدينة المفقودة
الفصل الرابع
الرحَّالة
مدينة الألف عين
نجلاء
كنز زائف
خوارق
نصف الدين
بداية الطريق
«إسنا»
ناس «أسوان»
«إسنا» مرة أخرى
مشاهدات النوبة
مهمة جديدة
الرحلة الخطرة
مع «بكر»
أرقاء
الفصل الخامس
الجاسوس

صمت مؤقت

«قـارون جـدة»

نـهايـة «سعود»

غربـاء

رحلة الغبار

زائـر مباغت

استراحة مسافر

لقـاء لا يُنسى

ضيافـة كريمـة

ابتسـامـة قاتـل

بيـت اللـه

تيــه تابـع

ثـراء المقبـرة

صدمـتـان

غيـاب مؤقت

سقيم مكـة

تخطيط مُحكَم

شهيد المدينة

أقـراص النـجاة

هـديـة مقبـولـة

الفصل السادس

الحكَّاء

سيناء

محاورة

«صولت» و«بلزوني»

تجريس

موت بطيء

جنازة كريهة

رسائل

رحلة معطلة

في جوار الحُزن

طلة مودع

راجعون

المراجع

شكر خاص جدًّا..